مَعَالِمُ

فِي طَرِيقِ العِلْمِ

للعلّامة الإمام السيّد أبي الحسن علي الحسني النّدويّ



- الموضوع: ثقافة إسلامية
- العنوان: معالم في طريق العلم
- تأليف: الشيخ أبي الحسن الندوي
- ترجمة: حسين محمد نعيم الحق

الطَّبْعَةُ الأُولَى

١٤٤٢ هـ - ٢٠٢١ م

ISBN 978-614-415-391-8

ISBN 978-614-415-391-8

9 786144 153918

- الطباعة والتجليد: مطبعة أوسكار - بيروت
- الورق: أبيض / الطباعة: لون واحد / التجليد: غلاف
- القياس: 14×20 / عدد الصفحات: 328 / الوزن: 320 غ



دمشق - سورية - ص.ب: 311
حلبوني - جادة ابن سينا - بناء الجابي
تلفاكس: 2225877 11 963+
2228450 11 963+

بيروت - لبنان - ص.ب: 113/6318
برج أبي حيدر - شارع أبو شقرا
تلفاكس: 817857 1 961+
705701 1 961+
جوال: 204459 3 961+

website: www.ibn-katheer.com / e-mail: info@ibn-katheer.com

/daribnkatheer @daribnkatheer daribnkatheer daribnkatheer



معالم في طريق العلم

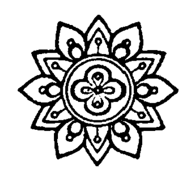
للعلامة الإمام السيد أبي الحسن علي الحسني الندوي

ترجمه إلى العربية

حسين محمد نعيم الحق



دار ابن كثير



الإهداء

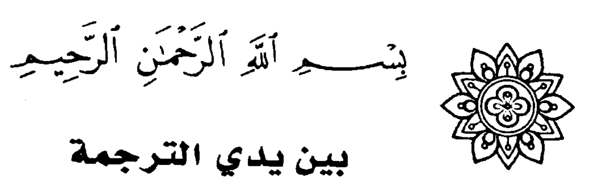
إلى المربِّي الكبير، الأديب الناقد البصير، رائد نهضة اللغة العربية والإصلاح التعليمي الإسلامي في بنغلاديش، فضيلة الشيخ الأستاذ **محمد سلطان ذوق الندوي** حفظه الله تعالى ورعاه.

اعترافًا بفضله، وتقديرًا لجهده، ووفاءً بعهده.

مع تحايا الشكر والامتنان

محبُّكم

نعيم الحق



بين يدي الترجمة

الحمد لله رب العالمين، والصَّلاة والسَّلام على رسوله الأمين، وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن تبعَهم بإيمان وإحسان إلى يوم الدين، وبعد.

فإن الدلالة على الخير، والإرشادَ إلى البِرّ، ونُصحَ الآخرين بما ينفعهم في الدنيا والآخرة من الخصائص البارزة في شرعنا الحنيف، حيث نجد نماذجَها بكثرة في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة.

وقد سار العلماء على هذا المنهاج الرباني النبوي، فأرشدوا الناس إلى الخير، ودلُّوهم على البر؛ ليسود الأرضَ جوٌّ عطِر من الصلاح والصفاء والطهر؛ حتى تكون صالحة للعبادة والخلافة.

وتزداد أهميةُ النصح والإرشاد حين يصدر ذلك عمَّن صار الكتاب والسنة أنيسه، وجعل صاحبَ السيرة العطرة قدوته، وساح في الأرض، والتقى بالعلماء والمختصّين، وكان فوق ذلك

يحمل قلبًا ينبض بحب الخير للغير، ويملك فؤادًا يفيض بالحرارة الإيمانية والغيرة الدينية، مع أسلوب أخّاذ، وإنشاء سلِس جاذب، فيعرض هذه النصائح أمام السامعين والقراء؛ ليستفيدوا منها في حياتهم، وينشروها في الآخرين.

وهذا ما قام به سماحة الشيخ السيِّد أبو الحسن الندوي رحمه الله تعالى في محاضرات توجيهيَّة قيمة، ألقاها في مناسبات علميَّة مختلفة، بين أعوام (١٩٥٤ ـ ١٩٧٣م)، في مراكز علمية كبيرة، كدار العلوم بديوبند، ودار العلوم التابعة لندوة العلماء، وخاطب بها طلبةَ العلم والشباب، وضمّنها خبراتِه العلمية وتجاربه العملية، وذكَّرهم فيها بمسؤولياتِهم الدينيّة وواجباتهم الحضارية.

ولأهميّة هذه المحاضرات وقيمتها في توجيه الشريحة المعنيَّة طبِعتْ مجموعةٌ منها بعنوان: (پاجا سُراغ زندَگِی) باللغة الأردية في حياة المؤلف، فأقبل عليها القُراء برغبة واهتمام، واستفادوا منها في حياتهم العلمية والعملية.

غير أن هذا الكتاب الممتع القيم لم يحظ بترجمته إلى اللغة العربية، مع أهميته، كما حظي بها الكثير من مؤلفات الشيخ رحمه الله تعالى، التي ألَّفها باللغة الأرديَّة، وهو الذي دفعني إلى ترجمته إلى اللغة العربية.

ولعلّ من المناسب أن أذكر هنا بعض القضايا التي أراها مهمة بهذا الصدد، وهي:

أولًا ـ إن قارئ الكتاب سيجد تكرارَ بعض الأفكار والمعاني في ثناياه؛ لأن الكتاب في أصله عبارة عن محاضرات ألقيتْ في مناسبات مختلفة، كما ذُكر، وكانت تلك المناسبات تتطلب تكرارها؛ لأهميتها ولشدة حاجة المخاطَبين إليها، وقد قال الشيخ الندوي في مناسبة مشابهة: «ومعذرة إلى القارئ الكريم إذا وجدَ بعض المعاني واللفتات معادة مكررة في عدد من المحاضرات، وقد كانتْ البيئات التي تلقى فيها هذه المحاضرات تختلف، وتتنوع، فيقتضي المقام والزمان أن تتكرر هذه المعاني، وأن تعاد هذه اللفتات من جديد، وفي ذلك تقليدٌ لأسلوب القرآن الكريم، وتطبيقٌ لأساليب الدعوة والإرشاد التي جرى عليها الدعاة والخطباء من الزمن القديم»[١].

ثانيًا ـ إن الشيخ الندوي قد أكثرَ في هذه المحاضرات من ذكر الأعلام والوقائع والنماذج الهندية، مع أن العلل والأمراض التي ذكرها موجودة بكثرة في العالم الإسلامي كله، بل العالم الإنساني، كما أن الوصفات والحلول التي ذكرها يحتاج إليها

---

(١) الندوي، أبو الحسن علي الحسني، المسلمون وقضية فلسطين (دمشق، دار ابن كثير، ط١، ١٤٢٩هـ) ص١١ ـ ١٢.

الشباب المسلم في العالم كله، وقد كان ذلك بقصد تقريب المعاني التي يريد إيصالها إلى السامعين المباشرين، وكانوا بالطبع من طلبة الهند وشبابها الذين يعرفون هؤلاء الأعلام، ويعيشون هذه الوقائع، ويُدركون تلك النماذج، فكانت في الاستشهاد بها إعانةٌ لهم على استيعاب الأفكار العميقة التي يريد الشيخ نقلها إليهم، ولا يعني ذلك عدم أهمية هذه المحاضرات للمسلمين في العالم العربي وغيره، ولعل نظرة سريعة على الكتاب تُثبت هذه الدعوى.

ثالثًا ـ استشهد الشيخ الندوي رحمه الله تعالى في ثنايا المحاضرات بكثير من أعلام شبه القارة الهندية، كما سبقت الإشارة إليه، وهؤلاء الأعلام وإنْ كانوا معروفين في البيئة الهندية، إلا أن بعضهم قد لا يكون كذلك في العالم العربي وغيره، لا سيما لغير المطّلع على تاريخ تلك البلاد وثقافتها وحضارتها ومدارسها؛ لذا ذكرت تراجمَ مختصرة لأولئك الأعلام عند ورود أسمائهم، إذا ذُكروا مرة واحدة في الكتاب، أما الأعلام الذين تكرر ذكر أسمائهم فيه، فحاولتُ أن أضع تراجمهم في المكان الأنسب لها؛ لأن ذلك قد يعين القارئ في فهم غرض الشيخ من الاستشهاد بهم.

رابعًا ـ خرّجت الأحاديث التي استشهد بها المؤلف، والتزمت في ذلك منهج المحدِّثين الكرام.

خامسًا ـ حذفت نص الأبيات الفارسية والأردية التي أوردها المؤلف في ثنايا الحديث، مع ذكر معانيها وفحواها باللغة العربية؛ لأنها ـ بألفاظها ـ قد لا تفيد القارئ العربي، ويمكن الرجوع إلى الأصل الأردي للكتاب، لمن أراد ذلك، كما حذفت مقدمة الطبعة الأردية للكتاب، التي كتبَها الأستاذ محمد الحسني رحمه الله تعالى؛ لعدم جدواها الكبير.

وأخيرًا أودُّ أن أغتنم هذه الفرصة لأقدِّم خالص شكري وتقديري إلى كل من أعانني في ترجمة هذا الكتاب، لا سيما العالم الأديب المربِّي فضيلة الشيخ أبو طاهر مصباح، الذي استفدت من ترجمته البنغالية القيمة للكتاب في مواضع كثيرة، وكذا العالم المتفنِّن فضيلة الشيخ نور الحق آل عطية، الذي تفضل بالنظر في مسودة الترجمة، وقام بتعديلات قيمة في مواضع عديدة منها، والأستاذة رحمة محمد نظام الدين، التي قرأت المسودة بتمعُّن، وأبدتْ ملاحظات مهمة. كما أشكر الأستاذ علي مستو، صاحب دار ابن كثير، الذي اهتمَّ ـ هو وفريقه الإداري المتميّز ـ بطبع الكتاب، وبذلوا جهودهم القيمة في إخراجه بحلَّة بهيَّة؛ فجزاهم الله تعالى جميعًا خيرًا، وأجزل مثوبتهم في الدارين، وجمعنا جميعًا في حِمى شريعته في الدنيا، وتحت ظلِّ عرشه يوم القيامة، وفي مستقر رحمته في الجنة التي أعِدَّتْ للمتقين.

والله تعالى أسأل أن يجعل هذا العمل المتواضع خالصًا لوجهه الكريم، وأن يجعله شفيعًا لنا يوم الدين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الدوحة - قطر

١٩ محرم ١٤٤٢هـ

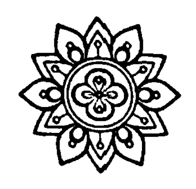
الموافق ٨ سبتمبر ٢٠٢٠م

حسين محمد نعيم الحق

مركز ابن خلدون

للعلوم الإنسانية والاجتماعية

جامعة قطر



الإخلاص والتضحية ومعرفة الذات

ألقى الشيخ الندوي رحمه الله هذه المحاضرة في ٢٥ديسمبر عام ١٩٦٣م في حفل التخرج لخريجي دار العلوم التابعة لندوة العلماء، وبيَّن لهم فيها معالم طريقهم في المستقبل، كما نوَّه بالخصائص الأصيلة والخِصال النبيلة التي يجب أن يتحلّى بها طلبة العلم الشرعي خاصة، والطلبة عامة، والتي تكون زادَ طريقهم وعُدّة سفرهم في صحراء الحياة القاحلة، وقد سجَّل الخريج معين الدين الندوي أهم ما جاء في تلك المحاضرة القيمة النافعة.



الحمد لله ربِّ العالمين، والصَّلاة والسَّلام على رسوله الأمين، وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد:

أعزّائي الطَّلبة! لا غرابةَ في أن يُصيبَكم حزنُ الوداع وألم الفراق في مثل هذا الموقف، كما لا غرابة في أن تُحيط بكم فرحةُ التخرُّج ومسرّةُ النجاح؛ فإن مثل هذا الموقف يجمع بينهما معًا.

ونحن أيضًا يُصيبنا ما يُصِيبكم من الحزن والألم، ويغمرنا ما يغمركم من الفرح والسرور في مثل هذا اليوم، ولكنَّ الأمَّ التي تحبُّ أن تحتضِنَ أولادها بصدرها دائمًا، ولا تستعدُّ لتحمُّل ألم الفراق، لا تستحقُّ البُشرى والتهنئة، بل إن له وقتًا محددًا، حيث تعتني فيه الأمُّ الحنون بأولادها، وتُربِّيهم بالمودّة والمحبّة، ثم تتجرَّع ألم الفراق والغَيبة؛ ليكونوا زادَها في المَعاش والمَعاد.

وهكذا قضيتُم مدّة من الزمن غير قصيرة في رحاب هذه الجامعة العريقة، ولا يُستبعَد أن تتوطَّد بيننا أواصر الأُنس والمحبّة، فهي سُنّة الله تعالى في جميع خَلقه، حيث خلقَ المحبّة والمودّة فيهم، غير أن هذه الميزة تتجلَّى في أبرز صُورها في الإنسان؛ لذا ذهب كثير من كبار علماء النفس، بله علماء اللغة، إلى أن كلمة الإنسان مشتقة من الأُنْس؛ فلا غرابةَ في أن يُحيط

بنا الحزن في مثل هذا الموقف، حيث نفترق بعد الوفاق، ونبتعد بعد الاجتماع، ونتناءى بعد التّداني.

ويغمرنا السُّرور والبهجة أيضًا في نفس الوقت، حيث انتهيتُم من المراحل التعليمية بسلام وأمان في وقتٍ اضطربتْ فيه الأحوال والظُّروف، وقد غادر الاستقرارُ والاطمئنان حياةَ الناس؛ فتستحقُّون الشُّكر والتّهنئة من هذه الناحية، ونحن أيضًا فرِحون مستبشرون بذلك.

التصوُّر الخاطئ لكلمة التخرُّج:

وحين نُطلق كلمة التخرُّج في مثل هذا الموقف، فإن البعضَ يُسيءُ فهمَ مرادِها واستيعابَ مغزاها، وما من شكٍّ في أنه يجب أن تُحدَّد فترة مُعيّنة للدراسة الأكاديمية النظاميَّة، حيث يتخرَّج فيها الطلاب من التعليم المقيَّد، ولكن يجب عليّ أن أُحذِّركم هنا من مَغبَّة الفهم الخاطئ لهذه الكلمة، فإنكم لو فهمتم من مصطلح التخرُّج هذا: أنكم قد انتهيتُم من طلب العلم، وأنه لا حاجةَ بكم إلى مزيد من التعلُّم والدراسة والبحث والتنقيح والمطالعة والمراجعة، فيُمكنني أن أُعلن بصراحةٍ، لا تردُّدَ فيها، أنكم لم تتعلَّموا شيئًا، وأن الجامعة قد فشلتْ فشلاً ذريعًا في تعليمكم إلى أقصى حدٍّ، وأننا فَشِلنا في العملية التعليميّة والتربويّة.

غير أني على يقين تامٍّ بأنكم لم تَفهموا هذا المعنى الخاطئ

من مصطلح التخرُّج، بل إن معناه عندكم ـ فيما أحسب ـ أنكم غدوتم اليوم قادرين على التعلُّم الذاتي، وصِرتُم الآن مُستعدِّينَ للغَوص في بحر العلم العميق، حيث تستطيعون أن تعتمدوا على أنفسكم إلى حدٍّ كبير جدًّا، ولو قلتُ: إنكم قد مُنِحتُم اليوم مفاتيحَ العلم في أيديكم لكان أدقَّ في التصوير وأصدقَ في التعبير، تلك المفاتيح التي يُمكنكم أن تفتحوا بها مغاليقَ كلِّ باب مُوصَد دون العلم، كما يُمكنكم أن تستفيدوا من جميع خزائن العلم، فهي تُفيدكم بقدر ما تستعملونها، وتُعينكم بقدر ما تستخدمونها.

ولا شكَّ أن لكلِّ نظام تعليمي أهدافًا وغاياتٍ يَنشد تحقيقَها، ويريد الوصول إلى قِمَمها، وعلى أساس تحقيقها والوصول إليها يُحكَم عليه بالنجاح أو الفشل.

فلو تمكَّن نظام تعليمي ما أن يُوقظ في طلابه الشُّعور بمدى الجهل المُطبِق الذي يسبحون فيه، ـ وأظنّ أن بعض الآذان لا تستسيغ كلمة «**الشعور بالجهل**» هذه ـ ولكني مُصِرٌّ على استعمالها مع الإدراك التامِّ لمعناها، وهي تُعبِّر عن نفس المعنى الذي يُعبِّر عنه مصطلح الذَّوق العلمي عند أصحاب اللَّباقة.

وإذا استيقظ لديكم هذا الشعور، أعني الشعور بالجهل، فأنتم قد نجحتُم في تحقيق أهداف النظام الدراسي برمّته،

وتستحقون التهنئة والبشرى، وأبارك لإدارتكم الموقَّرة على ذلك؛ لأنه سِرُّ النجاح الباهر، وبوابةُ التقدُّم العلميّ والعمليّ.

وبعد هذه المقدمة أُريد أن أسترعيَ اهتمام إخوتي الخرّيجين الذين يُودِّعوننا اليوم إلى ثلاث كلمات.

الكلمة الأولى: الإخلاص لله تعالى

لو دقَّقتم النظرَ في سِيَر كبار العلماء، الذين تتلألأ أسماؤهم في سماء العلم، ودرستُم حياتهم العلمية والعملية تجدون أن الإخلاص كان أحد العوامل الرئيسة في ذلك، وتَرون أن جميع أعمالهم ونشاطاتهم يُحيطها الإخلاصُ والتَّفاني في سبيل العلم لوجه الله تعالى.

انظروا إلى السيرة الشيخ الملا نظام الدين(١)، الذي يُنسب

---

(١) هو العلامة نظام الدين بن قطب الدين بن عبد الحليم الأنصاري السهالوي، أحد العلماء الأفذاذ في التعليم والتربية والتأليف والتصنيف والدعوة والإرشاد والشجاعة والجهاد، وكان آية من آيات الله تعالى في تعليم الطلبة وتوصيل العلم إليهم بطريقته الخاصة ومنهجه الخاص، حتى طارتْ شهرته في الآفاق، ورحل إليه طلبة العلم من أقطار الهند وخارجها، وقد تخرج على يديه عدد كبير جدًّا من الطلبة الذين غدوا فيما بعد أئمة العلم والدعوة والجهاد في شبه القارة الهندية، ومن مؤلفاته: الأطول في شرح مسلَّم الثبوت في الأصول للقاضي محب الله بن عبد الشكور البهاري، والطويل في=

إليه المنهج النّظامي[1] القائم في هذه البلاد، والذي لم ينحصر دورُه ونشاطه وأثره في شبه القارة الهندية فقط، بل انتشر على

= شرح مسلم الثبوت، وشرح منار الأصول للإمام النسفي، وشرح تحرير الأصول لكمال الدين بن الهمام، والمناقب الرزاقية في سيرة شيخه عبد الرزاق البانسوي، وغيرها، وتوفي يوم الأربعاء ٨ جمادى الأولى سنة ١١٦١هـ. القِنَّوجي، محمد صديق حسن خان، أبجد العلوم (بيروت، دار ابن حزم، ط١، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م) ص٧٠٧، والحسني، عبد الحي، الإعلام بمن في الهند من الأعلام (بيروت، دار ابن حزم، ط١، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م) ج٦، ص٨٥١ ـ ٨٥٢.

(١) هو المنهج الذي كان يتبعه الشيخ نظام الدين في التعليم والتدريس، واشتهر بذلك نسبة إليه، وهو مستمر إلى الآن ـ مع بعض الحذف والإضافة ـ في آلاف المدارس والجامعات الإسلامية في شبه القارة الهندية، وأروبا، وأمريكا، وأستراليا، وجنوب أفريقيا، وغيرها، وقد وصف مؤرخ الهند العلامة عبد الحي الحسني هذا المنهج قائلًا: «. . . جاء الشيخ نظام الدين السهالوي، وأحدث في دروس الهند نظاما جديدًا تلقاه الناس بالقبول، ولم ينقص **إلى الآن** . . . أما خصائص ذلك النظام . . . **إمعان النظر وقوة المطالعة**، ولذلك يحصل للطلبة بعد مدارستهم لذلك **قوة المطالعة**، **ودقة النظر**، **والاستعداد** لتحصيل الكمالات العلمية، وإن كانوا لا يكمّلون بالفعل». الحسني، عبد الحي بن فخر الدين بن عبد العلي، الثقافة الإسلامية في الهند، مراجعة: أبي الحسن الندوي (دمشق، مجمع اللغة العربية، ط٢، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م) ص١٦ ـ ١٧.

وجه المعمورة، وبقي صامدًا رغم المحاولات المتكرّرة لإزالته ومَحْوِه.

ولا تظنُّوا أن ذلك كان لقوة شخصيّة الشيخ نظام الدين العلمية فقط، وقد كان في أقرانه ومعاصريه من هو في رتبته بلا شكّ، إن لم يكونوا أكثر علمًا وفضلاً وذكاء منه، فلنتساءلْ: ما الذي جعل اسمَه حيًّا نشِطًا في ذاكرة التاريخ العلمي! وذِكرُ معاصريه وإنْ أتى فإنه يأتي في ثنايا ذِكره، فلو فكَّرتم مَليًّا في سببه، وبحثتُم عن سِرّه، ودرستُم حياته العلمية والعملية فإنكم تجدون، لا محالة، قوّةَ الإخلاص لله تعالى التي جعلتْ من الشيخ نظام الدين حيًّا إلى هذه الساعة.

وكان سِرُّ هذه القوّة يكمُن في أنه حين تخرَّج من الدراسة الأكاديميّة المنتظمة عرَفَ أن ما يجهله أكثر مما عرفه، وأنَّ ما علمه أقل بكثير مما يجهله، فأعَدَّ عُدّتَه، ورحل إلى شخص مغمور شِبه أمّيّ[١] في أعين الناس، يعيش في قرية مجهولة في أدغال محافظة

---

(١) هو الشيخ المربي عبد الرزاق بن عبد الرحيم الحسيني البانسوي، أحد كبار المربين في الهند، أخذ العلوم الأولية بقرية بانسه، وبايع السيد عبد الصمد خدا نما، ولازمه، واستفاد منه خلقٌ كثير من العلماء وعامة الناس، منهم العلامة نظام الدين السهالوي، والشيخ محمد رضا، والشيخ أحمد عبد الحق، والشيخ إسماعيل بن إبراهيم البلكرامي=

أَوَده ـ أَجُودًا ـ، حيث كان يسكن بعيدًا عن الأضواء، ولكنه كان صاحبَ إخلاص صافٍ وخلُق متين وتربية رزينة.

فلو أراد الشيخ نظام الدين أن يختار لنفسه شيخًا من أولئك، الذين كانوا يُعَدّون أئمةَ العلم في عصره، لوجدَ إلى ذلك سبيلاً بكل يُسر وسهولة، ولكنه آثر التربية والخلُق على الشهرة الواسعة والأضواء الساحرة، فسلَّم نفسَه[1] لذلك الشخص المغمور، الذي

= وغيرهم، توفي سنة ١١٣٦هـ، رحمه الله، ورضي عنه. يُنظر: الحسني، الإعلام بمن في الهند من الأعلام، مصدر سابق، ج٦، ص٧٤٨.

(١) وهي ما تسمّى بالبيعة على الشيخ، وهذه عادة متبعة مشهورة لدى أهل الهند وغيرهم باختلاف طبقاتهم وفئاتهم، وإذا أردنا أن ننظر إلى طريقة البيعة هذه من منظور الشرع الحنيف فيمكن القول بأنه لا شكَّ في أن ديننا الحنيف قد جمع بين الاهتمام بالظاهر والعناية بالباطن، حيث إن التزكية كانتْ من أهم ركائز البعثة المحمدية ـ على صاحبها أزكى الصلاة والسلام والتحية ـ قال الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة: ٢]، وقد سماها البعض بالسلوك أو التصوف أو الفقه الباطن وغيرها من الأسماء والمصطلحات، وجاء ذكرها في الحديث النبوي الشريف باسم الإحسان، كما ورد في حديث جبريل الوارد في الصحيحين، ولا يخفى على أحد أهمية التزكية وضرورتها للصعود في مدارج السالكين، كما ذكر ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه القيم «الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء =

. . . .

= الشيطان» وغيره، والعلامة ابن قيم الجوزية في كتابيه «مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين» و«روضة المحبين ونزهة المشتاقين» وغيرهما.

ولم يحدد رسول الله ﷺ طريقة معينة للتزكية والإحسان، بل زكّى أصحابه ودرَّبهم على مراتب الإحسان بحياته العملية، ثم إن بعض العلماء أحدثوا في ذلك وسائل معينة وطرقًا محددة، وهي إن كانتْ من باب الوسائل التي تُتخذ للوصول إلى الهدف المنشود دون اعتقاد سنيَّتها ولزومها على جميع الناس، فيرى بعض العلماء أن الأمر فيه سَعة، كما اصطلح علماء العقيدة والتفسير والحديث والفقه والأصول وغيرها على كثير من الوسائل والطرائق والمصطلحات والتعريفات.

غير أنها إن مورستْ على أنها سنة مأثورة، فالأمر ليس كذلك، ويبدو من خلال كتابات العلماء والمحدثين في شبه القارة الهندية أنهم يقصدون بالبيعة: الالتزام بإرشاد الشيخ ـ الذي يظهر فيه الصلاح والتقى ويشتهر باتباع الشريعة ـ وتوجيهه ومشورته ونصحه في شؤون الشخص الدينية والدنيوية، ولا يُقصد بها أكثر من ذلك، وهي مأخوذة من مثل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الممتحنة: ١٢] وغيرها من الأدلة.

فيرى هؤلاء المشايخ الكرام أن المسلم، وحتى العالم في بداية أمره، ينبغي أن يلتزم شيخًا من الشيوخ المعروفين بالصلاح والالتزام بتعاليم =

. . . .

= القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة؛ حتى يتسنَّى له السير على هديهما بسهولة ويسر، ولا يوجد في أكثر هؤلاء العلماء الذين يلتزمون بهذه الطريقة مع ضوابطها ما انتقده شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ وغيره في الصوفية المنحرفين عن هدي النبي ﷺ وتعاليم الإسلام الصحيحة، مثل القول بالحلول، والاتحاد، والفناء، ومعرفة الغيب، والقدرة على الخوارق، والسماع المحرم، والنفرة من العلم الشرعي، وتحمل الجوع الشديد، وتكلف الفقر، والعزلة غير الشرعية، والغلو في الشيخ، وتقديس القبور والأضرحة، والاستغاثة بهؤلاء المشايخ وغيرها من البدع والخرافات والخزعبلات التي يخترعها من يدعون التصوف، ويُلبسون أنفسهم لباس الزهد والورع وهم بعيدون كل البعد عن تعاليم الكتاب والسنة، ويريدون بذلك أكل أموال الناس بالباطل.

بل كان أكثر هؤلاء المشايخ أمثلة حية لما نُقل عن السلف الصالح في هديهم وسمتهم وعباداتهم ومعاملاتهم، وقد صرّحوا بضرورة الالتزام بالشريعة الغراء ووجوبه وحتميته بكل تأكيد وعزيمة، قال الإمام العلامة أحمد بن عبد الأحد السرهندي ـ الملقَّب بالمجدد للألف الثاني ـ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «من رام إصلاح الباطن دون الظاهر فهو ملحد، فإنْ حصل له شيء مما أراد فإنه استدراجٌ من الله تعالى، فإن أمارة صلاح الباطن وقبول العبد عند الله امتثاله للأحكام الظاهرة» (يُنظر: مكتوبات الإمام الرباني السرهندي، ج٢، رقم المكتوب: ٨٧)، وقال العلامة أشرف علي العمري التهانوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لا طريق لنا إلى الله إلا ما شرَّعه، ومن قال: إن ثمة طريقًا إلى الله خلاف ما شرَّع =

. . . .

= فقوله زور»، وقال أيضًا: «الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا من اقتفى أثر رسول الله ﷺ» (يُنظر: حكيم الأمة لرحمة الله الندوي، ص٤٥٦ ـ ٤٥٧).

وإذا كانت الصوفية المدعية اشتهرتْ بالاهتمام بالدنيا وملذاتها، فإن هؤلاء المشايخ تميزوا بأعمال وأنشطة تختلف عنهم، حيث جمعوا بين كرسي التعليم، ومحراب العبادة، وميدان السياسة، والمصحف والسيف، والدعوة والجهاد، وقد قادوا حركات الجهاد ضد أئمة الكفر، بدءًا من الإمام أحمد بن عبد الواحد السرهندي (٩٧١ـ ١٠٣٤هـ الموافق ١٥٦٤ ـ ١٦٢٥م)، الذي قاد حركة الجهاد ضد الدين الذي أعلنه الإمبراطور أكبر بن همايون المغولي، مرورًا بالشاه ولي الله الدهلوي (١١١٤ ـ ١١٧٦هـ الموافق ١٧٠٣ ـ ١٧٦٢م)، والإمام المجاهد أحمد بن عرفان الحسني (١٢٠٠ ـ ١٢٤٦هـ/ ١٧٨٦ ـ ١٨٣١م)، والعلامة المجاهد إسماعيل بن عبد الغني الدهلوي (١١٩٣ ـ ١٢٤٦هـ الموافق ١٧٧٩ ـ ١٨٣١م)، وحجة الإسلام محمد قاسم النانوتوي (١٢٤٨ ـ ١٢٩٧هـ الموافق ١٨٣٣ ـ ١٨٨٠م) وفقيه الهند رشيد أحمد الگُنگُوهي (١٢٤٤ ـ ١٣٢٣هـ الموافق ١٨٢٩ ـ ١٩٠٥م)، وشيخ الهند محمود حسن الديوبندي (١٢٦٨ ـ ١٣٣٩هـ الموافق ١٨٥١ ـ ١٩٢٠م) قائد حركة منديل الحرير، والعلامة أشرف علي التهانوي العمري (١٢٨٠ ـ ١٣٦٢هـ الموافق ١٨٦٣ ـ ١٩٤٣م)، والعلامة السيد حسين أحمد المدني (١٢٩٦ ـ ١٣٧٧هـ الموافق ١٨٧٩ ـ ١٩٥٧م) وهلم جرًّا. =

. . . .

= إذن هناك علامات مميِّزة بين الصوفية الباحثة عن ملذات الدنيا وحطامها وبين الصوفية الباحثة عن رضا الرحمن وجنانه، فلا ينبغي الخلط بين علماء السلوك، الذين زهدوا في الدنيا وملذاتها، وأنابوا إلى الله تعالى، ودعوا الناس إلى الإسلام على بصيرة، وقد تأثر كثير من كفار الهند بهؤلاء العلماء وأخلاقهم الفاضلة، وأسلمَ على أيديهم أناس لا يحصي عددهم إلا الله تعالى، وكانت لهم جهود مشكورة في نشر الإسلام والعقيدة الإسلامية، كما يأتي شيءٌ من ذلك في ثنايا الكتاب وتراجمهم في الهامش، فلا ينبغي الخلط بين تصوف هؤلاء العلماء وبين الصوفية الجهلة المبتدعة، فليتنبه المسلم، ولا يقع في مغبة التعميم.

للتفصيل في هذا الموضوع يُنظر: مقدمة الشيخ المحدث عبد الفتاح أبي غدة لرسالة المسترشدين للإمام الحارث المحاسبي (حلب، مكتب المطبوعات الإسلامية، ط٢، ١٣٩١هـ) وما هو التصوف (تصوف كيا هيــــ) مجموعة مقالات كل من الشيخ محمد منظور النعماني، والشيخ أبي الحسن علي الحسني الندوي، والشيخ محمد أويس الندوي، والتزكية والإحسان أو التصوف والسلوك (تزكية واحسان يا تصوف وسلوك) للشيخ أبي الحسن علي الحسني الندوي، ورجال الفكر والدعوة في الإسلام للشيخ الندوي أيضًا (الجزء الثالث والرابع) والمسلمون في الهند للشيخ الندوي، ص١٦٢ فما بعدها، وكتاب الدعوة السلفية في شبه القارة الهندية للشيخ الدكتور عبد الوهاب خليل الرحمن، ص٢١٠ فما بعدها، والتصوف في الفكر الإصلاحي =

لم يُعرف عنه شيءٌ ذو بال، وكل ما عرفنا عنه فيما بعد كان بسبب الشيخ نظام الدين، فلو أردتُ أن أسرد عليكم أمثلةً من هذا النوع لأمكن أن آتي بآلاف منها، ولكن الواحد منها يُرشِد إلى الكثير.

الكلمة الثانية: حماس التَّضحية

وهذه هي الكلمة الثانية التي أُريد أن أقولها لكم، نعم، إنها **التضحية العظيمة، والإيثار الشَّديد، والعزيمة الصُّلبة**، وتلك أمورٌ لو اجتمعتْ في شخص لجعلتْ منه عبقريَّ زمانه، ولأوصَلته من الثَّرَى إلى الثُّرَيَّا، ولو اجتمعتْ هذه في أُمّة أو مؤسَّسة فإن الدنيا تضطرُّ إلى الاعتراف بسيادتها والإقرار بقيادتها رغم أنفها.

الكلمة الثالثة: معرفة القيمة الذاتيّة

إن معرفة القيمة الذاتيّة والموهبة الشخصيّة تُعدّ من أنجح

= التجديدي للشيخ أشرف علي للباحثين؛ شاه معين الدين الهاشمي وجنيد أحمد الهاشمي، ص١٧٥ فما بعدها، والمدارس الفقهية في الهند وأثرها في إثراء الفقه الإسلامي لحسين محمد نعيم الحق، ص١٢ فما بعدها.

وقد طوّلت الكلام هنا؛ لأن ذكر طريقة البيعة هذه سيرِد بكثرة في تراجم العلماء والدعاة الذين تأتي أسماؤهم في ثنايا الكتاب فيما بعد.

الوسائل لِرُقِيِّ الإنسان في مراقي الفلاح، وتقدُّمه في سلَّم النَّجاح، في كل عصر وفي كل مكان، فلو تمكَّنتُم من الجمع بين هذه الصفات الثلاث، وهي: **الإخلاص لله، وحماس التضحية، ومعرفة جوهر الذّات**، فإن الزَّمان لن يتنكَّر لكم قيد أنملة، بل يستعدُّ الزمان والمكان معًا للترحيب بكم وبقدومكم دائمًا، ومن يفتقد هذه الخِصال فإنه حيثما ذهب، وعلى أي درجة علمية حصلتْ، يكون مُحتقَرًا مَهينًا ذليلاً.

وأُذكِّركم مرة أخرى بأنكم لو استطعتُم أن تتحلَّوا بهذه الخصال الثلاث فإن زمان الإمبراطور أورنك زيب[1]، ونظام

---

(١) هو السلطان المغولي والفقيه البارع أبو المظفر محيي الدين أورنك زيب عالمغير بن شهاجهان بن جهانغير، سادس سلاطين المغول في الهند، وُلد عام ١٠٢٨هـ الموافق ١٦١٨م بقرية دوحد، ونشأ على تربية إسلامية صالحة، أخذ العلم عن الشيخ عبد اللطيف السلطانفوري والشيخ محمد هاشم الكيلاني ومحيي الدين بن عبد الله البهاري وغيرهم، وبايع على يد الشيخ محمد معصوم بن الإمام أحمد السرهندي، ولازمه ملازمة تامة بأمر والده. برز في كثير من العلوم والفنون، حتى لمع اسمه، وذاع صيته.
جلس على كرسي السلطنة المغولية عام ١٠٦٨هـ الموافق ١٦٥٧م، وحكّم الشرع، ورفع المظالم، ونشر الأمن، وبادر إلى نشر العدل، وأعزّ الصالحين، ووضع يد البطش على رقاب الفاسدين، وجعل=

. . . .

= العلماء والفقهاء من مستشاريه، وفتح البلاد الكثيرة، حتى وصلتْ حدود المملكة في عصره من المحيط الهندي جنوبًا إلى بخارى شمالًا، ومن جبال هملايا الشاهقة شرقًا إلى سومنات غربًا، ولعلها أوسع حدود وصلتْ إليها هذه المملكة منذ تأسيسها إلى زوالها.

كان عالمًا جليلًا ورجلًا صالحًا ورعًا تقيًا مواظبًا على العبادات والأذكار المأثورة وتلاوة القرآن الكريم، ومجالسة العلماء والمشايخ، ويحرص على الاعتكاف في رمضان، وصوم الإثنين والخميس والجمعة، ويحترز من المكروهات، ويمتنع عن المحرمات، حتى قال الشيخ الطنطاوي عنه: «إنه كان بقية الخلفاء الراشدين».

ومن مآثره العظيمة: أمره بكتابة (الفتاوى الهندية) المعروفة لتوحيد قضاء البلاد كلها، وحفظه للقرآن الكريم بعد الجلوس على كرسي الملك، وكان عالمًا بالحديث والفقه، ويستحضر مسائل الفقه الجزئية، كما كان بارعًا في الخط، حيث كان يكتب المصاحف والكتب ويرسلها إلى الحرمين الشريفين وغيرهما، وكان آية في الإنشاء وكتابة الرسائل والشجاعة وفنون القتال، كما كان مجبولًا على العدل والإحسان في القضاء وفعل الخيرات، مع الصرامة في الحق، وكان دؤوبًا على هذا حتى وافاه الأجل في سنة ١١١٨هـ الموافق ١٧٠٧م بدكن، ودُفن هناك، وقد بقي على الملك ٥٠ عامًا، رحمه الله تعالى ورضي عنه، وجعل الفردوس مثواه. يُنظر: الحسني، الإعلام بمن في الهند من الأعلام، مصدر سابق، ج٦، ص٧٣٧ ـ ٧٤٣، والحسيني، أبو الفضل محمد خليل بن علي، سلك=

الملك الطُّوسي، والإمام الغزالي، والإمام الرّازي، والإمام ابن القَيِّم، وشيخ الإسلام ابن تَيميّة ينتظركم من جديد، ويُعيد التاريخُ نفسَه والماضي ذاتَه لاستقبالكم أنتم فقط، لا غير.

وإن من الغلط الصُّراح والخطأ البيِّن أن يظنَّ أحدُنا أن **التاريخ سيترك له مكانًا شاغرًا في منصة الشَّرف والمكرُمة دون أن يكدّ ويجدّ ويجتهد في الوصول إليه،** فإنه لم يحصل في التاريخ أن الحياة انتظرت أحدًا، ليشغل مكانًا ما من العلم والشَّرف دون التَّفاني في سبيله.

لا، لم يحصل هذا في الماضي، ولن يحصل ذلك في المستقبل!

بل إن التاريخ قائل بمقولة البقاء للأصلح! وهو ناقد حسّاس، يُقدِّم الأصلَحَ على الصّالح والأنفعَ على النّافع دون مجامَلة أو مُداراةٍ، فلو كانت لديك هذه الجوهرة النيِّرة التي تتمكَّن من خلالها إثباتَ ذاتِك وموهبتك للتاريخ، فإنه مُستعدٌّ لاستقبالك عند قدومك الميمون، ويغدو رهن إشارتك في المستقبل.

ولهذا فإن كثرةَ الشكاية وشدّة التذمُّر من الزمان وأهله

= الدرر في أعيان القرن الثامن عشر (بيروت، دار البشائر الإسلامية، ط٣، ١٤٠٨هـ) ج٤، ص١١٣ ـ ١١٤، والطنطاوي، علي، رجال من التاريخ، ج٢، ص١٥ ـ ٢٦.

والمكان ودوره، دون العمل الجادّ والنشاط المستمرّ، ليستْ إلا محاولةً فاشلة لإخفاء الضَّعف الذاتيّ والعيب الشخصيّ، بل هي أمارةُ الشُّعور بالدُّون.

فالخلاصة - أيها الإخوة - أن الدُّنيا لم تتغيَّر، ونظام الكون لم يتبدَّل، وإنما تغيَّرنا نحن، لا غير! فالوقت اليوم كما كان في الماضي، ولكن التبديل والتغيير حصلَا في ذواتنا نحن! فلْنُغيِّرْها لنرى العجائب.

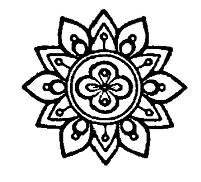
الكلمة الأخيرة:

لو لم يكن هذا التصوُّر أمام أعيُنِنا، وهو الذي شرحتُه لكم، فإنه لا يجوز لنا أبدًا أن نأخذ بأيدي أولاد المسلمين ونشغلهم بدراسة منهج، لا قيمة له في سُوق الدنيا، لا سيَّما في هذا العصر الذي يُهروِلُ فيه النّاسُ وراء المظاهر البرَّاقة والمفاتن الخلَّابة.

ولكنَّ الكلمات الثلاث المذكورة ودورها الدينيَّ الحضاري التاريخي هي التي جعلتْنا أصحاب الحقِّ الأصيل، وجعلتْ بقاءَ دار العلوم التابعة لندوة العلماء، ودار العلوم - ديوبند، ومظاهر العلوم - سهاربنور وغيرها من الجامعات الإسلامية ضرورةً، بل واجبًا دينيًّا وتاريخيًّا، وتلك هي المؤسَّسات التعليميّة التي تُوزِّع نفحاتها العلميّة والعمليَّة والدَّعَويّة في ربوع الهند وغيرها، فبَقاؤُها وتقدُّمُها وتطوُّرها ورُقِيُّها واجبٌ إنسانيٌّ وحضاري.

وأرجو من الإخوة الخرّيجين أن يجعلوا هذه الأمور معالمَ حياتهم وأعْلام سَيرِهم، وأن يجتهد الطلبة الذين يجدون فرصة الاستسقاء من هذا المنهل الصّافي العَذب أعوامًا أخرى أكثر فأكثر لتطبيق هذه الخصال الثلاث، كما أرجو من الإخوة الخِرّيجين ألا يقطعوا صلتَهم بجامعتهم ورسالتها، وأن تبقى أواصر الودِّ والمحبّة متَّصلةً بينكم وبينها إلى آخر لحظة من لحظات الحياة، والسَّلام.





أهداف طَلَبةِ المدارس الإسلاميَّة

ألقى الشيخ الندوي رَحِمَهُ اللهُ هذه المحاضرة في ١٢ مارس عام ١٩٦٤م في الحفل الافتتاحي للعام الدراسي الجديد بجامع ندوة العلماء الفسيح، ووضَّح فيها أهداف المؤسَّسات الدينيَّة، وبيَّن غاياتِ طلابها بتفصيل ووضوح، وقيَّد تلك الكلمة الطالب نعيم صديقي الأعظمي.



الحمد لله، والصَّلاة والسَّلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومَن والاه، وبعد:

إخوتي الأعِزّاء! الحديثُ إليكم في بداية العام الدراسيِّ له أهميَّة بالغة، حيث يُمكن من خلاله التعرُّف على الطَّلبة، كما يُمكن عرضُ تجارب العُمر عليهم، التي تُفيدهم في مستقبل حياتهم العلميَّة والعَمليَّة.

ولا يَخفى أن الكلام في مثل هذا المقام له وجهان مُتقابِلان، فهو سهل من جانب، وصعب من جانب آخر، فهو سهل من جهة أنه حديثُ الأب إلى ابنه، والصَّديق الحَميمِ إلى صديقه، فلا يحتاج إلى تكلُّف وتصنُّع، حيث لا حاجة فيه إلى اختيار نوع الألفاظ واصطفاء نوع الكلمات، بل تُلقى الكلماتُ على عواهنها والألفاظُ على سليقتِها، فتحلُّ محلَّها من القلوب، وهذا وجه حديثي اليوم؛ فإني أُريد أن أُذكِّركم بأمور معروفة لديكم، وأحدِّثكم عن تجاربي في طريق العلم، فكلُّ هذا أمر سهل ومُيسَّر جدًّا، حيث لا أحتاج إلى مزيد نظر وفِكر.

فهو أمر سهل بالنسبة لي ولغيري من الأساتذة الذين قضَوا أعمارَهم في هذ الطَّريق، كما قال القائل: أمضيتُ سنواتِ العُمر الخُضْر في هذا الوادي، فكيف لا أعرف مخارِجَه ومَداخِلَه!

ومع هذا كلِّه، فإن الحديث إليكم في مثل هذا الموقف

صعبٌ أيضًا، وذلك لأن الكلمات فيه تتكاثر على اللِّسان، والأفكار فيه تتسارع إلى العقل، والقِصَص فيه تهرعُ إلى الذّاكرة، وكلُّها تُريد أن تَعرِض نفسَها عليكم، فلا يَدري المُتحدِّثُ مِن أين يَبدأ! وإلى أين ينتهي! وماذا يختار! وماذا يدع! ولا يَخفى أن عمليَّة الاختيار هذه صعبة وشاقّة.

وهذا لا يَعني أن هذه المشكلة ليس لها حلٌّ، بل إن لكلِّ مشكلةٍ حلًّا، وحلُّ هذه المشكلة عندي أن أُلقيَ إليكم تلك الكلمات الجيّاشة في مناسبات شتّى.

إخوتي الأعزاء! بداية أُهنِّئُكم جميعًا بهذه المناسبة السَّعيدة؛ حيث اختاركم الله تعالى جميعًا لوراثة النبوّة المحمَّديَّة، على صاحبها ألفُ ألفِ صلاة وتحيّة، فأُهنِّئُ الطَّلبة القُدامَى؛ لأنهم واصلوا السَّير في درب العلم رغم شِدّةِ العواصف وكثرة المتاعب، كما أُهنِّئُ الطَّلبة الجُدد؛ لأنهم اختاروا الانضمام إلى هذه القافلة الرَّبانيَّة المباركة؛ قافلة العلم الشَّرعيِّ، وما من شكٍّ أنه فضلٌ من الله تعالى كبير؛ حيث وفَّقَ آباءكم وأمهاتِكم لِيُرسلوكم لجَمع مِيراث النبوّة.

وأعرف أن هناكَ بعضَ الطَّلبة الذين لم يختاروا السَّير في هذا الطَّريق طَوعًا، وإنما دُفِعوا إليها دفعًا، حيث كان ذلك اختيارَ أولياء أمورهم من دونهم، وأظنُّهم أيضًا يَستحقُّون التَّهنئةَ

بهذه المناسبة؛ لأنهم أيضًا لا يُحرَمون من فضل الله تعالى ورحمته، وقد ورد في الحديث أن النبيَّ ﷺ قال: «عَجِبَ اللهُ مِن قَوْمٍ يَدخُلونَ الجنَّةَ في السَّلاسِلِ»[١] وهذا يعني أن هؤلاء القوم لم يختاروا طريقَ الجنّة، ولكنَّ الله تعالى مَنَّ عليهم فيَسَّر لهم طريق الجنة، فكأنَّهم سِيقوا إليها مُكبَّلينَ في الأغلال! وهكذا العلم الشرعيُّ فإنه نعمة خالصة من الله تعالى، فمن أُكرِهَ عليه وأُرسِلَ إلى طلبه كَرهًا يستحقُّ البشرى والتهنئة أيضًا.

والغرضُ من هذا كلِّه أنْ أُبيّن لكم أنَّ مَن جاء يطلبُ العلم يستحقُّ التهنئة، كما أن والديه اللَّذين اختارا هذا الطريق لِفِلذة كبدهما يَستحقّان البُشرى والمباركة.

ولكنَّ السُّؤال الذي يَرِدُ هنا: ماذا ستَجنون من سلوك هذا الطريق؟

والجواب على هذا السُّؤال طويلُ الذَّيل، وليس هذا مَوضِعُ بَسطِ الكلام فيه، وقد كتب الإمام أبو حامد الغزاليُّ في هذا الموضوع القيِّم بعُمق وتفصيل في كتابه «إحياء علوم الدين»، فحاولوا قراءته وتدبُّرَه عند الفُرصة؛ لتعرفوا منزلة هذا العلم والأرباحَ التي تَجنونها في آخِر التّجارة العلميّة.

---

(١) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه، كتاب الجهاد والسِّيَر، باب الأسارى في السلاسل، رقم الحديث: ٣٠١٠.

نعمةُ فَهم كلام الله تعالى:

حين كان القارئ يتلو آياتٍ عطِرةً من كتاب الله تعالى قبل قليل كنتُ أُفكِّر في أمر الإنسان، هذا المخلوق الصَّغير الذي لا يُساوي شيئًا أمام هذا الكتاب العظيم، غير أن الله تعالى مَنَّ عليه، ووفَّقه لِفَهم كلام مَن خلقَ البَرّ والبَحر، والسَّماء والأرض، والشَّمس والقمر، وجعله مَحلَّ خطابه!

سبحان الله! ما أعظمَه مِن مَقام! وما أعظمَه من إحسان!

إن الإنسان الذي لا يُعَدّ شيئًا ذا بال، في خِضَمِّ هذا الوجود الكبير العظيم، قد أكرمه الله تعالى بهذه المكرمة الكبيرة والنِّعمةِ العظيمة، ومع ذلك كيف لا يقودُه الشَّوقُ إلى هذا الكتاب العزيز؟ كيف؟ وهل كنا نستحقُّ أن نكونَ مخاطَبِينَ من قِبل ربِّ العالَمين؟

لا أبدًا! ولكنَّه فضلُ الله الذي يُؤتيه مَن يَشاء مِن عِباده.

إنّ فهمَ كلامِ الله تعالى نعمةٌ عظيمة، فلو ثَمِل الإنسانُ إلى هذه النِّعمة، وهاج قلبُه بهذه المِنحة، وطرأتْ عليه حالةٌ من حالات مجنون ليلى العامريَّة فلا يُستغرَب ذلك أبدًا.

هل نسيتُم قصّةَ سيّدنا أُبيِّ بنِ كعب رضي الله عنه؟ افتحوا كتب التاريخ واقرؤُوها مرّةً أُخرى، ماذا فعل هذا الصحابيُّ الجليل

حين أخبره رسول الله ﷺ قائلاً: «إنَّ اللهَ أمرَني أن أقرأ عليكَ القُرآنَ»!

إنّ هذا الخبر ملكَ عليه قلبَه وقالَبَه، وامتلأ فؤادُه وداخِلُه بالحبِّ، فصرخ قائلاً: أو سَمَّاني رَبِّي يا رسولَ الله! آللهُ سمّاني لكَ! هل ذُكرتُ عندَ ربِّ العالمين! ثم بكى![1].

سبحانَ الله! كيفَ كان حبُّ هؤلاء الصَّحابة ﷺ لله ولرسوله، وهل نملكُ عُشرَ مِعشار هذا الحبِّ في قلوبنا وأفئدتِنا؟

إخوتي الأعِزّاء! إنْ لم تحصلوا من هنا إلا على هذه النِّعمة، وهي نعمة فهم كلام الله تعالى، وأنَّنا نغدو أهلاً لفهم خطاب ربِّ العالمين، فصَدِّقوني، إن جميع لذائذ الدُّنيا ونِعَم الأرض لا تُعادل شيئًا مقابل هذه النِّعمة العظيمة، وإن جميع المشاقِّ التي تتحمَّلونها في سبيلها ناجحة، وإن الأموال التي يَبذُلُها آباؤكم في الطَّريق إليها رابحة، وإنكم أنتم النّاجحون، وإن آباءكم وأمهاتِكم هم الرّابحون.

أعزائي! يجب أن يَرسخَ هذا السؤال وجوابُه في ذهنكم،

---

(١) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب ﴿كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ﴾، رقم الحديث: ٤٩٦١، والإمام مسلم في صحيحه، كتاب العلم، باب استحباب قراءة القرآن على أهل الفضل، رقم الحديث: ٧٩٩.

ويتوطَّدا في قلبكم، وهو لماذا أتيتُم إلى هنا؟ وماذا تريدون؟ فيجب عليكم أن تُحدِّدوا أهدافَكم قبل أن تَبدؤُوا سَيركم.

ليس من المُهِمِّ أن يأتي أحدُكم هنا طوعًا أو كرهًا، وهل اخترتم هذا الطريق بإرادتكم أم اختِير لكم؟ بل المهمُّ في الأمر أن يصل بينكم وبين ربكم حبلٌ ذهنيٌّ متينٌ؛ طرفُه الأول في قبضة ربكم والآخر بين أيديكم، وكأنكم تريدون أن تُمهِّدوا طريقًا يربطكم به سبحانه، وتصلون من خلاله إلى ربكم، وتتحدَّثون به مع خالقكم.

أهداف المدارس الإسلامية:

لستُ مستعدًّا أبدًا لأن أقبَل تعريفَ المدرسة الإسلاميّة[١]

---

(١) دأب الشيخ الندوي رحمه الله على إطلاق كلمة «المدرسة» في هذه المحاضرات على المؤسسات التعليمية الإسلامية باختلاف أنواعها ورتبها، وذلك جريًا على عادة أهل الهند فيها، حيث يُطلقون هذا المصطلح على المؤسسات التعليمية الإسلامية والمعاهد الدينية غالبًا، ويُطلقون مصطلح إسكول (School) على المؤسسات التعليمية العصرية، ويدخل في مصطلح المدرسة عندهم: كل الجامعات العريقة والمعاهد الكبيرة والمراكز العظيمة والمدارس الصغيرة وحتى الكتاتيب التي تهتم بالعلوم الإسلامية واللغة العربية، ولا يقتصر ذلك على المدارس الابتدائية والإعدادية والثانوية في عرف الأخوة العرب.

بأنها تلك المؤسَّسة التي تُعلِّم طلابَها اللغة العربيَّة[١]؛ لتُمكِّن

---

(١) خصَّ الشيخ الندوي اللغة العربيَّة هنا بالذكر لكون المدارس الإسلامية تهتم بها بالمقام الأول؛ لكونها لغة القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، ولا يمكن لطالب العلم أن يتمكن في العلم الشرعي دون التمكن فيها، كما نبَّه على ذلك الأئمة الأعلام، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «إن نفس اللغة العربية من الدين، ومعرفتها فرض واجب، فإن فهم الكتاب والسنة فرض، ولا يُفهم إلا بفهم اللغة العربية، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب»، وقال الإمام أبو إسحاق الشاطبي: «إن هذه الشريعة المباركة عربيَّة، لا مدخل فيها للألسن العجميَّة . . . القرآن نزل بلسان العرب . . . فمن أراد تفهمه [أي القرآن الكريم] فمن جهة لسان العرب يُفهم، ولا سبيل إلى تطلب فهمه من غير هذه الجهة». يُنظر: ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم الحراني، اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم، تحقيق: الدكتور ناصر الدين العقل (بيروت، دار عالم الكتب، ط٧، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م) ج١، ص٥٢٧، والشاطبي، أبو إسحاق إبراهيم بن موسى اللخمي الأندلسي، الموافقات، تحقيق: العلامة عبد الله دراز (بيروت، دار الكتب العلميَّة، ط٢، ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٩م) ص٢٥٥.

فمعرفة اللغة العربيَّة والتمكن منها وإنْ كانت شرطًا أساسيًّا لكل من يريد فهم الشريعة على تمامها غير أن هذا الشرط يكون أكثر أهمية بالنسبة لطلاب العجم الذين ليست اللغة العربيَّة لغتهم الأم، وتاليًا =

الطلابَ من فهم الكتب المؤلَّفة بها، ويمكنهم من خلالها أن يستفيدوا من الدنيا ومترفاتها.

لا، لا يمكن أن يكون هذا تعريفَ المدرسة الإسلامية، بل هي: ذلك المكان النيِّر الذي يُؤدِّي دورَ همزة الوصل بين الله تعالى وبين طالب العلم، وتجعل بين الله تعالى وبين طلابها حبلاً متينًا، يكون طرفٌ منه في أيديهم وطرف آخر منه في قبضة ربِّ العالمين.

مهامُّ طلبة العلم الشرعيِّ:

أعِزّائي! يجب عليكم أن تُدركوا تمامًا الشُّروطَ الأساسيَّة لحصول نعمة العلم، وماذا يجب عليكم أن تَقوموا به في سبيلها؟

وتتمثَّل مَهامُّكم في نظري في الأمور الآتية:

أولاً ـ يجب عليكم أن تكونوا شاكرين لله تعالى، فعَلِّموا أنفسَكم الشُّكرَ، ثم فكّروا جيّدًا، وتأمَّلوا مَلِيًّا في أن الله تعالى قد أقامكم في مقام الأنبياء المرسلين والعلماء الربانيين، فلو رجعتم بعد ذلك إلى ما كنتم عليه، فإنه أمرٌ مُخزٍ وقبيحٌ جدًّا.

= فهم يحتاجون إلى مزيد من الكد والجد والاجتهاد في تعلمها والتمكن منها، ومن هنا جاءتْ تسمية المدارس الإسلامية في كثير من الدول غير العربية بالمدارس العربيَّة، باعتبار أنها التي تهتم بها، ولا يعني ذلك أنهم لا يدرسون فيها غير اللغة العربية.

فجِدُّوا واجتهدوا للسَّير في هذا الطريق، فإنكم ستَرون فيه آثار أقدام الأنبياء والصِّدِّيقينَ، والشُّهداءِ والصّالحينَ، وتكونون أهلاً لنور الهداية والنبوّة.

ثانيًا ـ اجتهدوا في سلوك هذا الطَّريق، واتِّباع النِّظام الذي يُحدِّده لكم مركزكم العلميُّ، فما من طريق إلا وله قواعد معيَّنة وضوابط مُحدَّدة، وقواعدُ هذا الطريق وضوابطه أن تلتزموا بالفرائض في المساجد مع الجماعة، وتهتمُّوا بالنَّوافل، وتُكوِّنوا ذوقًا خاصًّا مع الذكر والعبادة.

ثالثًا ـ تحلَّوا بأخلاق الأنبياء والعلماء، وتمرَّسوا على الصَّبر، والزهد، والاستغناء عن المخلوق كائنًا مَن كان.

رابعًا ـ تأدَّبوا بآداب الإسلام في أعمالكم وأفعالكم وسُلوككم، واتَّبِعُوا سِيَر الأعلام في هذا الطريق.

فوالله لا أخاف عليكم الفقر بعد أن تتخرَّجوا من هذه المدارس، ولكني أخشى عليكم أن تُسلَب منكم هذه النِّعمةُ، التي شرَّفكم الله تعالى بها، واصطفاكم لها من بين سائر الناس، فلو شكرتم الله تعالى عليها، وقدَّرتم حقَّها، فسيزيدكم من فضله، ويُنفِّذ فيكم وعدَه القائل: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧].

واعلموا أنكم لن تتمكَّنوا من تقديم شيء ذي بال لأمتكم وقومِكم ما لم تُوقِظُوا مَواهِبَكم الذاتيَّة، وتُؤسِّسوا استعداداتكم

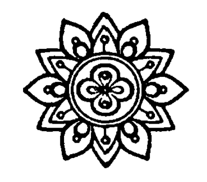
النفسيَّة، وإلا فلن تستطيعوا أن تَقوموا بأي خدمة جليلة في دنيا الناس لأجل الدِّين.

وأخيرًا، أريدُ أن أُذكِّركم مرّةً أُخرى بأن عليكم أن تُحدِّدوا أهدافَكم في الحياة جيّدًا، وأن تَعرفوا مقامَكم ومكانكم بوضوح، وأن تُدركوا مهامَّكم ومسؤولياتكم تمامًا قبل أن تَبدؤوا السَّيرَ في هذا الطريق، وعليكم أن تجعلوا العلمَ وتكوينَ الذّات غايتَكم الأولى وهدفَكم الأسمى، وألا تلتفِتُوا إلى أيِّ شيء آخر غيره.

فإنكم لو فعلتُم ذلك ستنجحون في الدُّينا، وتصلون إلى مبتغاكم فيها، ويكون النجاح حليفكم، وتُقَبِّل الدُّنيا أقدامَكم، وحين تُقدِمون على ربِّكم فإن البَهجة تَلوحُ على وجوهِكم، والسُّرورَ يغمر صدورَكم.

وفَّقَكم الله تعالى لكلِّ خير، وآخِرُ دَعوانا أن الحمد لله ربِّ العالمين.





العلاقة مع الأساتذة والكفاح الذاتيُّ والحبُّ الإلهيُّ

في ٢٥ رجب ١٣٨٥هـ الموافق ٢٠ نوفمبر ١٩٦٥م انعقد حفل توديع الخرّيجين في القاعة الجماليَّة، وقد أبدى فيه بعض الخِرّيجين انطباعاتهم، ثم ألقى الشيخ الندوي محاضرة مختصرة بهذا الصَّدد، وقيَّدها كلٌّ من محمد حميد الله المناروي وعبد الحليم البستوي.



العادة القديمة:

أعِزّائي الطَّلبةُ! جرت العادةُ في الثّقافة الشرقيّةِ مِن قديم الزَّمان أن الإنسان حين يرغبُ في السَّفر إلى مكان بعيد يطلب النَّصائح والإرشاداتِ من المُخلِصينَ المُحبِّينَ الذين يملكون تجاربَ واسعة في ميدان الحياة، فرغبتُكم في أن أتحدَّث إليكم صحيحةٌ ومَعقولة من هذا المُنطلق، وسواء كان ذلك منّي أم من غيري، فإن حديثَ أهل الخِبرة والتَّجربة الذي يُمكن أن تجعلوه لوائحَ السَّير وقوانينَ المرور إلى الهدف المنشود والنجاح المطلوب أمرٌ مناسب للغاية.

ولكنَّ الوقت قليل والحديث طويل، فماذا أقول! وماذا أدَعُ! فذروني أقُلْ لكم أمورًا هامّة باختصار شديد، وهذا الاختصار يُعدّ بمثابة كتابة رقم ٧٨٦[١] لمراعاة أدب البدء بالبسملة بدلاً من

---

(١) جرتْ عادة بعض الناس في شبه القارة الهندية وغيرها على أن يكتب العدد [٧٨٦] بدلًا من كتابة [بسم الله الرحمن الرحيم] بقصد الاختصار عند الابتداء بكتابة شيء ما، ولا ندري كيف ترسّختْ هذه الطريقة في أذهانهم! ومن أرشدهم إليها!! ولكنْ هكذا جرتْ عادتهم، فهذا العدد يمثّل مجموع أعداد أحرف البسملة على طريقة حساب الجُمَّل من حروف المعجم، وللتفصيل عن حساب الجمل يُنظر: الجرمي، إبراهيم محمد، معجم علوم القرآن (دمشق، دار القلم، ط١، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م) ص١٣٣ ـ ١٣٤.

كتابة «بسم الله الرحمن الرحيم»، وواضح أن البركة التي تحصل بكتابة البسملة لا تحصل بكتابة هذا الرَّقم، كما أنه بمثابة التلخيص لكتابٍ طويل، فهل يُغني التلخيص وكتابة الرقم عن أصلهما؟

كلا! ومع ذلك ألفت أنظاركم إلى ثلاثة أمور مُهمّة على عجالة، فأصْغُوا إليها بإنصات، واستمعوا إليها باهتمام، وثَبِّتُوها على لوائح قلوبكم، وأودِعُوها في خزانة عقولكم.

ومن المفيد ـ في مثل هذا المقام ـ أن يذكر الإنسان شيئًا عن تجاربه الشخصيَّة الواقعيّة، وخبراته الذاتيّة الصّادقة؛ لأنها لا تَقبلُ الخطأ إلا نادرًا، ومن هنا أُحاول أن أعرض عليكم أمورًا مُهمّة من خلال تجاربي العَمَليّة وخبراتي العِلمية.

العلاقة الشخصيّة بالأساتذة:

كنت شخصيًّا على علاقة قويّة مع شيوخي الكرام وأساتذتي الأجلاء منذُ الصِّغر، ولستُ أقصد بالعلاقة هنا تلك العلاقة الرسميَّة التي تكون بين الأستاذ وتلميذه وبين الشيخ وطالبه عادةً، وإنما أقصد بها العلاقة الحَميميَّةَ الدائمة التي يُحِسُّ بها الطرفان. وهذا هو الأمر الأول.

وأغلب ظنِّي أن ما فتح الله تعالى عليَّ من العلم والمعرفة كان نتيجة تلك الصِّلة العميقة التي تربطني مع أساتذتي وشيوخي،

وقد كان من حسن حظّي أن قائمة شيوخي قصيرةٌ للغاية، ومن هنا استطعتُ أن أُقدِّم لهم واجبَ الاحترام اللائق والتقدير المطلوب، وأن أُكوّن العلاقةَ القويّةَ معهم، وأستفيد من علومهم ومعارفهم وخلُقهم وهَدْيهم؛ لأن من المهمِّ للغاية لطالب العلم أن يطلبَه تحت إشراف أساتذة بارعين في الفنّ الذي يَميل إليه، ويتخصَّص فيه، وأن يُحاول جاهدًا الاستشارة معهم والاستفادة منهم، ولا يُمكن ذلك أبدًا بدون علاقة قويّة معهم وصِلة عميقة بهم.

فإذا كنتَ مَعنِيًّا بالأدب ـ مثلاً ـ فحاوِلْ أن تستفيدَ من الشَّخص الذي ترى أسلوبَه وطريقتَه أكثرَ قُربًا منك وتأثيرًا فيكَ، وإذا كنتَ مَعنيًّا بالتفسير أو غيره من العلوم فحاوِلْ أن تُكوّن علاقةً قويَّةً مع مهَرة هذا العلم، واستَشِرْهم في ذلك، وسيُقدّمون لك نصائحَ غاليةً وإرشاداتٍ قيّمةً تكون بمثابة مِشعَلِ النور وخارطة الطريق في دربك الطويل مع العلم.

فيجب عليك ـ أولاً ـ أن تختار لنفسك مُرشدًا مُخلِصًا يكون قائدَ حياتك، وابدأ حياتك العلميّة معه؛ لأن من الحقائق الثابتة التي لا تقبل المِراء أن السّراج يُوقَد من السّراج، وأن النهر يجري من البحر، فلك حرّيةُ اختيار منْ تشاء منهم، ومن أيّ مكان تشاء، ثم استرشِدْ بأوامره ونصائحه، بل أقول وأزيد: إن لم تجِدْ مثلَ هذا الشَّخص فوق الأرض فابحثْ عنه تحتَ

الأرض، وإنْ لم تحصل عليه في قافلة الأحياء فابحثْ عنه في قائمة الأموات، فحيثما وجدتَه اتّبِعْه، وحاوِلْ أن تطبِّقَ في نفسك ما كان يَفعلُه ذلكَ الشَّخصُ.

إن الله تعالى قد منَّ على الإنسان بنِعمةٍ عظيمة ومِنحةٍ جَليلة، وهي القدرةُ على التكيُّف مع الحياة كيفما كانت، والتعوُّد على ما يريد كيف شاء بشرط صدق العزيمة وقوّةِ الإرادة، فحاوِلْ أن تتّبِعَ طريقَ تلك الشَّخصيّة التي اخترتَها بإرادتك، فتصبح عظيمًا مثله بإذن الله تعالى، ولعلك تصل إلى درجةٍ أعلى من درجته، بحيث لا تحتاج بعدها إلى اتِّباعه، وإنْ كان ذلك لا يحصل إلا نادرًا.

الجهد الذاتي:

وهذا هو الأمر الثاني الذي أُريد أن أقولَه هنا، وهو أنك لو اخترتَ أي شخصيّة تاريخيَّة عظيمة، وبدأتَ قراءةَ سيرته، وحاولتَ أن تصلَ إلى سرٍّ نُبوغِه فستجد أنه لم يصل إلى تلك الرُّتبة العالية والمنزلة الرفيعة إلا بعد جهود ذاتيّة مُتواصلة، وأنّ هدفَه كان واضحًا أمامه، وكان يتطلّع إليه دائمًا، ولا تجد غير ذلك وراء نبوغه وبروزه بالمقام الأول، فأيُّ مقامٍ بلغَ إليه ذلك الشخص وصل بجهده وجِدِّه وكَدِّه وسهره، وما من شكٍّ أن توفيق الله تعالى أولاً ثم إرشاد الأساتذة ثانيًا مُهمٌّ للغاية في هذا

المشوار، ولكنّ الإنسان يستطيع أن يصل إلى جميع الغايات الكبرى والأهداف العظمى بجهده الشَّخصيّ وجِدِّه النفسيِّ بعد توفيقٍ من الله تعالى.

الحبُّ الإلهيُّ:

الأمر الثالث الذي أُريد أن أقولَه هنا هو: أنه يجب على الإنسان أن يُفكِّر في الغاية التي خُلِق لأجلها، وهي التفكُّر في أمر الآخرة، والبحثُ عن طرق الوصول إلى مرضاة الله سبحانه وتعالى، والرغبة الصادقة والإرادة الكاملة للحصول على رضاه؛ لأن الإنسان إذا افتقد شيئًا من هذه الأمور المذكورة لا يُمكنه البلوغُ إلى غاية الحياة، مهما كان أديبًا بليغًا أو خطيبًا مُفلِقًا أو مُفسّرًا بارعًا أو فقيهًا مجتهدًا، ولعله يصل إلى بعض الشُّهرة والسُّمعة والشَّعبيّة، ولكن شيئًا من ذلك لا يُفيده في نهاية المطاف؛ لأن **الشيء المفيد حقيقةً هو الخوف من الله تعالى والخشيةُ منه**، والتفكُّر في الآخرة، والبحث عن رضاه سبحانه.

سأل الشيخ فضل الرحمن الغنج مراد آبادي[1] أحدَ طلابه مرّةً: ماذا قرأتَ أيُّها الولد؟

---

(١) هو الإمام المحدث فضل الرحمن بن أهل الله بن محمد فياض الصديقي الغنج مراد آبادي، أحد كبار العلماء ومشاهير الدعاة في الهند، وُلد عام ١٢٠٨هـ ببلدة ملّانوان، وقرأ العلوم على يد الشيخ=

. . . .

= نور بن أنوار الأنصاري وغيره، ثم سافر إلى دهلي، وأخذ الحديث النبوي الشريف عن علامة الهند عبد العزيز بن ولي الله الدهلوي، والعلامة غلام علي، والعلامة محمد آفاق، كما أخذ كتب الصحاح الستة عن العلامة محمد إسحاق بن محمد أفضل بن عبد العزيز الدهلوي، وبايع على يد الشيخ محمد آفاق الدهلوي، ولازمه مدة طويلة استفاد خلالها من علمه وتربيته، ثم اشتغل بتصحيح المصاحف في دور الطباعة، وتدريس القرآن الكريم، والحديث الشريف.

كان مثالًا حيًّا لهدي النبي ﷺ وسمته، ولا يتجاوزه بأي حال من الأحوال، كما كان صداعًا بالحق، ولو كان على وجه جبار عنيد، فاشتهر أمره وذاع صيته، فتهافت عليه الناس تهافت الظمآن على الماء، ورزقه الله تعالى من حسن القبول ما لم يُرزَقْ أحدٌ من المشايخ في عصره، وقد تتلمذ على يديه كبار علماء عصره، وتوفي ١٣١٣هـ بمدينة غنج مراد آباد، ودُفن بمقبرة مراد خان، وقد صنّف كثير من العلماء في سيرته، كما دوّنوا أقواله وملفوظاته، منها: إرشاد رحماني لتلميذه العلامة محمد علي المونغري، وفضل رحماني للشيخ تجمل حسين البهاري، وهدية عشاق رحماني للشيخ عبد الغفار الآسيوني وغيرهم، رحمه الله رحمة واسعة، وجعل الفردوس مأواه.

يُنظر: الحسني، الإعلام بمن في الهند من الأعلام، مصدر سابق، ج٨، ص١٣٢٦ ـ ١٣٢٨، والندوي، ربانيّة لا رهبانية (بيروت، دار الفتح، ط١، ١٣٨٦) ص١٢٣ ـ ١٤٤.

فأجابه قائلاً: قاضي مبارك[١].

فقال الشيخ: «أستغفرُ الله! أعوذُ بالله! قلْ لي: ماذا حصل لك بعد قراءة كتاب قاضي مبارك؟ هبْ أنك وصلتَ إلى رتبة القاضي مبارك نفسِه في المنطق، ثم ماذا؟ انظر إلى قبر القاضي المبارك، ماذا يحصل له[٢]؟ وانظر إلى قبر أدنى رجل من عامّة المسلمين ممَّن يتَّقون الله تعالى، كيف تتلألأ أنوار الإيمان في قبره؟»

---

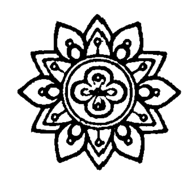
(١) قاضي مبارك أو شرح القاضي مبارك كتاب في المنطق، ألَّفه العلامة القاضي مبارك بن محمد دائم العمري الكوباموي (المتوفى ١١٦٢هـ) الذي كان من مشاهير الأذكياء ونوادر النجباء في عصره، ويُعدّ كتابه هذا شرحًا دقيقًا لسُلّم العلوم للعلامة محب الله بن عبد الشكور البهاري (المتوفى ١١١٩هـ)، ويُضرب به المثل في الصعوبة والدقة والعمق، وتُعدُّ قراءة هذا الكتاب شهادة الذكاء والنباهة والنجابة لقارئه. يُنظر: الحسني، الإعلام بمن في الهند من الأعلام، مصدر سابق، ج٦، ص٧٩٢.

(٢) لا يخفى أن العلامة المراد آبادي هنا لا يُخبر عن حال القاضي مبارك رحمه الله في القبر، فأنى له ذلك، كما لا يقصد التقليلَ من شأن القاضي وازدراءَ كتابِه، وعلمُه وورَعه يأبيان أن يفعل ذلك في حقِّ أدنى شخصٍ من المسلمين، بله رجل في رتبة القاضي مبارك، القاضي الفقيه المتكلم، ولكن القصد منه إبراز أهمية التقوى، لا غير، والله تعالى أعلم.

هبْ أنك صِرتَ أديبًا مَرموقًا وكاتبًا بليغًا، ولكنّك رسبتَ في اختبار الحياة، وفشلتَ في إرضاء الله سبحانه وتعالى، فماذا يُفيدُك الأدب والإنشاء؟ ولا يظنَّنَّ أحدٌ أني أُزهِّد النّاسَ في العلم، بل إنني استفدتُ شخصيًّا من مَهارتي في هذه العلوم، ولكنَّها لا تُجدي نفعًا إنْ لم تكنِ الغاية منها رضا الله تعالى؛ لذا قَدِّمُوه على كلِّ هدف سامقٍ وغاية نبيلة في الدُّنيا، واجعلوه مَقصدَ حياتكم ومُنيةَ وجودكم على هذه الأرض، والسَّلام.







مكانة طلاب العلوم الإسلامية ومسؤولياتهم تجاه الحضارة المعاصرة

كتب الشيخ الندوي رحمه الله هذه المقالة لإلقائها على طلاب دار العلوم بديوبند الشهيرة في مارس عام ١٩٥٤هـ، ثم طبعتْ في رسالة مستقلة ونُشرتْ، وقد بيَّن فيها الشيخ مكانة طلاب الجامعات والمدارس والمعاهد الإسلامية ومسؤوليات طلَبتها وخرّيجيها بشكل واضح جليّ، ولفتَ أنظارهم إلى ما يتوقّعه منهم العصر الجديد، والمؤهّلات العلمية والاستعدادات العملية التي يحتاجونها لأداء دورهم الدَّعويّ والدِّينيّ والحضاريّ فيه.



ربِّ اشرحْ لي صدري، ويسِّرْ لي أمري، واحلُلْ عقدةً من لساني يَفقَهُوا قَولي.

إخوتي الأعزاء! أودّ أن أتحدَّث إليكم اليومَ بوَصفِكم طلاب المدارس الإسلامية، وبصفتي خادمًا قديمًا فيها ورَفيقًا لكم في درب العلم.

إن هذا الدَّربَ انطلق فيه سَيرُ قافلة العلم المباركة منذ ألف وأربعمائة سنة، من مدرسة الصُّفّة النَّبويّة، واستمرَّ هذا السَّفْرُ على مرِّ الأيام وكرِّ الأعوام، فنحن ـ جميعًا ـ من أفراد هذه القافلة ورِفاقها.

وتقتضي أهميّةُ موضوع المحاضرة وحساسيةُ الوقت الذي نمرُّ به أن أعرض أمامكم خلاصةَ تجارب حياتي الطويلة وزبدةَ نتائج دراساتي المتواضعة دون تكلُّف أو تردُّد، وأن أُقدِّم إليكم هديّةَ عمري الغالية ورحيق حياتي المفضّلة.

إنكم أكرمتُمُوني باجتماعكم في هذا المكان، ومَنحِكم إيّايَ فُرصةَ التّحدُّث إليكم، وإبداءِ رغبتكم في الاستماع إليّ، وينبغي أن أُثبِتَ جَدارتي وأهليَّتي في الحديث إليكم، كما ينبغي لي أن أغتنم هذه الفرصة الثَّمينة لنقطفَ سَوِيًّا أفضلَ الثمار وأجودَ الحَصاد؛ لأنكم اقتطعتُم هذا الوقت من زحام أعمالكم العظيمة

وأنشطتكم الكثيرة، وما مِن شكٌّ أن ساعةً من حياتكم ولحظة من عمركم تُعَدّ بالشُّهور والسَّنوات.

ما هي المدرسة الإسلامية؟

أحبائي! يجبُ أن نعرف أولاً ـ وقبل كلِّ شيء ـ ماذا تَعني كلمةُ المدرسة الإسلامية؟ وما مكانتها في دُنيا العلم والمعرفة، وعالَم العمل والتزكية؟

أقول بكل صراحة: **إن المدرسة الإسلامية هي المصنع الأعظم لصناعة رجال الله، وتجهيز جُند الإسلام، وتكوين قادةِ الفكر، وإعداد دُعاةِ الدّين، إنه مركز توليد النور في العالم الإسلامي، حيث يُزوِّدُه بالنّور الإلهيّ والهداية الربانيّة إلى العالَم.**

إن المدرسة الإسلامية علَمٌ لتلك المؤسَّسة التي تُعِدّ القلوبَ العظيمة والعقول النيّرة والنفوس الكبيرة والأدمغة الزكيّة، تلك الهيئة العليا التي تُشرف على العالم الإنساني، وتراقب سَيره وحركاته، وتُصدِر المراسيم الملكيّة التي يُنفِّذُها العالم الإنسانيُّ بأجمعه، ولا تُنفِّذ ـ هي ـ أوامرَ البشر.

إنها لا تضيق بنفسها في حدود تقويم زمنيٍّ أو عهدٍ حكمي أو أدب شعبي أو حضارة قُطرية أو ثقافةً عِرقيّة أو لغة قوميّة، فلا يُمكن أن يؤثّر في سَيرِها وسَعتِها تغيُّرُ الزّمان وتبدُّل المجتمع وزوال اللغة واضمحلال الثقافة وقِدم الحضارة وانقراض العِرق.

إن علاقة تلك المؤسَّسات التي نُسمِّيها مدرسةً إسلاميّة ترتبط - من جانب - بالنبوّة المحمديّة العالمية العامة الشاملة، كما ترتبط - من جانب آخَر - مع الإنسانية الصّافية الشابّة، إنها وُلدتْ شابّةً وستَموت شابّة، لا يمكن أن تُصيبها الشيخوخةُ، ولا يمكن أن تُفنيها حوادثُ الزمان، **إنها أسمى من قضية الجديد والقديم، وأعلى من مسألة التقدُّم والتخلُّف؛ لأنها التي تضمَنُ استمراريّة النبوّة المحمديّة وحركةَ الحياة الإنسانية.**

مسؤولية المدرسة الإسلامية ومكانتها:

أيُّها الإخوة الكرام! إن أكبر عار على جبين المدرسة الإسلامية أن تكون دارًا تحتضن آثار الماضي المندثر، وتُذكِّر بالأطلال البالية، إنني أعُدّ ذلك زوالاً كاملاً لشخصية المدرسة الذاتية؛ لأني مُصِرٌّ على اعتبارها مصنعَ التاريخ، ومركز القوة، ومُولِّد الحركة، ومَكمَنَ الصّلاحيّة، ومَشحذةَ المواهب، وهمزة وصل بين النبوّة والحياة؛ يرتبط طرفُها الأعلى بالنبوية المحمدية، ويَسيل طرفُها الأدنى إلى نهر الحياة والكون، إنها تتلقّى ماء الحياة من نهر النبوة ثم تصبُّه في حقول الحياة، وهذه مسؤولية المدارس الإسلامية الدائمة التي لا يُمكن أن تتخلَّفَ عنها لِلَحظة، فإذا تخلَّفتْ عنها ساعة تجفُّ مزارع الحياة الإنسانية، ويَذبلُ حقلُ الإنسان، ويضطربُ الكون، وكما أن عين النبوة

لا تنضبُ، فكذلك لا يرتوي ظمأ الإنسانية؛ فالأول ينادي قائلًا: «إنما أنا قاسِمٌ والله يُعطي»[١]، والثاني يصرخ قائلاً: ﴿هَلۡ مِن مَّزِيدٍ﴾! ﴿هَلۡ مِن مَّزِيدٍ﴾!

فأنّى يكون ذلك المكان الذي يكون أكثر حيويةً وأعظم حركةً من المدرسة في دُنيا الناس وعلى صفحة الكون؟

إن قضايا الحياة غير متناهية، وحوادثها مُتجدِّدة، وحوائجها مُتعدِّدة، وأخطاؤها مُتكرِّرة، وخداعها لا ينتهي، وأمانيها لا تقف عند حدّ، وآمالها لا تتوقَّف، وطلباتها لا تنتهي، ولما كانت المدارس الإسلامية هي التي حملت المسؤولية لتزويد الحياة بوقودها، وتوفير الحلول لمشكلاتها، فأنَّى لها الراحة؟

إن كلَّ إنسان في الدُّينا يستطيع أن يتوقَّف عن العمل ليستريح، وكل مؤسَّسة في الدُّينا تستحقُّ أن تتمتَّع بالإجارة لِتنشط من جديد، وإن كل رجل في الدُّينا يستأهل أن يسعَد بالعطلة ليُقدِم على الجِدّ مرّةً أخرى، اللَّهمَّ إلا المدرسة، فلا يمكن أن تُغلِقَ بابها يومًا، وتتوقَّف عن العمل لحظة.

إن كلَّ مُسافر في الدنيا يحقُّ له أن يطلب الراحة

---

(١) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب العلم، باب من يُرِدِ اللهُ به خيرًا يفقِّهْه في الدين، رقم الحديث: ٧١.

والاستراحة، إلا المسافر في درب العلم، فلا يحقُّ له ذلك ما دام على قيد الحياة!

فلو وقفت الحياة عند حدٍّ، وتوقَّفَت حركتُها عند محطّة، فلا بأس للمدرسة أن تقف وتستريح، ولكن الحياة سائرة بجِدّ واجتهاد، وهي ماضية على قدم وساق، فهيهاتَ هيهات!

إن عليها أن تراقب سَيرَ الدّنيا، وتزوّدها بأحكامها المُستجِدّة، وتجيب باستمرار عن أسئلتها، وتصحّح دومًا أخطاءها، وأن تقف صامدة أمام فتن الحياة العويصة، فإذا تخلَّفتْ عن مصاحبة الحياة، وتوقَّفتْ عن مرافقتها، وجلستْ عند منزل، ونامت تحت ظل شجرة، فمَن يُصاحب الحياةَ؟ ومن يُرشدها إلى الحقِّ والصَّواب؟ ومَن يَهديها إلى هداية الوحي وقت الأعاصير؟ ومن يُحدِّثها بأخبار محمد ﷺ المُطَمئِنة وقتَ الأزمات والمُلِمّات؟ ومن يُسمِعُها أحكام الإسلام الحكيمة؟ ومن يُبشِّرُها بالحياة الخالدة؟

إن امتناع المدرسة الإسلاميّة عن السَّير يُعَدّ غدرًا بالحياة، وإن تخلُّفَها عن القيادة يُعَدُّ انتحارًا للإنسانية، وإن تقصيرها في أداء المهمّة يُعَدّ نذيرًا بفناء الكون، فلا يمكن أن يرِد على ذهن المدرسة التي تشعر بحساسية المسؤولية وخطورة المهمّة خيالُ الامتناع عن السَّير، والتخلُّف عن القيادة، والتقصير في أداء المهمّة.

مسؤوليات طلاب المدارس الدينيّة وخِرِّيجيها:

أعزائي! إن مسؤوليّتَكم بصفتكم طلبةَ العلوم الشَّرعيّة خطيرةٌ جدًّا وحسّاسةٌ للغاية، ولا أعرف في الدُّنيا قومًا أو فئة أو طائفة أخطر مسؤولية وأكثر حساسيّةً وأشمل تأثيرًا منكم.

أعيدوا النظر فيما قلتُ سابقًا: «إن طرفًا من أمركم معلَّق بالنبوّة المحمديّة وطرفًا آخَر منها مرتبطٌ بالحياة والكون والحضارة والمجتمع»، وهنا تكمن حساسية الدَّور، ويَخفى سِرُّ عظمتكم وسعادتكم؛ فالعلاقة المباشرة مع النبوة، كما أنها باعث شرفٍ عظيم للإنسان، هي في الوقت نفسه مسؤولية عظيمة ومُهمّة صعبة جدًّا.

إن لديكم أعظم ثروة للحقائق والمعارف، وهي ثروة الإيمان والإسلام، هذه الثروة تتطلَّب منكم واجباتٍ خاصّةً تجاهَها، وهي: أن يكون لديكم يقينٌ ثابت وإيمان راسخ، وأن تكون لديكم عزيمة صادقة وهِمّةٌ صامدة بأن الدُّينا لو ألقَتْ بنفسها أمامكم مُقابلَ أن تتنحَّوا ساعة عن أداء مَهامِّكم الدّينيّة ومسؤولياتكم الربانيّة فلا تتردَّدون لحظة في ركلِها برِجلكم، ورَميها إلى زبالة الجاهلية النَّتِنة، وأن تكون لديكم الحَميّة الدّينية الصحيحة والغَيرة الإيمانيّة الصادقة، وأن تكون قلوبكم خاليةً عن الدُّنيا الفانية وعامرةً بصدقِ تَعاليم الدِّين وأبديّةِ رسالتِه وصلاحيّة دعوته لكلِّ زمان ومكان، ومعصوميّتِه عن كلِّ نقص، وسُمُوِّه عن كل عيب.

يجب أن تكون لديكم تلك الغَيرة والحَمِيّة التي تجعلكم تنظرون إلى جميع ما سوى الدين كميراث للجاهلية الأولى بكل صدق وطمأنينة، وتقولون حين تسمعون أحكامه: سمعًا وطاعة، وتقولون لصناديد الجاهلية ورُؤوسها بكلِّ صراحة وصرامة: ﴿كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ [الممتحنة: ٤].

إنكم تسترشدون بالإسلام، وتُوقنون بأن النَّجاة والفلاح في الأُسوة المحمدية والنور الأحمدي، وتؤمنون بأنه لا ينجو من طوفان العصر الجديد إلا أصحابُ سفينة محمد ﷺ، وتجزمون بأن القيادة الإنسانية العالمية للمسلمين لا يُمكن أن تكون إلا تحت شعار «لا إله إلا الله، محمد رسول الله»، وهذه هي الحقيقة التي لا تَقبلُ المِراء، يقول الشاعر الفارسي: **إن مصدرَ شرفنا ومنبعَ سعادتنا هو النبيُّ العربيُّ، ولا مَفرَّ مِن الذّلِّ والهوان لمن لم يتشرَّفْ بغُبار قَدمِه!**

واعلموا جيّدًا بأن التعاليم النبويّة هي لبُّ الألباب وحقيقة الحقائق، وإيّاكم أن تكونوا مُستعدِّينَ بأن تنظروا إلى غيرها من العقائد والفلسفات بأكثر من أن تكون خرافاتٍ وخزعبلات!

إنكم قد عرفتم حقيقة التوحيد، فالتزموا بها مُصِرِّينَ، وانظروا إلى جميع الشرك والكفر بعين الحقارة والازدراء، مهما

كانت ألفاظه متلبسة بلبوس العلم والفلسفة والفكر، ولا تروها أكثر من كونها: «زُخْرفَ القَول غُرورًا».

واحرصوا على التمسُّكِ بالسُّنة النبويّة الشريفة، وتيقَّنوا بأن خير الهَدْيِ هَديُ محمد ﷺ، واشرحوا صدوركم بأن جميع البِدَع والخرافات مُضِرّةٌ وغيرُ مقبولة في الدِّين، وكونوا ـ أنتم ـ التفسير العملي للنبوّة المحمديّة من الناحية العقديّة والذهنيّة والفكريّة والقلبيّة والذوقيّة والعلميّة والعمليّة.

خصائص طلاب المدارس الدينيّة وخِرّيجيها:

أعزّائي! إن ما تمتازون به عن غيركم من عامّة المسلمين هو أنه يَنبغي أن تُدركوا تفاصيل الحقائق التي يَصِحُّ فيها الإيمان الإجماليُّ منهم، وأن تعرفوها بتفاصيلها حتى تَطمئِنَّ قلوبُكم، وتنشرحَ صدوركم، ولا يكفي أن تكونوا مجرَّدَ مُؤمنين بها، بل كونوا دعاةً لها، وإذا صحَّ للآخرين أن يكون إيمانُهم مُنجِيًا لهم، فلا يَكفي ذلك القَدْرُ من الإيمان بالنسبة لكم، بل يَنبغي أن يكون إيمانكم يشقُّ طريقَه إلى قلوب الآلاف المؤلَّفةِ من النّاس، فيسعدون بثروته ويَغتنون بدَولتِه.

ولا يكون ذلك إلا حينَ يلمسُ إيمانكم بحقائق هذا الدين واعتقادكم بعبقريته حدودَ العاطفة والحماس، فيَلج الإيمانُ في

خلايا عروقكم وشعوركم، وتكون حالُكم حالَ مَن قيل فيه: «يَكرَهُ أن يَعُودَ فِي الكُفرِ كَما يَكرَهُ أن يُقذَفَ فِي النّارِ»[١].

ويكفي للآخَرينَ أن يَعرفوا التَّعاليمَ النبويّةَ اللازمة بسَطحيّة، ولا يكفي هذا القدرُ من العلم بالنسبة لكم، **بل يجب أن تكونوا راسخين فيها، وعاشقين لها، وواصلين إلى درجة الكمال فيها، ومُصِرِّين على تطبيقها**، ولا يُمكن أن نتصوَّر الدعوة إلى الإسلام بدون هذه الخصائص، فالحفاظ على خصائص الإيمان أمرٌ صعبٌ جدًّا في هذا العصر الذي طغَتْ فيه الدَّعواتُ الجاهليّةُ والنَّعراتُ الشَّيطانيّةُ دونَ أن يَتسلَّحَ الإنسانُ بحبِّ العلوم النبويّة والحِكَمِ الإيمانيّة.

الذَّوق الباطني:

أحبّائي! تذكَّروا جيِّدًا بأن صاحب النبوّةِ ﷺ كما تركَ لأُمّتِه ذخائرَ العلوم والحِكم والأحكام قائلاً: «إنَّ العلماءَ ورثةُ الأنبياءِ، وإن الأنبياءَ لم يُورِّثُوا دِينارًا ولا دِرْهمًا، ورَّثُوا العِلْمَ»[٢]، وهي باقية فينا في صورة كتبِ التَّفسير والحديث

---

(١) أخرجه الإمام البخاري من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، كتاب الإيمان، باب حلاوة الإيمان، رقم الحديث: ١٦.

(٢) أخرجه الإمام أبو داود في السنن من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه، كتاب العلم، باب الحثّ على طلب العلم، رقم الحديث: ٣٦٤١، وحسَّنه الشيخ شعيب الأرناؤوط في تخريجه للسنن.

والفقه الإسلامي والعقيدة، كذلك أودعَ لأمّتِه ثروةً من الخصائص والمميزاتِ والعواطف والشعور والتزكية الباطنة والتربية الصّالحة.

فكما أن الثَّروة العلميّةَ نُقِلتْ إلينا كابرًا عن كابر، وحفظها الله تعالى عن طريق علماء الأمّة وأئمَّتِها من الضَّياع والتَّغيير والتَّحريف والتَّبديل، كذلك انتقلتْ ثروةُ التزكية الباطنة إلينا صدرًا عن صدر، وحفظها الله تعالى عن طريق عباده الصّالحين.

فالسؤال الذي يَرِدُ هنا: ما هي تلك الخصائص والمميزات التي جاء بها محمد ﷺ؟ وما هو ذلك النُّور والهدى؟

إنها الإيمانُ بالله تعالى، وإخلاص العمل له، واحتساب الأجر عنده، والتعلُّق به، والإنابة إليه، والخشوع له، والدُّعاء والابتهال إليه، والاستغناء به، والتوكل عليه، ومحبّتُه.

فكانت النبوّةُ المحمديّة العَينَ النّابعةَ للعلم والعمل والظّاهر والباطنِ، قال تعالى: «﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [الجمعة: ٢]». **فقبولُ العِلم من عَينِ النُّبوّةِ دونَ العَمَلِ، والتعلُّق بالظّاهر دون الباطن نقصٌ في وراثة النبوّة**، فالذين حملوا رايةَ الإيمان ونيابةَ الرِّسالة، وأوصلوها إلينا لم يكتَفُوا بأحدهما، بل تسلَّحُوا بالسِّلاحَينِ، وتدرَّبوا في الميدانَينِ، ثم قادُوا الأمّةَ الإسلاميّة

ونشروا رسالة الإسلام في الدُّنيا، وحفظوا أمانةَ الدِّين والأمّة من سَيل الفتن العارمة.

فدعوةُ الإسلام وهدايةُ الأمّة وتجديد الدِّين وثورة السِّياسة لا يُمكن أن تكون ـ في هذا العصر أيضًا ـ إلا بالعلم والعمل معًا.

إن أولئك العظماء الذين تتشرَّفُون بانتسابكم إليهم كانوا يَحملون هذَينِ السِّلاحَينِ معًا، فكانوا يُسيلونَ حِبرَ الأقلام بالنَّهار، ويَذرفون دموعَ العيونِ باللَّيل، وكانتْ مجالسُهم العلميّةُ تتزيَّنُ في وَضَحِ النَّهار، كما كانت سجّادات صَلاتِهم تتبلّل بالدُّموع في ظلام اللَّيل، فإنْ عزمتُم على النِّيابةِ الكاملة لهم والوراثة الصَّحيحة لِنَهجِهِم فلا بُدَّ من العمل في الميدانَينِ، **فجلالُ العلمِ دونَ جمالِ العَملِ كالورودِ الورقيَّة التي لا تَحمل عَبيرًا، ولا تَجذبُ قُلوبًا.**

أيُّها الإخوة! إن سُوقَ الدِّينِ مَليئةٌ بوُرودِ الصُّوَرِ والكاغدِ، فلا حاجةَ إلى إضافةِ المزيدِ في تلك الوُرودِ، بل إن الحاجة اليوم مُلِحّةٌ إلى تلك الورودِ الزّاهية والزُّهور الفَوّاحةِ التي تفتَّحتْ في حدائقِ النبوّة الخضراء، وتعطَّرَ منها الكونُ، فتَستحي من روائحها الفوّاحةِ وُرودُ الدُّنيا الكاذبةُ، فيكون مثالاً حيًّا لقوله تعالى: ﴿فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١١٨]، **فيظهرُ أمامَ المِسكِ النَّبويِّ زَيفُ العِطرِ الدُّنيوِيِّ.**

الانحطاط الداخليُّ للمدارس الإسلامية:

إخوتي الأعزاء! لا تُسيئوا الظنَّ بي حين أُصارِحُكم بأن مدارسَنا الدِّينيّةَ بدأتْ تَخلو من الزُّهور التي تَنشُرُ العَبيرَ في الكون منذُ فترة طويلة، **وبدأ داءُ الانحطاط يدبُّ في تلك الخصائص والمميزات التي كانَت تَبعَثُ على الرُّقِيِّ والتقدُّم**، وقد خلَت الحدائقُ من الورود الزّاهية والزُّهور المُتفتِّحةِ، فلا ترى تلك الأنوارَ السّاحرةَ، ولا تَجِدُ أولئكَ الرِّجالَ المنوَّرينَ الذينَ ينبهر بِسَمتِهِم الأعداءُ، وتَحيا بصُحبتِهم القلوبُ الميّتةُ.

فأينَ تلكَ الصِّفاتُ؟ وأينَ أولئكَ الرِّجالُ المتوسِّمونَ بها؟

ولهذا قال الشّاعر الأرديُّ عن المدارس الإسلامية: **إنَّ هذه المدارسَ والزَّوايا لا تتدفّقُ الآنَ بماءِ الحياةِ وحَنينِ المودّة، ولا تَنبعُ بالمعرفة الإلهيّة والبصيرةِ الرَّبانيّة!**

وما مِن شكٍّ أنَّ مثلَ هذا القول شديدٌ على السَّمع والقلب، ولكن لا مفرَّ من أن نتحمَّلَه؛ لأنه كان يُصوِّر الواقعَ المُؤسِفَ في حياتِنا! فلا بُدَّ أن نسْمَعَه واضعينَ الأحجارَ على الصُّدورِ! وأن نتَّعِظَ به!

ونتيجةُ هذه الحقيقة المرّة أنْ زادَ عدد المدارس الإسلامية وطلابُها، فيتعلَّم فيها الآن الآلافُ المؤلّفة، وتتخرَّجُ فيها الأعدادُ الهائلة، ولكنهم لا يتركون أثرًا في الحياة، ولا يضعون بصمةً في

المجتمع! ولقد كان عدد طلاب المدارس الإسلاميّة قليلاً في السابق، ولكنهم كانوا أقوى تأثيرًا وأغزرَ نَفعًا.

شخصيّات ثوريّة:

وفي السّابق كان يَرِدُ إلى هذه الدِّيار رجالٌ فقراء، كالشيخ مُعين الدين الجستي[١]، والشيخ علي الهمذاني الكشميري[٢]، فتتغيّر البلاد بِطُولها وعرضها بحرارة الإيمان وشُعلةِ العِرفان.

---

(١) هو الداعية الشهير الحسن بن حسن السجزي المعروف بمعين الدين الأجميري، وُلد سنة ٥٣٦هـ في سجستان، طلب العلم بسمرقند ونيسابور، ولازم بها الشيخ عثمان الهاروني لمدة عشرين سنة، ثم دخل الهند، وأقام بمدينة أجمير الواقعة بولاية راجستان، شمال غرب الهند الحالية، وقد طبَّقتْ شهرته آفاق الهند، وأسلم على يديه خلق كثير من الهندوس، وتوفي سنة ٦٢٧هـ، ودُفن في أجمير، رحمه الله تعالى ورضي عنه، وجعل الفردوس مأواه، وقد بَنى أهل البدع على قبره ضريحًا، ويقومون فيه بأعمال مشينة، نسأل الله تعالى السلامة والعافية. يُنظر: الحسني، الإعلام بمن في الهند من الأعلام ج١، ص٩١.

(٢) هو الداعية الكبير والعالم الرحالة علي بن الشهاب بن محمد الحسيني الهمذاني، وُلد عام ٧١٤هـ، وقرأ على الشيخ نجم الدين محمد بن أحمد الأذكاني وغيره من كبار علماء عصره، ثم بدأ يرحل إلى البلدان والأمصار حتى وضع عصا الترحال في كشمير عام ٧٧٣ أو ٧٨٠هـ، ودعا أهلها إلى الإسلام، فأسلم على يديه غالب أهلها، وله=

وكان الشَّيخ السرهنديُّ(١) وحدَه أحدَثَ ثورةً إيمانيّةً في

= مصنَّفات كثيرة، منها: ذخيره الملوك، ومنهاج العارفين، ومنازل السالكين، ومقامات السالكين، والأربعينية، وكشف الحقائق، وشرح أسماء الله الحسنى وغيرها، وتُوفي في ياغستان عام ٧٨٦هـ، ودُفن في بدخشان، رحمه الله تعالى رحمة واسعة، ورضي عنه، وجزاه خيرًا عن الإسلام والمسلمين. يُنظر: الحسني، الإعلام بمن في الهند من الأعلام، مصدر سابق، ج٢، ص١٧٨ ـ ١٧٩.

(١) هو الإمام المجاهد أحمد بن عبد الأحد بن زين العابدين السرهندي، المعروف بالمجدد للألف الثاني للهجرة، ولد في سرهند عام ٩٧١هـ، وتعلم على والده الشيخ عبد الأحد وكمال الدين الكشميري، وروى الحديث عن الشيخ يعقوب بن الحسن الصرفي الكشميري وغيرهما، واشتغل بالتدريس والتأليف، فألَّف في مجالات عدة، وقد اشتهر بمواقفه الشهيرة ضد الدين الإلهي الذي أسَّسه الإمبراطور أكبر، وفتَن الناس في دينهم، فوقف العلامة السرهندي ضده، وأعلن رفضه التام له، وقد أبلى في ذلك بلاء حسنًا، فنصر الله تعالى حزبه ودحض حزب الشيطان، كما ناظر الملاحدة والشيعة، وتوفي سنة ١٠٣٤هـ، ودفن في بلده سرهند، ومن مؤلفاته: رسالة في إثبات النبوة، ورسالة في الرد على الشيعة الإمامية، ورسالة في المبدأ والمعاد، والمكتوبات وغيرها، رحمه الله ورضي عنه، وجعله من ساكني عِلِّيين. يُنظر: القنوجي، أبجد العلوم ج٦٩٨ ـ ٦٩٩، والحسني، الإعلام، مصدر سابق، ج٥، ص٤٧٩ ـ ٤٨٦، وقد خصَّص العلامة أبو الحسن علي الحسني =

عرشِ الإمبراطوريّةِ المغوليّةِ الهاويةِ إلى الارتدادِ، فكانَتْ نتيجةُ جُهودِهِ الإيمانيّةِ المتأنّيةِ وُصولَ الإمبراطورِ المُسلِمِ الملتزمِ والفَقيهِ القانونيّ الكبيرِ أورنك زيب[1] إلى عرش هذه الإمبراطوريّة.

وقد غيّر الشّاه وليُّ اللهِ الدّهلويُّ[2] الصُّورةَ النَّمطيّةَ للدِّينِ في

= الجزء الثالث من كتابه رجال الفكر والدعوة في الإسلام للحديث عن حياة الإمام السرهندي رحمه الله (دمشق، دار ابن كثير، د. ط، ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م).

(١) سبقتْ ترجمته.

(٢) هو الإمام شيخ الإسلام قطب الدين ولي الله أحمد بن عبد الرحيم بن وجيه الله العمري الدهلوي، أحد نوابغ الدهر في العلوم والمعارف، وُلد عام ١١١٤هـ بدهلي، أخذ العلوم الإسلامية واللغوية عن والده العلامة عبد الرحيم الدهلوي، كما استفاد من المحدث الكبير محمد أفضل السيالكوتي، تزوج في الرابعة عشرة من عمره، وانتهى من الدراسة المنظمة وعمره ١٥ عامًا، وقد برع في علوم القرآن والحديث والفقه والأصول والمنطق والفلسفة وعلم الكلام! ثم جلس على كرسي التدريس في هذه السن المبكرة بعد إجازة والده له بذلك، وخلَف أباه فيه، واستمرَّ في ذلك لمدة ١٢ سنة، ثم سافر إلى أرض الحرمين الشريفين، وحجّ واعتمر، وجاورهما لمدة عامين كاملين، قضاهما في أخذ الحديث من كبار محدثي العصر، من أمثال المحدث الشهير أبي طاهر محمد إبراهيم الكردي المدني، والمحدث الكبير وفد الله المالكي المكي، والعلامة تاج الدين=

. . . .

= القلعي المكي وغيرهم، وأخذ الإجازة عنهم، لا سيما العلامة الكردي، وقد أُعجب شيوخُه بنبوغه، حتى قال عنه أبو طاهر الكردي: «إنه يُسند عني اللفظ، وكنت أُصحّح منه المعنى!». وبعد عامين حافلين بالعلم والطلب والعبادة والجوار قفل راجعًا إلى أرض الوطن، واشتغل بنشر الأحاديث النبوية الشريفة رواية ودراية، وكتابة ووعظًا.

كان آية من آيات الله تعالى في دقة الفهم وبُعد النظر وسرعة البديهة وقوة الذكاء وسعة المطالعة وفصاحة اللغة وبراعة البيان وكثرة التأليف وتحقيق القول والدراية بمذاهب الأئمة المجتهدين، وفهم أسرار الشريعة الغراء، وسرعة البديهة وحكمة السياسة وكثرة العبادة وإبلاغ الدعوة ونشر الأخلاق الفاضلة والصدع بقول الحق وغيرها من الصفات الحميدة والمآثر المرضية.

بارك الله تعالى فيه وفي علمه وذريته وتلاميذه، فألّف كتبًا، نالت القبول والرواج، منها: فتح الرحمن في ترجمة القرآن، وحجة الله البالغة، وإزالة الخفاء في خلافة الخلفاء، والإنصاف في بيان الراجح من الخلاف، وعقد الجيد في أدلة الاجتهاد والتقييد، والفوز الكبير في أصول التفسير، والمسوّى شرح الموطأ (باللغة العربية)، والمصفى في شرح الموطأ (باللغة الفارسية)، والتفهيمات الإلهية، واللمحات، والهمعات، والإرشاد إلى مهمات الإسناد، والبدور البازغة، وديوان الشعر باللغة العربية وغيرها من الكتب السائرة في الآفاق. =

. . . .

= ومن أجلّ نعم الله تعالى على أهل الهند ولادة الإمام وليّ الله الدهلوي في هذه الأرض وأولاده النوابغ المجتهدين، ويُعدّ أولاده مأثرة خاصة من مآثر الدهلوي، حيث قام أولاده بنشر العلوم والدعوة وقيادة الجهاد وأمر التزكية والسلوك، قال العلامة القنوجي في الحطة في أخبار الكتب الستة: «ثم جاء الله سبحانه وتعالى من بعدهم بالشيخ الأجل والمحدث الأكمل، ناطق هذه الدورة وحكيمها، وفائق تلك الطبقة وزعيمها: الشيخ ولي الله بن عبد الرحيم الدهلوي ... وكذا بأولاده الأمجاد، وأولاد أولاده أولي الإرشاد، المشمرين لنشر هذا العلم عن ساق الجد والاجتهاد ... وقد نفع الله بهم وبعلومهم كثيرًا من عباده المؤمنين، ونفى بسعيهم المشكور من فتن الإشراك والبدع ومحدثات الأمور في الدين ما ليس بخاف على أحد من العالمين».

ومن مزايا الإمام الدهلوي أنه لم يتركْ في الجملة جانبًا من جوانب الدين إلا واشتغل به، حيث كان مُفسِّرًا بارعًا، ومحدِّثًا بصيرًا، وفقيهًا عميقًا، وأصوليًّا دقيقًا، ومقاصديًّا عجيبًا، وسياسيًّا محنَّكًا، وداعيًا حنونًا، ومجاهدًا شجاعًا، وقد تركَ في كل هذه المجالات آثارًا بارزة ملموسة، وكان صورة ناطقة لقول الشاعر:

وليسَ على الله بِمُستَنكَرٍ أن يَجمَعَ العالَمَ في واحِدِ

وبعد حياة حافلة بالجهاد والنِّضال في كل المجالات السابقة استجاب الإمام لداعي ربّه عام ١١٧٦هـ، ودُفن بدهلي، رحمه الله تعالى رحمة واسعة، وأنزل عليه شآبيب رضوانه، ورضي عنه، وجعل=

هذه البلاد، وأحدثَ انقلابًا إيمانيًا وفكريًا وعِلميًا فيها، والشيخ النانوتوي قد أسَّس هذه القلعةَ الإيمانية في وقتٍ كادَ المسلمونَ أن يُصابوا باليأس والقنوط من الصَّحوة الدِّينيّة والنَّهضةِ الإيمانيّة في هذه البلاد، وأعادَ بذلك شريانَ الحياة إلى الهيكلِ العظمي للعلوم والمعارف الإسلامية، والشيخ محمد إلياس[1] قد جدّد روح الإيمان في أوساط هذه البلاد بحرارة إيمانه وحماسة روحه وكثرة جهوده وقوّةِ اجتهاده.

ويصدق فيهم ـ جميعًا ـ قول الشاعر الأردي: **إن رجلاً من رجال الله تعالى كافٍ لتغيير سَيرِ العالَمِ الإنسانيِّ!**

= الفردوس الأعلى مثواه. يُنظر: الحسني، الإعلام بمن في الهند من الأعلام، مصدر سابق، ج٧، ص٨٥٦ ـ ٨٦٧، والقنوجي، صديق حسن خان، الحطة في أخبار الكتب الستة (بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٠٥هـ) ص١٤٥ ـ ١٤٨، والقنوجي، أبجد العلوم، مصدر سابق، ص٧٠٩، والألوسي، أبو البركات خير الدين نعمان بن محمود، جلاء العينين في محاكمة الأحمدين (د.م، مطبعة المدني، د.ط، ١٤٠١هـ) ص٥٩ ـ ٦٠، والندوي، أبو الحسن علي، رجال الفكر والدعوة في الإسلام، وقد خصّ الشيخ الندوي المجلد الرابع من هذا الكتاب في بيان سيرة الإمام ولي الله الدهلوي (دمشق، دار ابن كثير، ط٣، ١٤٢٨هـ).

(١) تأتي ترجمته فيما بعد.

ولكن خرّيجينا الآن لا يمتلكون تلك الروح الإيمانية القوية، والحرارة الفكريّة العميقة، والقوّة الروحيّة الغزيرة التي كانت تَقودُ النّاسَ إلى الخضوع لله ربِّ العالمين.

إن التاريخ واقعيٌّ جدًّا، وإنه لا يخضع إلا للقويّ، وإن من سُنَنِ الله تعالى في النّاسِ أن قلوبهم لا تَخضعُ إلا لقلوبٍ أسمى منها، وأفئدتهم المتعطِّشة لا تُطيع إلا الأفئدة التي تتدفَّق بمياه الرُّوح والحياة.

وإن من الحقائق المؤسفة حقًّا أن مدارسنا الحالية تَشكو من جميع أنواع الانحطاط؛ الانحطاط العقليّ والروحيّ والعلميّ، والخطباء الناصحون والكُتّاب البارعون والفلاسفة الماهرون والمفكرون السّاهرون ليسوا قَليلين ـ حتى الآن ـ ولكنْ كما قال الشاعر الأردي جِغَر المرادآبادي[1] ليسَ في عيونهم شُعلةُ الحبِّ، ولا في قلوبهم نورُ اليَقين!

---

(١) هو الشاعر الأردي جِغَرْ المرادآبادي، أحد أشهر شعراء اللغة الأردية في القرن العشرين، اسمه الأصلي علي إسكندر، وُلد عام ١٨٩٨م ببنارس، ودرس اللغة العربية والفارسية والأردية بها، ثم عمل استشاريَّ مبيعات في شركة خاصة، وكان يكتب القصائد في المجلات، ويُنشد الأشعار في المحافل، واستطاع بذلك استرعاء اهتمام الأدباء كشاعر بديع، فتحوَّل مسار حياته، وسافر إلى طول الهند=

إن المدارس كانتْ ـ يومًا ما ـ مركزَ الحياة والحيويّة والرُّوح والرُّوحانيّة، وكانت تُخرّج شخصيّات تُحدِثُ انقلاباتٍ إيجابيّةً في عالم الدِّين والفِكر والتَّصوُّر والرُّوح والخلُق، ولكنها قد أُصيبتْ اليوم ـ مع الأسف الشديد ـ بالعُقم والعُقر!

إنها قد ازدادتْ عددًا وعُدّة وطلابًا وكُتبًا ونشاطًا وعملاً، ولكنَّ نبض الحياة في حَرَمِها قد خفَّ، ودفقان القلب في ساحاتها قد قلَّ، تجدُها كأجساد بلا أرواح، وكلماتٍ بلا معانٍ، وكلام بلا حقائق، وصورة بلا سريرة، ومجالس بلا صُحبة

= وعرضها للإنشاد في أمسيات شعرية، فصارتْ له شعبية واسعة لدى الجمهور، ومن دواوينه الشهيرة: داغ جغر (جرح القلب، وشعلة الطور)، وكليات جغر مرادآبادي وغيرها، وكان يغلب على قصائده معالجة القضايا الاجتماعية والسياسية الراهنة، والقضايا الإنسانية والإسلامية، والحِكم والمواعظ.

وقد أثّر في كثير من شعراء اللغة الأردية، وتركَ بصمة قوية فيها، وقد راجَت بعض قصائده في شبه القارة الهندية كلها، وأنشدها الأدباء والعلماء والصغار والكبار، وحاز على جوائز عديدة من جهات مختلفة، تُوفي بمحافظة غوندا في الإقليم الشمالي (أتر فراديش) سنة ١٩٦٠م، رَحِمَهُ اللهُ، يُنظر:

Datta, Amaresii and others, Encyclopedia of Indian literature (New Delhi, Sahitya Academy, 1st edition, 1988) p. 1838.

مؤثِّرة، ويمكن القول بكلمة واحدة: **فيها كلُّ شيء، ولكنْ لا شيءَ!**

وقد آلَ أمرُها في الآونة الأخيرة إلى درجة من الانحطاط، بحيث لو دخل صاحب قلبٍ شَفوق على حال الأمة في ساحات هذه المدارس بالخطأ لا يستطيع أن يتنفَّس! ولا يمكن أن يرتاح، فيُحاول جاهدًا أن يهرب من هذه المقابر ضَنًّا بحياته وفرارًا بنفسه، ولعلَّ الشاعر أرسل كلماته الحزينة المؤثِّرة حين رأى هذا الهدوءَ المُخيف والسكون الهائل في بحر الحياة الهائجة فقال: **عرَّفَكَ ربّي بِطُوفانٍ يُحرّكُ سكونَك، ويكسر هدوءَك، حيث إن أمواج بحرك لا تتدفَّق بالحياة والحيويّة! تواصلُ قراءة الكتاب، ولا تشبع منها، فأنت بذلك قارئ كتابٍ جيّد، ولكنَّكَ لستَ صاحبَ كتاب!**

ولكنَّ هذا الوضع المأساويَّ قد وصل في هذه المدارس ـ الآن ـ إلى الدرجة التي يَخشى فيها أصحابُ القلوب الواعية من طلب الطُّوفان نفسه! لأن الفيضانات الهدّامة قد وصلتْ إلى كلِّ ركن فيها، وتُحاول أن تقلعَ أُسُسَها من بنيانها، وتقذف الفتنُ أمواجَها المتلاطمة إلى جدرانها لتستأصل جذورَها، وتجتثَّ قواعدَها، فأصبح طلاب مدارسنا وخرّيجوها عبارة عن آلاتٍ ومعدّاتٍ تمتثلُ أوامرَها وتنفِّذ وصاياها!

ماذا تكون حالة الأمة إذا وقف الإمام في صفّ المُقتدي؟

إن من الحقائق المؤلمة جدًّا أن نسمع النَّعراتِ الجاهليّةَ والدعوات الهدّامة والحركات الباطلة والثورات المُخرِّبة والاضطرابات المُدمِّرة في مدارسنا الإسلامية، حتى تلك الدَّعوات التي لا تَجِدُ قَبولاً ولا تَلقى رَواجًا في المدارس والجامعات غير الدينيّة تجدُ طريقها بسهولة ويُسر في مدارسنا وجامعاتنا الإسلامية!!

فالرجل الذي يجدرُ به أن يكون إمامَ عصره وقائدَ أمّتِه صار الآن فريسةَ النَّعراتِ والدَّعوات الجاهليّة، وقد بلغ السُّوءُ به إلى درجة من الانحطاط، بحيث يعتزُّ بانتسابه إليها! وفي مثل هذا البائس قال الشاعر الأردي: **من كانوا يملكونَ القُدرةَ على إنارة طريق الحقِّ وسطَ الظّلامِ الحالكِ، ويُحرزون القوّةَ على قيادة الأمّةِ وقتَ النّوائب، قد ضيَّعوا الطريقَ! وافتقدوا الهدى! وانحنَت رؤوسُهم أمام مطالب الزمن الباطلة!!**

إن فتنة العصر الكبرى التي أُصِبنا بها، وطاعونه الأكبر الذي ابتُلِينا به هو: **شعور طلابنا وخريجينا بالدُّون، وإحساسُهم بالهزيمة النفسيّة، وهذا هو الدّاء العُضال والمرض العسير الذي يقضي على وجودنا من الداخل،** ولا مِراءَ في أنّ أيَّ مؤسَّسة

أُصيبتْ بهذا الدّاء وأيَّ شخص أدركه هذا المرض لا يستطيع أن يصمدَ أمام مطالب العصر ومجاريه القويّة.

لمَ هذا الإحساسُ بالدون؟

لماذا يُحسُّ طلابُنا بالدُّون؟ ولماذا يشعرون بالهزيمة؟ وإذا شعر الآخرون بالدُّون والهزيمة فإنه يدلّ على الضعف النفسيِّ والفقر الذاتي، غير أن **إصابتكم بهذا المرض العضال والداء العُقام يدلُّ على قلّة الوازعِ الدّيني، والضعف الإيماني، وعدم الثقة بالوعد الإلهي، والشكِّ في النظام الغيبيّ، ولا شكَّ أن نتائجه وخيمةٌ وعواقبَه شديدةٌ.**

إن شعورَ نوّاب الأنبياء عليهم السلام بالدُّون والهوان يعني أنهم لا يعرفون قيمةَ المكان الذي أُقيموا فيه، ولا يُدركون خطورة المسؤولية التي كُلِّفوا بها، وقد خلتْ قلوبهم من ثروة الإيمان وفرغتْ نفوسهم من دَولة اليَقين.

إنكم قد تبوّأتم الآنَ مناصبَ أولئك العلماء الذين وقفوا عند ملتقيات مجاري الزمن، وأرشدوا الإنسانية إلى نظام الحياة، وقدْ شحب أمام وُجوهِهم المنوَّرة ضوءُ الشّمس! ويصحّ فيهم قول العلامة السعدي[1]: ملِكٌ بدون تاج، وكِسرى بدون سِوار!

---

(١) هو الشاعر الفارسي الكبير مصلح الدين أبو محمد عبد الله بن مشرف السعدي الشيرازي، وقد اختلف مترجموه في اسمه ولقبه اختلافًا=

. . . .

= كبيرًا، وُلد بمدينة شيراز في أوائل القرن السابع ما بين ٦١٠ و٦١٥هـ، ونشأ في بيت دين وخلُق وعلم، درس العلوم الأولية في كتاتيب بلده ثم سافر إلى بغداد، ودرس في المدرسة النظامية الشهيرة، وأخذ العلم بها عن الإمام أبي الفرج جمال الدين بن يحيى بن يوسف ابن الجوزي، وشهاب الدين أبي حفص عمر بن محمد السهروردي وغيرهما، ودرّس بها مدة، ثم قام بجولات واسعة في أرجاء العالم الإسلامي شملتْ بلاد الحرمين والحجاز وبلاد الشام وبلاد الروم ومصر والهند وغيرها، وقد التقى خلال هذه الجولات مع كبار العلماء والفقهاء وأهل الخبرة والحنكة، كما صحب التجار والعشاق والبخلاء وطبقات المجتمعات المختلفة في تلك البلاد، واكتسب من كل ذلك خبرات واسعة وتجارب كبيرة أودعها في قصائده التي سار بها الركبان في الشرق والغرب.

نطقتْ قصائده وأشعاره بالحكمة والخبرة والحنكة والبلاغة في الدين والتربية والأخلاق والحياة والسياسة والاجتماع ودقائق النفس الإنسانية، وتُرجم بعض هذه القصائد إلى كثير من اللغات العالمية الحيّة، ومن مؤلفاته الشهيرة: غلستان (حديقة الورود) وبوستان (الحديقة) وفندنامة (النصائح) وغيرها، تُوفي بشيراز سنة ٦٩٠هـ، ودُفن بها، رحمه الله ورضي عنه. يُنظر: ابن الفوطي، أبو الفضل عبد الرزاق بن أحمد الشيباني، مجمع الآداب في معجم الألقاب، تحقيق: محمد كاظم (وزارة الثقافة والإرشاد الإيرانية، ط١، =

إنكم جلستُم اليوم في مكان أولئك الأعلام الكبار، ثم تنظرون بحرص إلى دُنيا الناس الفانية! فما أصدقَ قول العلامة جلال الدين الرومي فيكم: **إنكم تمتلكون عزّة المُلك الباقية، فكيف تمدّون أياديكم إلى أصحاب الدُّنيا الفانية!**

أهمية معرفة الذات:

إن خزائن الدنيا كلها تخلو من الثروة الثمينة التي تملكونها، قلوبكم عامرة بعلومِ النبوّة، وصدوركم مملوءة بنورها، وتفكيركم وشعوركم يحملانِ تلك الحقائق التي أضاعتْها الدنيا منذ أمد بعيد، وهي تبحث عنها بتفانٍ وجنون، وقد نزل الانحطاط والهبوط في المجتمع الإنساني بفقدانه لها، وانتشر الاضطراب الفكري والفوضى الاجتماعية في دنيا البشر بضَياعِها لها، وتمكَّن الشرُّ والفساد على رقاب الخلق بزوالها عنهم.

فلا تنظروا إلى ثيابكم الرخيصة البالية، ولا إلى أجسادكم الضعيفة النحيفة، ولا إلى جيوبكم الفارغة الخاوية، ولا إلى أكمامكم الخالية المفلسة، بل انظروا إلى تلك الثروة القيّمة التي

= ١٤١٦هـ) ج٥، ص٢٤٧ ـ ٢٤٨، وكحالة، عمر بن رضا بن محمد، معجم المؤلفين (بيروت، دار إحياء التراث العربي، د.ط، د.ت) ج٦، ص١٥١، والمقال الخاص بالسعدي في الموسوعة الإيرانية على الرابط الآتي: www.iranicaonline.ogr/articles/sadi-s

تُحرزها قلوبُكم، وتملكها صدوركم، يقول الشاعر الفارسي:
لا تجزعْ - أيُّها القائد! - من رؤية كُمِّك الخالي؟ تأملْ في نفسك جيدًا! حيث يختفي البدرُ الباسم!

ومن الحقائق الثابتة عند علماء النفس أن الشعور بالعزة أو الدُّون، والكرامة أو الحقارة، يتعلَّق بعالم الإنسان الداخلي، وليس له وجود كبير في العالم الخارجي، والشعور بالدُّون مرض نفسيٌّ، وسببه الشّكوك والشبهات والاضطراب الفكريُّ والتذبذب الداخليُّ.

فالإنسان الذي لا يعرف قيمته، ولا يقدرها قدرَها، هو الذي ينظر إلى نفسه بالنظرة الدُّونيّة والخِسّةِ الشُّعورية، فيُخيَّل إليه أن الناس ينظرون إليه باحتِقار وازدراء، وأنه ليستْ له قيمةٌ ذات بال في دُنيا الناس، والحقُّ أنه هو الذي يظلم نفسه بهذا الشعور الخيالي؛ لأن الإنسان الذي يرى نفسه ذليلاً لا يُمكن أن يُعطِيَه قدرَه منصبٌ أو جاهٌ أو ثروة، فالذي لا يُقدّر ذاتَه لا يُقدِّرُه أحدٌ في هذه الدُّنيا الشحيحة، فالشعور الداخلي بالعِزّة أو الذِّلّة هو الذي يُوسِّع العالم الخارجي للإنسان أو يُضيّقه، **فقَدِّرْ ذاتَك بنفسِك تجدِ الدُّنيا تفتحُ صدرَها الواسعَ لتقديرِكَ وتَوقيرك!**

فيجب على الإنسان أن يبحث عن قيمته في ذاته، وأن يسأل نفسه: ما قيمته عنده؟ وما قدرُه في قلبه؟ فلو رأى نفسه ذليلاً حقيرًا

مغبونًا فينبغي له ألا ينتظر إنصافًا وإعزازًا من سُوق الدنيا الحساس المرهف الذي تعوَّد على تقييم الناس بالذَّرات والحبّات.

فإن لم تُدركْ قيمتَكَ الذاتيّة، وأنت واقف على حدود القرن العشرين في هذه الدنيا المتطوّرة علميًّا وتقنيًّا واختراعًا وابتكارًا، فلا أملِكُ لك شيئًا، وقد بيَّنَ السخيّ العربي في الجاهلية حاتم الطائيُّ هذه الحقيقة في بيت من أبياته الشَّهيرة، حيث قال:

ونفسَك أكرِمْها، فإنّك إنْ تهُنْ عليكَ، فلن تَلقى من النّاسِ مُكرِما!

أحبّائي! إنني على يقين تامٍّ بأننا لسنا أذِلّاء، ولا مُفلِسين، ولا ضعفاء، ولا مساكين، ولا صعاليك في هذه الدُّينا التي تَموجُ بمئات الملايين من البشر من مئات المِلل والنِّحل والشعوب والقبائل، ولكن المشكلة أنّنا نسينا أنفسَنا، فنَسينا قيمتَنا في سُوق الأمم والشعوب، فكانتْ نتيجةُ هذا الجهل بالذّاتِ ونسيانِ الهويّة الحضارية: الشعورَ بالدُّون والهزيمة النفسيّة.

إن العلاج الوحيد لهذا المرض أن نعرف أنفسَنا، ونُدرِكَ قيمتَنا، ونَعِيَ مقامَنا ومكانَنا، ونستفيدَ من ثروتنا التي نمتلِكُها.

إنَّ تغيُّر الدُّنيا تجاهنا تابعٌ لتغيير نظرتنا ـ نحن ـ تجاه أنفسنا، وحين تتغيَّر نظراتنا لأنفسنا يتغيَّر كلُّ شيء في هذه الدُّنيا، ويذوب هذا الظلُّ المهيب من الهزيمة النفسية كالكافور في الماء، ولم

يُخطئ الشاعر حين قال: **حين تُدرك قيمة نفسِك، يصبح الثَّقلان من أتباعك!**

إذا نظرنا إلى تاريخ العظماء، وسِيَر أعلامِ النُّبلاء، نجد أن الذين عرفوا أنفسَهم، وأدركوا مكانتهم، ظهرت الدُّنيا في أعينهم في صورتها الحقيرة الدَّنيئة؛ لذا لم يستطع أحدٌ من ملوك الدُّنيا ـ كائنًا من كان ـ شراء ذِمَمِهم، بل رفضوا أمتعتهم الفانية، وردُّوا عروضَهم المُغرية قائلين: إن العنقاءَ لا يُعشِّشُ إلا في الذِّروة العُليا من الشَّجرة الشّامخةِ العالية، فلا يَنزل إلى الدَّرك الأسفل!

والتاريخ الإنسانيُّ وإنْ أُصيب مِرارًا وتكرارًا بمرض النسيان وداء التحريف إلا أنه يتذكَّرُ ـ جيِّدًا ـ أولئك العظماء الذين عرفوا قيمتَهم، وأدركوا مكانتَهم، ولا يَنسى الدَّهر أبدًا حبَّ هؤلاء القوم لربهم واعتزازهم بأنفسهم، وإن رأس الإنسانية قد بقي شامخًا بأولئك، حيث أبقَوا رأسَها شامخًا بعقائدهم الثابتة وهِمَمِهم العالية وأعمالهم العظيمة.

الحفاظ على الكرامة الإنسانية:

إخوتي الأعزاء! إذا كان بقاء الحياة واستِمرارها على هذه الأرض بحاجة إلى الملبس والمطعم وغيرهما من الوسائل المادية الضّرورية، ويحاول الإنسان جاهدًا توفيرها، فإن بقاءَها وتطوُّرَها وحفظ كرامتها ووقارها بحاجة مُلحّة أيضًا إلى وجود

رجالٍ ربّانيِّين عظماء، يُطلِّقون هذه الدنيا وملذاتها طلاقًا بائنًا لا رجعةَ فيه، ويمتلكون عِفّةَ الأنبياء والمرسلين عن هذه الماديّات، ويَجعلون أرجاءَ الدُّنيا تَدوي بصدى صوت سليمان عليه السلام: ﴿أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾ [النمل: ٣٦].

وحين يتوقَّف هذا الصَّدى، وينتهي هذا الدَّويُّ، تصبح الدُّنيا كلها كسوق المزادات التي تُعرض فيها السلع المختلفة وتُباع، فيُمكن شراء جوهر المعرفة وشعلة الإيمان وروح العلم بأثمان متفاوتة وقيم متباينة، ويُباع فيها الإنسان والإنسانية كالحيوانات بأثمان رخيصة أو غالية، فلا تصلح الدنيا للعيش حينها، ولا تصلح الأرض للحياة وقتها، حيث تحفر الإنسانية قبرَها بنفسها، وتقتل نفسَها بنَفسِها.

وقد أُلقيتْ مهمّةُ الحفاظ على الكرامة الإنسانية ومسؤولية القيادة النبوية في هذا العصر على عواتقكم ـ أنتم ـ، فلا بدَّ أن تُواجِهُوا سيلَ الطُّغيان والفساد، وتَعبُروا صحراء الإلحاد والانحطاط لتحمُّل هذه المسؤولية العظيمة؛ لأن المؤسَّسات التي تقضي أيامها ولياليها في التفكير في أمر البطون والمعدة لا يُمكن أن تتحمَّل هذه المهمّةَ الصَّعبة والمسؤولية الكبيرة؛ لأنهم لن يستطيعوا أن يترفَّعوا عن هذا المستوى من التفكير، فيجب عليكم

أن تتقدَّموا إلى هذا الميدان الفَسيح، وتتسابقوا في حلبة القيادة؛ لأن لكم أُسوةً في أسلافكم المدركين للقيم والأخلاق، أمثال أبي حنيفة وابن حنبل والشافعي ومالك، أولئك الرجال الذين فشلتِ الحكومة العباسيّة بكل سَطوتها وبَطشِها في شِراء ذِمَمِهم.

وكان فيهم أمثال حجّةِ الإسلام أبي حامد الغزاليّ الذي رفض قبول صدارة المدرسة النظامية، وكانتْ حينَها تُعَدُّ أعلى رتبة دينية بعد الخلافة!

وكان فيهم أمثال الإمام السرهندي الذي أبى الانحناء أمام الإمبراطور المغولي الجبار شاه جهان، وفضَّل على ذلك غياهب السِّجنِ برحابة الصَّدر وابتسامة الوجه!

وكان فيهم أمثال مرزا مظهر جانْجانان[١] الذي كتب إليه سلطان دهلي: «إن الله أعطاني ملكًا كبيرًا فخذوا مني ما شئتم».

---

(١) هو الإمام المحدث الفقيه شمس الدين حبيب الله مرزا مظهر جانجانان بن مرزا جان بن عبد السبحان العلوي الدهلوي، أحد كبار العلماء والفقهاء والدعاة في عصره، وُلد عام ١١١١ أو ١١١٣هـ، وقرأ على الحافظ عبد الرسول الدهلوي، ونور محمد البدايوني، ولازمه إلى وفاته، ثم لازم الشيخ محمد أفضل السيالكوتي، وأخذ عنه الحديث كما قرأ عليه المطولات في العلوم، ثم تصدر للتدريس، ولازم الشيخ سعد الله الدهلوي لمدة ١٢ عامًا، ثم لازم الشيخ محمد عابد السنامي لمدة ١١ عامًا، ولما تُوفي الشيخ الأخير تصدر =

فأجابه: إن الله تعالى يقول: ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنيَا قَلِيلٌ﴾ فلما كانت أمتعة الأقاليم السَّبعة قليلة، فكيف بما في يدكم من قطعة حقيرة من إقليم واحد[١]، وقد أعطاه النواب آصف خان مرّة عشرين ألفَ روبية، فلم يَقبلْ، فقال له: «لو قسمتَه بين المحتاجين؟»

فأجابه الشيخ: إني لا أُحسن ذلك، وقُم بنفسك بهذه المهمّة في طريق عودتك إلى بيتك، ولا شكّ أنها ستنتهي قبل أن تصل إليه![٢].

= للتدريس والإرشاد مرة أخرى، فاستفاد منه خلق كثيرون، حتى ذاع اسمه وانتشر صيته، فقصده الملوك والأمراء والعلماء فضلًا عن طلبة العلم وعامة الناس.

كان ملازمًا للسنة في الحلّ والترحال، وزاهدًا في الدنيا، وراضيًا بالقناعة، كما كان ذا اجتهاد في الفروع مع تمسُّكه بالمذهب الحنفي بالجملة، وكان من تلاميذه كبار علماء ذلك العصر، أمثال الإمام ولي الله الدهلوي، والشاه غلام علي الدهلوي، والقاضي ثناء الله الفانيفتي، صاحب التفسير المظهري وغيرهم، توفي سنة ١١٩٥هـ، ودُفن بدهلي، رحمه الله ورضي عنه. يُنظر: الحسني، الإعلام بمن في الهند من الأعلام، مصدر سابق، ج٦، ص٧٠٥ ـ ٧٠٧.

(١) الحسني، الإعلام بمن في الهند من الأعلام، مصدر سابق، ج٦، ص٧٠٦.

(٢) وقد أورد العلامة عبد الحي الحسني القصة بتفاصيل مختلفة قليلًا، حيث قال في الإعلام (ج٦، ص٦٠٧): «نظام الملك أعطاه ثلاثين=

وكان فيهم أمثال الشاه غلام علي الدهلوي[١] الذي كتب

= ألفًا من النقود فلم يقبل، فقال له نظام الملك: إن لم تكن لكم حاجة إليها فخذوها ثم قسموها على المساكين، فقال: إني لست بأمينكم، إن شئتم التقسيم فباشروه بأنفسكم إذا خرجتم من داري»، ولعلها قصة أخرى.

(١) هو الشيخ غلام علي بن عبد اللطيف العلوي الدهلوي، أحد أكابر العلماء الصالحين في شبه القارة الهندية، وُلد عام ١١٥٦هـ ببنجاب، وبدأ طلب العلم في بلده، ثم سافر إلى دهلي، وقرأ صحيح البخاري على العلامة عبد العزير بن ولي الله الدهلوي، ولازم الشيخ مرزا جانجانان الدهلوي مدة حياته، ولما تُوفي شيخه هذا جلس في مكانه في المشيخة، وانتفع الناس بعلمه ووعظه وإرشاده، وركب إليه العلماء والمشايخ وعامة الناس من كل حدب وصوب، حتى طبقتْ شهرته آفاق الهند.
كان يقرأ كل يوم ١٠ أجزاء من القرآن الكريم، وكان آية من آيات الله تعالى في الزهد والقناعة والتوكل على الله تعالى والعبادات والطاعات والأذكار، وكان عالمًا بالكتاب والسنة، وعاملًا بهما، وحَيِيًّا كريمًا سخيًّا، كان يأكل في زاويته كل يوم ما لا يقل عن ٥٠٠ إنسان، وإذا أهداه أحدٌ ثوبًا نفيسًا يبيعه ويشتري بثمنه ثيابًا كثيرة ثم يُوزِّعها على الفقراء والمحتاجين، وشبّه المترجمون مجلسه بمجلس سفيان الثوري رحمه الله، حيث كانتْ الغِيبة ممنوعة منعًا باتًّا، وكان آمرًا بالمعروف ناهيًا عن المنكر، لا يأخذه في ذلك لومة لائم، ويستوي=

للنواب مير خان، والي ولاية تونك، حين أراد أن يتحمَّل بعضَ مصاريف زاويته السَّنوية: «إنه لا يُمكنني التَّنازُل عن كرامة الفقر والقناعة! قولوا لمير خان: إنّ الرِّزق مَقسومٌ في السَّماء!».

وكان فيهم أساتذة مخلصون كأمثال الشيخ عبد الرحيم الرامفوري[1] الذي فضّل التدريس في مدرسة خاصة بعشر روبيات على التدريس في كلية رايبريلي الإنجليزية بـ ٢٥٠ روبية! وفضّل التدريس المدرسيَّ على الأستاذية في الجامعة قائلًا: «ماذا أُجيب ربي لو سألني عن علمي يوم القيامة؟».

= في مجلسه الملوك والصعاليك، وكان من تلاميذه كبار علماء عصره، أمثال المحدث الكبير أحمد الكردري، والسيد إسماعيل المدني، والشيخ أبي سعيد الباجوري وغيرهم، له مؤلفات عديدة: منها: مقامات مظهري في سيرة شيخه مرزا مظهر جانجنان العلوي، وإيضاح الطريقة، تُوفي سنة ١٢٤٠هـ بدهلي، ودُفن هناك، رَحِمَهُ اللهُ رحمة واسعة. يُنظر: الحسني، الإعلام بمن في الهند من الأعلام، مصدر سابق، ج٧، ص١٠٥٥ ـ ١٠٥٦.

(١) هو الشيخ عبد الرحيم بن محمد سعيد الأفغاني الرامفوري، أحد العلماء البارعين في الفقه والأصول والعلوم العربية، درّس وأفاد مدة عمره في بلدته رامفور مع الزهد والقناعة، وتُوفي بها سنة ١٢٣٤هـ، ودُفن هناك، رَحِمَهُ اللهُ، ورضي عنه. يُنظر: الحسني، الإعلام بمن في الهند من الأعلام، مصدر سابق، ج٧، ص١٠٠٩ ـ ١٠١٠.

وكان فيهم مُؤسِّس دار العلوم ديوبند الشيخ محمد قاسم النانوتوي[١] الذي أعاد روبيتَين - من عشر روبيات كان يتقاضاها شهريًّا - إلى الثَّرِيّ العليكَري المتديّن قائلًا : «إن هاتين الرُّوبيتَين قد فاضتا عن حاجتنا بعد وفاة أمي الكريمة، حيث كنتُ أصرفُهما عليها في حياتها، وأودّ أن أنجوَ بنفسي من حسابهما يوم القيامة!».

وكان في أسلافكم القريبين أولئك المدرسين الذين آثروا البقاء في المدارس الإسلامية مقابل رواتب زهيدة خدمةً للعلم وحبًّا في شيوخهم، وكان بإمكانهم التدريس في أشهر المؤسسات التعليمية مقابل رواتب مُغرية وفرص مجزية، ولكنهم آثروا الفقر على الغنى والضِّيقَ على السَّعة في سبيل العلم، فيَحِقُّ لكم أن تتمثَّلُوا بقول الشاعر العربي :

أولئكَ آبائي فجِئْني بِمِثلِهِم إذا جمعَتْنا يا جَريرُ المَجامعُ

هذا الطريق ليس للعيش الهانئ:

أعزائي! لا تفهموني خطأً بأني لا أُدرك مُتغيِّراتِ العصر وضرورات الحياة وضعفَ الهِمم وقلّةَ الصَّبر واختلافَ الزمان! لا يظنَّنَّ أحدٌ ذلك؛ لأني لا أطالبكم بزهد العلامة عبد الرحيم الرامفوري، وقناعة الإمام محمد قاسم النانوتوي، غير أني أقول

(١) تأتي ترجمته فيما بعد.

لكم بالتأكيد: إن هذا الطريق طريقُ الإيثار والقناعة والجهد والجِدّ والهمّة العالية.

إن هذا الطريق الذي سلكتموه، سواء أكان ذلك من اختياركم لأنفسكم أو كان ذلك من تقدير الله تعالى لكم، ليس بطريق الرفاهية والمتعة والتَّرف والبذخ، **ولا بد لسالك هذا الطريق أن يسمع طعنة** ﴿قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ﴾، ويجب لمرتاد هذا الوادي أن يتعلم درس ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾﴾، ويجب أن تضعوا أعينكم - في نفس الوقت - إلى تلك الجائزة المرجوة والمكانة المنشودة من ورائه، وهي: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤]، وفي مثل هذا قال العلامة الروميُّ: دعِ التفكير في أمر المعدة حتى يَنزلَ السَّلام عليكَ من وراء الغيب!

إفلاس هذا العصر:

إن الصعوبة التي تواجهونها في ميدان الحياة لها أسباب كثيرة، منها: عدم إدراككم للمنزلة التي تبوّأتُموها، وقد ذكرتُ ذلك بالتفصيل، وهناك سببٌ آخر مهمٌّ وهو عدم معرفتكم حقيقة هذه الدينا، وعدم إدراككم مدى الإفلاس الذي يُعاني منه هذا العالَم الماديُّ.

إنكم تنظرون إليه بعين الرُّعب والحرص؛ لذا لا تستطيعون سبر أغوار حقيقته، فلو نظرتم إليه عن قرب، وتأمَّلتُم فيه بعمق، لرأيتم مدى فقر هذه الحياة وشدّةِ إحساسها به، **إنَّ طُرقَها قد أثبتت انحرافَها، ورماتها قد أرسلوا سهامَهم إلى غير مَرمًى، ومجاريها قد أظهرتْ سرابها، وفلسفاتها قد برهنتْ فقرَها المُدقع وفشلَها الذَّريع، وأنظمتها قد أسفرتْ عن إملاقها، وأحلامها قد بقيتْ وراء أساطير التَّعبير والتأويل.**

وقد آنَ أوانُ دوركم، وحان وقت ظهوركم، وإن ما تملكونه من حقائق النبوّة ومبادئ الرسالة لا تُساوى به علومُ السياسة، والاقتصاد، والاجتماع، والنفس، والفلسفة، والكيمياء، والفيزياء، والأحياء، والرياضيات وغيرها، ولكنكم تخجلون من عرضها في أسواق الدنيا وأندية الحضارة؛ لجهلكم بثمنها وعدم معرفتكم بقيمتها، غير أن الحقيقة التي لا مِراء فيها أن الدُّنيا قد تعطَّشتْ إليها منذ أمد طويل، وتبحث عنها جاهدة في سجلات التاريخ.

إن أمم الأرض وشعوب العالم ينتظرون اليوم بُروزَ تلك القافلة التي تأخذ بيدها إلى الطريق الصحيح للنجاح والنَّجاة، وتُسمعها رسالة محمد ﷺ في الحياة، إن حالها اليوم كما قال الشاعر: إن الحيوان الجائع ينتظر في الصحراء بقلب حزين آملاً أن يمرَّ صيدٌ بهذا الطريق!!

علوم النبوّة هي الثروة الأصيلة للإنسانيّة:

إن الحديث الذي لا تُعيرونَه سمعَكم، ولا تَمنحونَه اهتمامَكم لَيَستمعُ إليه كبارُ الحكماء والعلماء في العالم بالدَّهشة والحيرة حين يُعرض عليهم، **وقد رأيت هؤلاء القوم بنفسي حين عُرض عليهم سِيَرُ الأنبياء وأقوالهم كأنّ خطابًا عاليًا ـ جدًّا ـ يُلقى على صغار المتعلِّمين.**

إنكم تُهرولون إلى مائدة القوم لِتَعتزُّوا بها، وكأنكم بذلك تريدون أن تذهبوا إلى أسواقهم ببضاعتهم، وحين يرفضونها قائلين: «بِضَاعتُنا رُدَّتْ إلَينَا»، ولا يَحفلون بوجودكم بينهم، فكيف تشتكون عندئذ من رَدِّهم البارد!

إن الدنيا العجوز التي احترقتْ من ألم الفلسفات والنظريات، تنتظر منكم أن تُتحفوها بسِيَرِ الأنبياء ورسائلهم، وأن تُعلِّموها مبادئ الإيمان وأحكام الدين، وإنها لَمُستعدّة ـ اليوم ـ للانحناء أمام حقائق الإله، ومعارف السماء، وتعاليم الأنبياء، وإن عقل الإنسان وذكاءه لا زالَا بحاجة ماسّة إليها مثل حاجتهما إليها في القرن السادسِ المِيلادِيّ.

إنكم تملكون أوراقًا قديمة صفراء عن منطق اليونان وفلسفة الإغريق، وعلوم الطبيعة والفلك، ويملك الغربُ في مقابلها العلمَ الحديثَ، والتجربة المعاصرة، والتقنيّات المتطوِّرة،

والنظريات الدقيقة، والمعالم المتقدِّمة، والمختبرات الراقية، وإنها لَعالَم آخَر، عالم مليء بعجائب الماديّات، فلن يمكنكم أن تبهروا هذا الغرب المتقدِّم المتطوِّر بالفلسفة المشائية القديمة والعقليات اليونانية العقيمة؛ لأن عصر العلوم الإغريقية قد ولّى من غير رجعة، وقد فقدتْ روحَها وقوّتَها.

غير أن حقائق الأنبياء وعلوم الدين وقواعد التزكية التي تملكونها قد بقي الشرق والغرب منها محرومين حتى الآن، وإنهم يَتوقون لها كتَوقِ الخطّاف إلى المطر، وإنهم يملكون الأجوبة ـ إلى حد ما ـ لما لديكم من المستنبطات العقلية والنتائج الفكرية والذخائر العلمية، **ولكنهم لا يملكون الأجوبة تجاه معجزات الأنبياء ﷺ وعجائب تعاليمهم**، فعليكم أن تتقدَّموا بهذه الثَّروة النادرة من الحقائق والمعارف والمبادئ إليهم، وتنزلوا في ملعب الحياة بيقين تامٍّ واعتماد كلّيٍّ على الله تعالى، **فلن تجدوا هنا مَن يُنازعُكم على صدارتكم، ويُبارِزكم في قيادتكم.**

إن الرسالة الإنسانية التي تملكونها، والحقائق الربانية التي تحوزونها، وعلاقة العبودية التي تتشرَّفون بها تجعلكم تتمثَّلون بقول الشاعر الأردي: لو اتّبعني القمرُ والنَّجمُ فلا عجبَ في ذلك؛ لأني أتّبع النبيَّ الخاتم، سيِّدَ ولد آدم، الذي منح الهباءة سعةَ الصحراء!

جهود العلماء السابقين في ربط العلوم الإسلامية بالحياة:

أعزائي! قلت لكم في البداية بأن طرفًا من حياتكم موصول بالنبوّة المحمّديّة ـ على صاحبها أزكى الصلاة والتحيّة ـ وقد تحدَّثتُ معكم عن الواجبات التي تتطلَّبها منكم هذه النِّسبة العظيمة، وقد قلت أيضًا بأن الطَّرفَ الآخر من حياتكم موصول بالحياة، وأودّ أن أُحدِّثكم الآنَ عن مسؤولياتكم تجاهها، كيف تستعدون لها؟ وكيف تُؤدُّونها كما هي؟

أحبائي! إن العلومِ والحقائق والأصول والضَّوابط التي منحتها لنا النبوّةُ المحمديّة ـ على صاحبها صلوات الله تعالى وسلامه ـ لا يُمكن أن نغيِّرَ فيها موضع قطرة، ويجب عليكم أن تُسلِّمُوها إلى الأجيال اللاحقة كما تلقَّيتُموها من الأجيال السابقة، وهذا ما تنطق به سِيرُ علمائكم السّابقين، حيث إنهم لم يُعطوا للباطل فرصةَ التَّحريف والتَّبديل فيها، بل أدَّوها إليكم خالصةً صافية.

ولا بدَّ أن نتذكَّر أيضًا أنَّ علماءنا السّابقين قد بذلوا أقصى جهودهم لنقل هذه العلوم والمعارف إلى منهل الحياة المتحركة، وقد أثبتوا بجهودهم المتواصلة وحركاتهم الدائبة حيويّتها وصلاحيّتَها وعمومها وشمولها لكل زمان ومكان، وعرضوها على أقوامهم بطريقة تتناسب مع العقول المعاصرة والأذهان

المتأخِّرة، فسهُل عليهم استيعابُها وفهمُها وهضمُها، فلم يحسَّ أقوامُهم بأيّ مسافةٍ تقطع بين مقتضيات الحياة المعاصرة ومطالب التعاليم الإسلامية.

إنهم كانوا يملكون ثباتَ الجبال الراسيات، وصلابة الفولاذ القوية في التمسك بالشريعة الغرّاء ومقاصدها العظيمة، غير أن شروحَهم لها وتفصيلاتهم عنها تتَّسِمُ بنعومة الأزهار ولُيونة الأرائك، وقد صدَروا في ذلك عن الحكمة المرتضويّة القائلة: «كلِّمُوا النّاسَ على قدر عقولهم، أتريدون أن يُكذَّبَ الله ورسولُه؟»(١).

فهُم خاطَبوا النّاس بأحكام الشّريعة الغرّاء على حسب مداركهم العقلية، ومستوياتهم العلمية، واضعين نصبَ أعينهم حاجاتِ كلِّ عصر ومقتضياتِ كلِّ مِصرٍ.

وحين تسلَّط تأثير العلوم اليونانية على المعتزلة تحت رعاية الخليفة العباسي المأمون والمعتصم، وبدأ الناس ينظرون إلى العلوم العقليّة على أنها الوكيل الحصري المعتمد لهداية

---

(١) ذكره الإمام البخاري في صحيحه عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه معلّقًا بلفظ: «حَدِّثُوا النَّاسَ بِمَا يَعْرِفُونَ، أَتُحِبُّونَ أَنْ يُكَذَّبَ اللهُ وَرَسُولُهُ؟» في كتاب العلم، باب من خصّ بالعلم قومًا دون قوم كراهة ألا يفهموا، رقم الأثر: ١٢٧.

الإنسانية، صار المذهب الاعتزاليُّ العقلانيُّ موضةَ العصر وأمارة التقدُّم! وأحكمَ الفِكرُ الاعتزاليُّ سلطانَه على جميع المناهج العلمية والمناهل التربوية.

في مثل هذه الظروف الصَّعبة أعلنَ الإمام أبو الحسن الأشعريُّ عصيانَه للعقلانيّة الاعتزاليّة اليونانيّة، ورفع رايةَ الخروج على سلطانها! وبدأ يدافع عن عقائد أهل السُّنة والجماعة، **ويناصِرُ العقيدة الإسلامية الصَّحيحةَ بنفس اللغة والمفاهيم والأساليب التي عرفَها القومُ**، وأسّس عليها المعتزلة صروحَهم العلميّة وأبنيتَهم المعرفيّة وتصوُّراتِهم الذِّهنيّة.

فكانت النتيجة الطبيعية أن تهاوتْ صُروح طلاسِم المعتزلة، وتوقَّف طُغيانُ العقلانيّة الاعتزاليّة في حلقات العلم والمعرفة، وأُزيلتِ الهيمنةُ العقليّةُ من مناحي الحياة خلال مدّة وجيزة من الزمن، حتى قال أبو بكر الصَّيرفي: «كانت المعتزلة قد رفعوا رؤوسَهم، حتى أظهرَ الله الأشعريَّ، فحجَزَهم في أقماعِ السِّمْسِمِ!»[١]، ولهذه الجهود القيّمة عدَّهُ أهلُ البصيرة الدقيقة، كأبي بكر الإسماعيليّ، من مجدِّدي الدِّين والمِلّةِ في عصرِه.

---

(١) السُّبكي، الإمام تاج الدين عبد الوهاب بن تقي الدين السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، تحقيق: د. محمود محمد الطناحي ود. عبد الفتاح محمد الحلو (د.م، هجر للطباعة والنشر والتوزيع، ط٢، =

وسار العلماء الذين جاؤوا من بعده في تشييد نَهجِه وإتمامِ عمله، كالقاضي أبي بكر الباقلاني، والشيخ أبي إسحاق الإسفرايِيني، والعلامة أبي إسحاق الشّيرازي، وإمام الحرمين الجوينيّ، ووضعوا سلاح أهل السُّنة ماضيًا على رقاب الباطل.

غير أن العلوم اليونانية قد انتقلَت إلى العربية قبل تلك الفترة بأمد، وألبَس الباطنيةُ والفلاسفةُ الفلسفةَ اليونانيّةَ لَبوسَ التَّقديس والعِصمة، فصارت الفلسفةُ مِعيارَ الحقِّ وميزانَ العقلِ ومِحَكَّ النَّظر.

ونجد في المقابل علماءَ الكلام ـ الذين يُفترَضُ فيهم أن يكونوا على دراية تامّة واستعدادٍ كامل للعصر ومُقتضياته وضروريات المعركة وأسلحتها ـ قد أُصيبوا بالجمود والتقليد، فلم يكتفُوا بتسليم عقائد الأشعري والماتريدي ومقدماتهما فقط، بل أصرُّوا على إثبات العقيدة الإسلامية بنفس المصطلحات

= ١٤١٣هـ) ج٣، ص٣٤٩، وقد بحثت عن معنى أقماع السمسم في المصادر والمراجع القريبة بمتناوَل يدي، فلم أجده فيها، ويبدو أنه يُراد بأقماع السِّمْسِم: جحور النمل الأحمر مجازًا، حيث إن القمع مجرى النفس إلى الرئة، وهو الحلقوم. يُنظر: ابن منظور، محمد بن مكرم بن علي الأنصاري، لسان العرب (بيروت، دار صيدا، ط٣، ١٤١٤هـ) ج٨، ص٢٩٧.

والألفاظ والدلائل والمقدِّمات التي كانت وليدةَ عصرهما وبِنتَ زمنِهما، مع أن الزمان ومتغيّراته والمكان ومقتضياته كانت تَقتضي دلائلَ جديدةً وطرقَ استدلالٍ حديثة تتناسب مع أهل الزمان ومداركهم وأفهامهم، ونسُوا أو تناسَوا بأن الدَّور الذي أدّاه الأشعريُّ كان في زمن طفولة الفلسفة، وكان عهدُها قريبًا في العالم الإسلامي في عصره، وقد وصلتِ الفلسفةُ الإغريقية إلى عهد الشباب والفتوّة في القرن الخامس الهجري مع تمكُّنها من عُقول الناس والحياة والمجتمع.

وكان لا بدَّ من ظهور شخصيّة جديدة باجتهاد جديد وبطريقة تفكيرٍ جديدة، فكان من تقدير الله تعالى لهذه الأمة المعصومة أن هيّأ الإمامَ الغزاليَّ لهذه المهمّة الصعبة، فتحدَّثَ الغزاليُّ من خلال تصانيفه ومؤلَّفاته عن العقائد الإسلامية بطريقة مبتكرة وبأسلوب جديد، وأقام صرحَها على أُسس ومقدماتٍ أقوى تأثيرًا وأشدّ ثَباتًا وأكثرَ مُلاءَمةً لمقتضيات عصره، فأعاد هيبةَ الدين وكرامةَ أهلِ السُّنّة والجماعة إلى قلوب الجيل الجديد، وطمأنَ الآلافَ المؤلَّفة من العُقول المضطربة تحت تأثير الفلسفة والعقلانيّة.

غير أنَّ حلقاتِ علمِ الكلام الكبيرة وعلماءَه الكبارَ لم يعترفوا بتلك الجهود القيّمة التي بذلها الغزاليُّ، بل بدؤوا يُرسلونَ إليه سهامَ النقد والاعتراض لابتعاده عن صَرح الكلام القديم!

وقد ردّ الإمام على اعتراضاتهم من خلال كتابه «فيصلُ التَّفرقة بين الإسلام والزندقة» فاضطرّ العالم الإسلامي إلى الاعتراف بأعماله التجديديّة وجهوده الإصلاحيّة.

وقد شعر الإمام الغزالي في هذه المرحلة بضرورة الرُّجوع إلى كتب الفلاسفة مباشرةً للرَّدّ المُفحِم عليها وعلى أصحابها، ولِيَقصِمَ ظهرَها وظهورَهم، فأمضى سنتين كاملتين (كما ذكر هو بنفسه في كتابه المُنقذ من الضَّلال) في مراجعة كتب الفلاسفة ومؤلَّفاتهم بتمَعُّنٍ وتَروٍّ، ووقف على عقائد الباطنية وأوهامهم وخيالاتهم بتعمُّق، ثم ألَّفَ كتابيه «مقاصد الفلاسفة»، ثم «تهافُت الفلاسفة».

والعمل الجديد الذي قام به الإمامُ الغزاليُّ في كتابه الأخير «تهافت الفلاسفة» أنْ حوَّل جبهة القتال ووُجهةَ الحرب، حيث إن علماء الإسلام في عصره قد وقفوا من الفلسفة موقفَ الرَّدّ والدِّفاع، وهذا الموقف يُعَدّ مَوقفًا ضعيفًا دائمًا، فأرسل الغزاليُّ قنابِلَه العلميّةَ على حِصن الفلسفة لأول مرّة في تاريخها، وأرسل إليها سَيلَ الاعتراضات العارمة التي حيَّرتْ عقولَها، وأخَلَّتْ موازينَ قواها.

فكانتْ نتيجة تلك الغارات القوية والاعتراضات الشديدة أنْ تصدَّعَ جدارُها، وتَهاوى بنيانُها، وبقيت الفلسفة مُتزلزلة مضطربة لمدة ١٠٠ سنة كاملة باعتراف الفلاسفة والمؤرّخينَ الغَربيِّين،

وبعد مُضُيِّ قرابة ٩٠ سنة استطاعتْ أوساطُ الفلسفة اليونانية أن تُعِدّ الجوابَ للغزاليّ في صورة كتاب «تهافُت التَّهافُت» لابن رشد الأندلسي.

وكانت الحاجة مُلحّةً لتَكرار تلك الحملات العلمية والغارات المعرفية على حصن الفلسفة بعد الغزالي، وإيقاف سيل الاعتراضات الفلسفيّة والإشكالات المنطقيّة القائمة على العقل المجرَّد دون العلم المُبرهَن، وكان لا بد من إقامة الدّليل على أن النُّظُم الفلسفيّة والقياسات المنطقيّة لا تَعدو أكثر من ثرثراتٍ كلاميّة وادِّعاءاتٍ فارغة! وكان لا بد من بروز دارسٍ عميقٍ للفلسفة، وناقدٍ شجاعٍ للمنطق الصُّوريّ، وعقليّةٍ حادّة في الفَهم والإدراك، وصاحبِ قلمٍ سيّال في الكتابة والتأليف، فتقدَّمَ إلى الميدان ـ بهذه المواصفات ـ شيخُ الإسلام تقيُّ الدِّين أحمدُ بن عبد الحليم بنُ تَيميّة، الذي كان مُؤهَّلاً لِيُؤدّيَ هذا الدَّورَ المرحليَّ من كل المعايير، فأثبتَ من خلال رسائله، لا سيَّما كتابه «الرَّدّ على المنطقيِّينَ»، عدمَ جدوى النُّظم الفلسفيّة والطُّرق المنطقيّة، فكُتُبُه ـ التي تتَّسِمُ بالجِدّة والاجتهاد ـ تمنحُ الذِّهنَ غذاءً جديدًا، والعقلَ دليلاً مُقنعًا، والفِكرَ خصوبةً وحيويّةً حتى الوقت الرّاهن.

وبما أن كلاًّ من الفلسفة وعلم الكلام طغَتْ عليهما ظاهرةُ العَقلانيّة، وكانت نتيجة ذلك أن ظهر في العالم الإسلامي الفهمُ

الخاطئ بأن الفكرَ الفلسفيَّ والاستدلالَ المنطقيَّ هو الطريق الوحيد للإيمان الراسخ واليقين الثابت، فوقف ضد هذا التخمين الخيالي والتصوُّر الموهوم العلامةُ جلالُ الدِّين الروميُّ، وأعلن الجهاد ضدَّه بقلم سيّال وقلبٍ مُحِبّ، وكتابه الحيُّ (المثنويّ المعنويّ) يُعَدّ احتجاجًا صارخًا وردًّا قاصِمًا ضدَّ الطّغيانِ الفلسفيّ العارِمِ في القرن السابع الهجري، وهذا الكتاب لا يتَّسم بالاجتهاد في مجال علم الكلام فقط، بل يُعَدُّ بناءً جديدًا لعلم كلام جديد، حيث ذكر فيه طرقًا جديدة وأمثلة مختلفة لإثبات العقائد الإسلامية والحقائق الغَيبية، فهي تُؤثِّر في القلب والعقل معًا، وتُزيل اللَّبسَ والشَّبهَ عن طريقِهما معًا، وبقي تأثيرُه إلى يومنا هذا، ولا تزال سهامُه تَرمي بالشَّرر على قلعةِ الفلسفة الماديّة الجافّة.

وبعد الحافظِ ابن تَيميّة والشَّيخِ الروميّ أخذتِ الفلسفةُ مَنحًى جديدًا، فتسرَّبتْ إلى حدود التصوُّف والأخلاق، كما اندسَّتْ في النُّظم المعرفيّة والسياسيّة، فلم تَعُدِ المباحثُ العقليّة والكلاميّة قادرةً على دَحضِها، ولا يكفي لفصل الفلسفة عن العقول والقلوب وإزالة تأثيرها عنها العلمُ بالفلسفة وعلمُ الكلام فقط، بل لا بدَّ من دارسٍ عميقٍ للميتافيزيقيا والأخلاق عند فلاسفة اليونان، والأفلاطونية الجديدة لدى فلاسفة مصر، والفلسفة

الإشراقية وفلسفة اليوغا عند فلاسفة الهنود، والتخيُّلات السياسيّة في القرون الوسطى، بالإضافة إلى اطّلاع واسع عميق على التصوُّف، والأخلاق، والفلسفة، والفقه السياسي الإسلامي، والنُّظم الإسلامية في الاجتماع والتاريخ والاقتصاد، وهنا ظهرت شخصية الإمام وليّ الله الدّهلوي، حيث أسدى خدماتٍ جليلةً، وقدَّم براهينَ قاطعةً على صدق الإسلام وصلاحيّةِ أحكامِه وتطبيق شريعته في كلِّ زمان ومكان، وذلك عن طريق كتابَيه «حجّة الله البالغة»، و«إزالة الخفاء عن خلافة الخلفاء».

ولما استطاع الإنجليز المستعمرون إحكامَ قبضتِهم على الشَّعب الهنديّ ظُلمًا وبَغيًا وجورًا سنة ١٨٥٧م، وبدؤوا يُثيرون فتنًا جديدة في هذه البلاد، بقصد إضعاف الأمة واضطراب فكرها، وقد أعلن المنصّرون المسيحيون حربًا ضروسًا ضد الإسلام وعقيدته تحت رعاية حكومة الاستعمار نفسها، وتحدَّوا علماء الإسلام للمناظرة والمبارزة، فكان لا بد من دحض طغيان هؤلاء القوم وجوابهم المُفعم والمفحم، وهو يتطلَّب اطّلاعًا واسعًا وعلمًا عميقًا مباشرًا عن الأناجيل المختلفة، وتفاسيرها، وتاريخ تدوينها، والمسائل الخلافية بين الإسلام والنصرانية، وهنا نزل في الميدان الشيخ رحمة الله الكيرانوي[1]، ووقف حجَرَ عثرَة

---

(١) هو العالم المناضل رحمة الله بن خليل الله بن نجيب الله العثماني=

. . . .

= الكيرانوي، أحد مشاهير علماء الهند في المناظرة والكلام، وُلد عام ١٢٣٣هـ بقرية كيرانة من أعمال مظفر نغر، بدأ طلب العلم ببلدته على يد والده وغيره، وحفظ القرآن الكريم وعمره ١٢ عامًا، ثم سافر إلى دهلي، ودرس على يد الشيخ عبد الرحمن الأعمى والشيخ محمد حياة ولازمهما ملازمة تامّة، حتى برع في العلوم والفنون، لا سيما علم الكلام والجدل والمناظرة، ثم جلس للتدريس والإفتاء، كما شارك في ثورة الهند التحريرية وفي معركة شاملي الشهيرة، فصادرتِ الحكومة الإنجليزية ممتلكاته.

ناظرَ قساوسةَ النّصارى، وألجمَهم حتى العظم، فضاق به القساوسة والأحبار، وأوعزوا به إلى الحكومة الإنجليزية، فأرادتْ قتله، فاضطرَّ إلى الخروج من الهند، وسافر إلى الحجاز مُتخفِّيًا، وأقام بمكة المكرمة، وصنّف بها كتابه العظيم إظهار الحق بأمر إمام الحرم المكي آنذاك الشيخ السيد أحمد بن زيني الدحلان عام ١٢٨٠هـ، فأقبل عليه الناس من كل حدب وصوب، وأمرَ الخليفة العثماني بترجمة الكتاب إلى اللغة التركية وعدة لغات أوربية، ففزعت الأوساط النصرانية منه، وعلّقت الصحف الأوربية عليه قائلة: **«لو دام الناس يقرؤون هذا الكتاب لوقف تقدُّم المسيحية في العالم»**، ودعاه السلطان عبد الحميد خان الثاني إلى إسطنبول، ومنحه لقب (ركن الحرمين الشريفين)، وأعطاه الوسام المجيدي.

أسّس بمكة المكرمة المدرسة الصولتية، وتخرج منها كثيرٌ من العلماء =

في طريق انتشار النّصرانيّة بشبه القارة الهندية، عن طريق كتبه القوية، مثل «إظهار الحق»، و«إزالة الأوهام»، وهذه الكتب تُعَدّ فريدة في بابها في العالم الإسلامي كلِّه، وجِدَّتُها باقية حتى الآن.

وقد بدأ الآريّون ـ الذين كانوا شركاءَ الحكومة الإنجليزية في الهند ـ حملاتٍ جديدةً على الإسلام وعقائده، وشرعوا يُبدون اعتراضاتٍ عقليّةً على مسائل قِدَم العالم وحُدوثه، وذات الله تعالى وصفاته، والكلام الإلهي، والحياة بعد الموت، وتناسُخ الأرواح، وتحديد القِبلة، وحياة النبي ﷺ بعد الموت وغيرها من المباحث العقدية.

فكان لا بد من علم كلام جديد للرَّدّ على هؤلاء؛ لأن الكلام القديم وأقيستُه واستدلالاته ومقدِّماته لم تعدْ كافية، وهنا وقف الإمام محمد قاسم النانوتوي[١] في طريق هؤلاء القوم، وأجابهم بطريقة جديدة وبأسلوب جديد، فأسّس بذلك علمَ كلام

= والقضاة، من مؤلفاته: إظهار الحق، وإزالة الأوهام، وإزالة الشكوك، وإعجاز عيسوي، وأصح الأحاديث في إبطال التثليث، وتُوفي بمكة المكرمة سنة ١٣٠٨هـ، ودُفن بمقبرة المعلاة، رحمه الله، ورضي عنه، وجعل الفردوس مثواه. يُنظر: الحسني، الإعلام بمن في الهند من الأعلام، مصدر سابق، ج٨، ص١٢٢٨ ـ ١٢٢٩.

(١) تأتي ترجمته فيما بعد.

جديد في الردِّ على شُبُهاتِ الآريّين، فكان يحلّ المسائل الكلامية العويصة بأمثلة واقعيّة واضحة سهلة! وكُتُبه شاهدة على عبقريّته وقوة ذكائه وعمق فهمه ودقّة فكره، مثل تقرير ديوبند، وحجّة الإسلام، وآب حياة (ماء الحياة)، وقبلة نما (رسالة القِبلة).

وفي أواخر القرن العشرين ظهرتْ فتنة جديدة في منطقة فنجاب، وهي فتنة منظَّمةٌ مبيّتة مدبَّرة ضدَّ النبوّة المحمديّة ـ على صاحبها ألفُ ألفِ صلاةٍ وتحيّة ـ فكانت محاولة أثيمة لإقامة صرح نبوّةٍ كاذبة أفّاكة من قبل المدعوّ مِرزا غلام أحمد القادياني[1]، فنازلَه علماءُ بارعون ودعاةٌ مخلِصون، ودحضوا

---

(١) هو الأفاك الأثيم غلام أحمد بن غلام مرتضى بن عطاء محمد القادياني، أحد أدعياء النبوة، وُلد سنة ١٢٥٦هـ، ودرس على يد كُلْ علي شاه النحو والصرف والمنطق والفلسفة، واشتغل في الوظائف لدى الحكومة الإنجليزية مدة ثم تركها.
أظهر الزهد والقناعة في بداية حياته، ثم ادَّعى أنه مهدي موعود، ثم ادَّعى أنه مسيح معهود، ثم ادَّعى ظلَّ النبوة المحمدية ـ على صاحبها صلاة وسلام دائمتان متلازمتان إلى يوم الدين ـ ثم ادَّعى النبوة المستقلة، وأنه نسخ الشريعة الإسلامية، وأن من لم يؤمن به فهو كافر مرتدٌّ عن الملّة، وقال بتناسخ الأرواح وحلولها، وانتصر للحكومة الإنجليزية، وأعلن نسخ الجهاد وتحريمه، وأن الإنجليز هم أولو الأمر في الهند، فعلى أهلها إطاعتهم، وأن **الإسلام جزآن**؛ =

. . . .

= **جزؤه الأول: طاعة الله تعالى، وجزؤه الآخر: طاعة الإنجليز إلى** آخر هذه الخرافات والخزعبلات التي أوحاها إليه شيطان الجن وخناس الإنس الإنجليزُ، قال الحسني في الإعلام ملخِّصًا سيرته: «كان مرزا غلام أحمد تغلب عليه في بداية أمره الغرارة وقلة الفطنة والاستغراق . . . وقد لا يميز الأيمن من الحذاءين من الأيسر، حتى اضطرَّ إلى وضع العلامة عليها بالحبر، وقد أُصيب في شبابه بالنوبات العصبية العنيفة . . . فلما تبوّأ الزعامة الدينية اتَّسع له العيش، وأقبلت عليه الدنيا، وأغدقت عليه الأموال، وأصبح يعيش هو وأهله في نعيم وبذخ، وتصرف في الأموال تصرفًا مطلقًا، وتوسع في المطاعم والمشارب والأبنية، وكان سليطًا طويل اللسان، هجّاءًا مُقذِعًا للمخالفين والعلماء المعاصرين، لعانًا بذيّ القول».

كفّر علماء الهند ـ ثم علماء العالم كله ـ بإجماعهم مرزا غلام أحمد القادياني وأتباعَه، وأنهم ليسوا من الأمة المحمدية، على صاحبها ألف ألف صلاة وتحية، وأنه لا يجوز نكاح نسائهم، ولا وراثة أموالهم، ولا الصلاة خلفهم، وأن من شكّ في بطلان نبوة القادياني فهو كافر خارج من الملة، وألف العلماء في الرد على القادياني ودينه ودحض شُبَهِهم كتبًا كثيرة، وأُصيب القادياني في آخر عمره بالهيضة الوبائية بلاهور، ومات منها عام ١٣٢٦هـ، ونقلتْ جثته إلى قاديان، ودُفن بالمكان الذي سماه مقبرة الجنة، يُنظر: الحسني، الإعلام بمن في الهند من الأعلام، مصدر سابق، ج٨، ص١٣١٧ ـ ١٣١٩، =

افتراءاتِه وأكاذيبَه، على رأسهم الشيخ السيد محمد علي المونغري[١]، مُؤسِّس ندوة العلماء، والعلامة أنور شاه الكشميري[٢] وغيرهما.

= والكشميري، الشاه محمد أنور، إكفار الملحدين في ضروريات الدين (كراتشي، إدارة القرآن والعلوم الإسلامية، ط٣، ١٤٢٤هـ) والندوي، أبو الحسن علي الحسني، القادياني والقاديانية: دراسة وتحليل (جدة، الدار السعودية للنشر، ط٣، ١٣٨٧هـ)، والمودودي، أبو الأعلى، المسألة القاديانية ضمن ثلاث رسائل عن القاديانية (الكويت، مكتبة دار البيان، د.ط، د.ت)، وظهير، إحسان إلهي، القاديانية: دراسات وتحليل (باكستان، إدارة ترجمان السنة، د. ط، ١٤٠٤هـ)، وآل بوطامي، أحمد بن حجر البنعلي، القاديانية ودعايتها الضّالة والردُّ عليها (بيروت، المكتب الإسلامي، ط١، ١٤٣١هـ) وغيرها من الكتب القيمة.

(١) تأتي ترجمته فيما بعد.

(٢) هو المحدث الكبير محمد أنور شاه بن معظم شاه بن عبد الكبير الحسيني الكشميري، إمام عصره في العلوم الإسلامية والعقلية بالهند، وُلد بكشمير عام ١٢٩٢هـ، وقرأ العلوم الأولية على والده، ثم سافر إلى مدينة بِكْلي وقرأ على شيوخها الفقه والأصول والمنطق، ثم سافر إلى دار العلوم بديوبند، ونهل من معين شيوخها الكبار، من أمثال العلامة محمد إسحاق الأمرتسري، والعلامة خليل أحمد السهارنفوري، وشيخ الهند محمود حسن الديوبندي، والعلامة غلام=

. . . .

= رسول وغيرهم، كما استفاد من صحبة الإمام رشيد أحمد الغنغوهي، ثم عُيّن مدرسًا بالمدرسة الأمينية بدهلي، ثم عيّن مدرسًا بدار العلوم، ديوبند، ولما سافر شيخ الهند إلى الديار الحجازية للإقامة الطويلة جلس الشيخ الكشميري في مكانه في مشيخة الحديث ورئاسة التدريس بديوبند، وانتهتْ إليه رئاسة الحديث في شبه القارة الهندية كلها.

وكان آية من آيات الله تعالى الباهرة في شدة الذكاء، ودقة النظر، واستحضار النصوص، والتضلُّع في الفقه والأصول، ورسوخ الباع في العلوم العربية والتفاسير وعلم الكلام، ونقلِ مذاهب العلماء ودلائلهم، وسعة الاطلاع، وقوة التحقيق والاجتهاد، وقد أمَّه طلاب الحديث والعلماء من آفاق الهند، وتخرّج على يديه عدد كبير جدًّا من طلبة الحديث الذين حملوا راية نشر السنة من بعده، وخدموا ميدانه، من أمثال العلامة بدر عالم الميرتي، والمفتي محمد شفيع الديوبندي مفتي جمهورية باكستان السابق، والمحدث الكبير محمد يوسف البنّوري، والمفسر الكبير محمد إدريس الكاندهلوي، والعلامة محمد حبيب الرحمن الأعظمي وغيرهم كثيرون، وكان كثير الإنصاف لشيخ الإسلام ابن تيمية، ويعترف بغزارة علمه وعلو كعبه في صناعة الحديث، كما كان كثير الإعجاب بفتح الباري للحافظ العسقلاني.

ولما حدثتْ فتنة القاديانية ثارتْ ثائرته، ومضى في الرد عليها وعلى صاحبها، وقد انصرف للكتابة ضدهم، ولبيان ضلالاتهم وانحرافاتهم وجهالاتهم، ألّف وناظر وسافر وحذّر، له مؤلفات علمية دقيقة، =

الاستجابة لمطالب العصر الجديدة ورِفقة الحياة:

أعزائي! القصد من وراء كل هذا أن أُبيِّنَ لكم بأن العلماء وحماسَهم للدِّين وغيرتَهم على الأمة وحضارتها لم تتوقَّفْ عند

= منها: فيض الباري شرح صحيح البخاري (من أماليه في درس صحيح البخاري) والعرف الشذي بجامع الترمذي (من أماليه في درس جامع الترمذي)، والتصريح بما تواتر في نزول المسيح (في الرد على القادياني والقاديانية)، وإكفار الملحدين في ضروريات الدين (في الرد على القادياني والقاديانية)، وعقيدة الإسلام في حياة المسيح (في الرد على القادياني والقاديانية)، وخاتم النبيين (في الرد على القادياني والقاديانية) وغيرها من الكتب العلمية الرصينة الرزينة.
أُصيب الشيخ بداء البواصير، واشتد مرضه، وعالجه كبار الأطباء في وقته، ولكنَّ القضاء غالب، فتُوفي ٣ صفر سنة ١٣٥٢هـ بديوبند، وصلى عليه جمٌّ غفير من العلماء وطلبة العلم وعامة الناس، ودُفن بديوبند، رحمه الله ورضي عنه، وجعل مقامه في عِلِّيين. يُنظر: الحسني، الإعلام بمن في الهند من الأعلام، مصدر سابق، ج٨، ص١١٩٨ ـ ١١٩٩، وأبو غدة، عبد الفتاح، تراجم ستة من فقهاء العالم الإسلامي (بيروت، دار البشائر الإسلامية، ط١، ١٤١٧هـ) ص١٣ ـ ٢٢، والأنصاري، الباحث محمد عبد الله فاروق، الشيخ محمد أنور شاه الكشميري وآراؤه الاعتقادية؛ عرضًا ونقدًا (رسالة ماجستير مجازة من قسم العقيدة بكلية الدعوة وأصول الدين بجامعة أم القرى عام ٢٠٠٠م، تحت إشراف الدكتور أحمد عبد الرحيم السايح)، ص٢٨ ـ ٦٥.

حدٍّ معيَّن، بل ساروا مع قافلة العلم وتطوُّرها وتقدُّمها حيثما سارتْ وذهبتْ، ولم تنفصل أياديهم عن نبض الحياة والمجتمع، ولم تبتعد أنظارهم عن متغيِّرات العصر، وقد اختاروا الأسلوب المناسب والطريقة المناسبة لخدمة الإسلام في كل عصر ومصر دون جمود أو جحود؛ لأنهم عاهدوا الله تعالى على الوفاء للدين والقيام بخدماته، ولم يَنذروا أنفسَهم للوقوف عند نظريات أو أفكار أو أنظمة بشرية.

وحين بدأت الحملات الغربية في الهند ومصر باسم الحضارة والثقافة والتاريخ والأدب، وبدأ كُتاب الغرب الحاقدون والمستشرقون الماكرون يكيلون صنوفَ الاعتراضات على تاريخ الإسلام المجيد وشخصياته البارزة، وحاولوا جاهدين إظهارَ الإسلام في صورة غير صورته الأصيلة، وإلباسَ الإسلام لباس الغير ليسهل عليهم بعد ذلك اتِّهامه بالإرهاب والتطرُّف والأصولية، تقدَّمَ إلى الميدان رجال عظماء من طبقة العلماء، يحملون اليقين بصلاحيّة الإسلام في قلوبهم، ويملكون العلم العميق عنه في صدورهم، ويمتلكون الأدب الراقي والقلم السيّال بأيديهم، وصنفوا مؤلفاتٍ أحرزتْ شهادة الإشادة والإجلال من الأوساط العلمية العامّة، بله الأوساط الإسلامية، ونشروا الطمأنينة في نفوس المسلمين، لا سيما الطبقة المثقفة على النظام

العصري الجديد، ولم يزيلوا بذلك الحيرة والاضطرابات من قلوب هؤلاء فقط، بل أعادوا الثقة إلى قلوبهم بعظمة تعاليم الدِّين من جديد، وصلاحيتها لكل زمان ومكان، وتعدّ مؤلفات العلامة شبلي النعماني[١] نماذجَ راقية في هذا المجال، لا سيما كتبه: الجزية في الإسلام، والفاروق، ومكتبة الإسكندرية.

---

(١) هو العالم المؤرخ محمد شبلي بن حبيب الله بن حسن علي النعماني، أحد علماء الهند الكبار، ولد ١٢٧٤هـ ببندول من أعمال أعظمكرة، قرأ العلوم العربية والمنطق والفلسفة على يد الشيخ فاروق بن علي العباسي، ولازمه مدة طويلة، ثم سافر إلى رامفور وأخذ الفقه والأصول عن الشيخ إرشاد حسين العمري، ثم سافر إلى لاهور ودرس الفنون الأدبية على يد الشيخ فيض الحسن السهارنفوري، ثم سافر إلى سهارنفور وأخذ الحديث النبوي الشريف عن المحدث الكبير أحمد علي السهارنفوري، حتى برع في هذه العلوم.
عُيّن مدرسًا في جامعة عليكرة، واحتكّ هناك بالمستشرقين، واطلع على أفكارهم وكتاباتهم وحِقدِ كثير منهم على الإسلام ومصادره وتاريخه وثقافته وحضارته، فصرفَ همته لبيان حقيقة الإسلام، ودافع عن رجال الإسلام المبرزين، وقد ألّف فيها كتبًا نالتْ القبول والرواج لدى الأوساط العلمية، منها: الفاروق (سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه)، والنعمان (الإمام أبو حنيفية)، والمأمون، والجزية في الإسلام، ومكتبة الإسكندرية (كشفَ فيها افتراءات المستشرقين عن =

. . . .

= حرق المسلمين مكتبة الإسكندرية بعد الفتح الإسلامي)، حتى جاءته الدعوات من خارج الهند، فسافر إلى بلاد الشام وتركيا ومصر، ولقي بها رجال العلم والفكر والثقافة والسياسة، كما التقى مع السلطان عبد الحميد الثاني، ومنحه الوسام المجيدي من الطبقة الرابعة.
وبعد فترة من الزمن استقال الشيخ من جامعة عليكرة، وترأس إدارة العلوم والفنون بأعظمكرة، وتركها بعد خمس سنوات، وانضمّ إلى ندوة العلماء، وصار المدير الأول لدار العلوم التابعة لها. وكان له حظٌّ وافر في الأدب الفارسي والأردي، وكان ينظم الشعر بهما، ومن مؤلفاته أيضًا: حياة جلال الدين الرومي، والغزالي، وعلم الكلام، والكلام، ومقالات شبلي، ورسائل شبلي، وشعر العجم، والانتقاد على مقالات جرجي زيدان في التمدُّن الإسلامي، وغيرها من الكتب والمؤلفات، وتوفي سنة ١٣٣٣هـ بأعظمكرة بعد حياة حافلة مليئة بالخدمات والإنجازات، رحمه الله تعالى ورضي عنه، وجعل الفردوس مثواه. يُنظر: الحسني، الإعلام بمن في الهند من الأعلام، مصدر سابق، ج٨، ص١٢٤١ - ١٢٤٢هـ، والندوي، محمد أكرم، شبلي النعماني علامة الهند الأديب والمؤرخ الناقد الأريب (دمشق، دار القلم، ط١، ١٤٢٢هـ) ص١٧ - ٦٨، والزركلي، خير الدين بن محمود، الأعلام (د.م، دار العلم للملايين، ط١٥، ٢٠٠٢م) ج٣، ص١٥٥.

تطوير النظام التعليمي الإسلامي:

إن النظام التعليمي القائم في مؤسَّستكم العلمية هذه (أي دار العلوم ديوبند) شاهد عيانٍ صادق على أن العلماء لا يقفون حجر عثرة في طريق التقدُّم المطلوب والتطوُّر المنشود في كلِّ عصر ومِصرٍ، ولا يتَّخذون القضايا الهامّة التي يعود نفعها وخيرها على الأمة وراءَهم ظِهرِيًّا، ولهذا نجد أن النظام التعليمي الموجود في دار العلوم ديوبند ـ مثلاً ـ قد حدث فيه تبديلٌ، حسب مقتضيات العصر، وقد حصل فيه الحذف والإضافة في كلِّ دَور، غير أن هذا التغيير والتطوير لم يتمّا ـ إلى الحدِّ الملحوظ المطلوب ـ في المائة سنة الأخيرة، مع أن التغيُّرات السياسية والاجتماعية والنفسية الحاصلة فيها تقتضي وتستحقُّ تغيُّرات كبيرة وكثيرة بهذا الصَّدد.

قيادة الدين تتطلب مواهب متعددة:

إخوتي الأعزاء! هذا العصر السَّريعُ التَّغيُّرِ يتطلَّب من قادة الدِّين وحاملي لوائه والمتحدثين عنه مُؤهلاتٍ متنوّعةً وصلاحياتٍ متعدِّدةً. فإذا نظرتم إلى أنفسكم بأنكم من جنود الإسلام البواسل، وتُعِدّون أنفسَكم لخوض معركة الحياة باسم الإسلام، فلا بدَّ أن تكونوا على دراية كافية بأن أخطر مسألة عسكرية وأعظم مُهمّة قتاليّة لأيّ جيش في الدُّنيا أن يكونوا على دراية تامّة

بالطُّرق الحربيّة الجديدة والقديمة معًا، وأن يكونوا مُتسلِّحين بالأسلحة القديمة والجديدة معًا.

إن الجندي لا ينظر إلى السلاح باعتبار الجِدّة والقِدَم؛ لأن الأمر المهمَّ بالنسبة له أن يعرف أي سلاح أقوى للقتال، وأي عدة أمضى لحتف العدو، وأي طريقة أنسب في المعركة، فلا يتعصَّب المقاتل لنوع معين من الأسلحة؛ لأنه ليستْ له علاقة مع نوع خاصٍّ منها، ولا مع طريقة خاصّة منها، بل يجب عليه أن يتدرَّب على جميع الأسلحة التي يحتاج إليها في ميدان القتال، وهذا ما قاله الشاعر العربي قديمًا:

كلُّ امرئٍ يَسعى إلى يومِ الهياجِ بما استَعَدّا

الحاجة إلى المعرفة العميقة والناقدة عن المذاهب الفكرية المعاصرة:

أحبائي! ينبغي لكم أن تتعرَّفوا على الحركات الفكرية المعاصرة وفِتن العصر الجديدة باعتباركم طلابَ العلم ووَرثةَ النبوّة، وعليكم أن تُدركوا جيّدًا ـ بهذا الصَّدد ـ بأن المعرفة السطحيّة عن هذه الأفكار والفتن أكثر ضررًا من الجهل بها، وإن ما ندرُسه الآن في مدارسنا عن بعض المذاهب الفكرية المعاصرة ـ كموضة للعصر ـ لا تُسمن ولا تُغني من جوع؛ حيث إن مثل

هذه الدراسة لا تُعطينا صورةً واضحة عن تلك المذاهب الفكرية والمدارس الفلسفية؛ لذا كانت الحاجة ماسّة إلى الدراسة الواسعة والاطّلاع العميق لهذه المذاهب والمدارس تحت إشراف أساتذة مُتخصِّصين في المجال وعلماء عارفين بأغوارها؛ لبيان فضل الإسلام عليها وسَبقه لها. وما من شكٍّ أنه عمل شاقٌّ وصعبٌ، غير أنه أمر ضروريٌّ، فلا بدَّ أن يكون ذلك بصورة أكاديمية مُنظّمة؛ لأن الدراسة غيرَ المنظَّمةِ لهذه المدارس الفكرية تَضُرُّ أكثر مما تَنفع، وتُفسد أكثر مما تَبني.

أهميّة الدراسات المعاصرة وخطورتها:

إن الاهتمام بالعلوم العصريّة الجديدة ازدادَ مُؤخَّرًا في مدارسنا، غير أن هذا الاهتمامَ يبعثُ على الرِّثاء؛ لأنه لا يحمل العُمقَ الفكري ولا الغاية الواضحة، وأنا من أكبر الدُّعاة إلى تدريس العلوم العصريّة، غير أني مُضطرٌّ إلى القول ـ مع الأسف الشديد ـ بأنه ليس أمرًا سطحيًّا وفوضويًّا إلى هذا المستوى الذي نراه في مؤسساتنا التعليمية ومدارسنا الإسلامية.

وهذا الأمر يتطلَّب ـ قبل كلِّ شيء ـ الانتخابَ الموفّق المناسب للموادّ والقضايا، والتنظيم الصحيح الملائم للكتب والمناهج، تحت الرعاية الكاملة والإشراف الكلِّي واليقظة التامّة من قبل الخبراء والمختصّين في المجال.

وهو يتطلب كذلك الاستعداد النفسيَّ المسبَق؛ لكي ينتفع الطلبة بدراسته، ويستفيدوا بقراءته، ويتمكّنوا من استيعابه بصورة صحيحة؛ ليتمكَّنوا من توظيفه بطريقة سليمة.

فإذا حصل الإعداد الذِّهني المسبَق لهذا الهدف، وتمّتِ الدّراسة المنهجية المنظَّمة لهذه المدارس والفلسفات تحت الإشراف الصحيح من قبل الأساتذة المتخصِّصين، فلا شكَّ أن طلبتنا يستفيدون منها الاستفادة المرجوّة، ويستطيعون أن يخدموا بها الإسلام والأمّة، فتكون تلك العلوم صورةً مثاليّةً حيّةً لقوله تعالى: ﴿مِنۢ بَيۡنِ فَرۡثٖ وَدَمٖ لَّبَنًا خَالِصٗا سَآئِغٗا لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ [النحل: ٦٦].

أما إذا لم يتمَّ الإعدادُ النّفسيُّ والمنهجيُّ بالطريقة المذكورة، ولم يتمكَّنِ الأساس الدِّينيُّ في قلوب دارسي هذه العلوم، فإنها ستُؤدي ـ لا سمحَ الله ـ إلى نتائج عكسيّة، فتكون بذلك صورةً حيّةً لقول الشاعر الفارسي: إنّ الدَّواء الذي تناولَه المريضُ للشِّفاء كان سببًا لمرضٍ جديد!

الاهتمام بلغة الشعب وأدبه:

إنني هنا ألفِتُ أنظاركم إلى حقيقتين مُهمّتَين، الأولى منهما: أن خدمة الدِّين ونشر تعاليمه بين شعب معين لا يُمكن أن تكون ذات أثر بالغ دون أن يتمكَّن العاملون لهذا الدِّين من لغتهم،

ودون أن يملكوا الذَّوقَ الأدبيَّ السليم والقدرة العالية على التأليف والتصنيف والخطابة والبيان بها.

وحين يكون التعبير الشَّفوي والبيانُ الكتابيُّ صحيحَينِ فإن تأثير الدِّين يزيد في قلوب السامعين، وتلك حقيقة واقعيّة نلتمسُها في سِيَرِ الأنبياء عليهم السلام، حيث أُعطُوا البيانَ الرّاقي في ألسنة أقوامهم؛ ليتمكَّنوا من التأثير في قلوبهم والنُّفوذِ إلى عقولهم، قال الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ٢]، وقال تعالى: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤].

ويعرف العلماء أن «لسان القوم» لا يُقصَد به المعرفة السَّطحيّة بتلك اللُّغة، بحيث يَفهم النبيُّ خطابَ قومه، ويُفهِمُهم خطابَه. لا، هذا القدر من المعرفة اللُّغويّة لا يكفي أبدًا، بل يكون النبيُّ المرسَلُ إلى قومه في أعلى الرُّتَبِ اللُّغوية بمقياس قومه، ويَفوقهم جميعًا في ذلك، ويدلُّ عليه قوله تعالى بعدها مباشرة: (لِيُبَيِّنَ لَهُم)، وقد قال ﷺ عن نفسه: «أنا أفصَحُ العَربِ»[1].

---

(١) لم يثبت هذا القول عن النبي ﷺ بسند صحيح مع شهرته، قال العجلوني في كشف الخفاء: «أورده أصحاب الغرائب، ولا يُعلم مَن أخرجه، ولا إسناده»، يُنظر: العجلوني، إسماعيل بن محمد بن=

إنكم تعرفون جيّدًا أولئكَ العلماءَ الذين قاموا بأعمال إصلاحيّة واسعة وجهودٍ تجديديّة عظيمة، وتركوا بصماتٍ واضحةً وتأثيراتٍ كبيرةً في حياة المسلمين، إن جُلَّهم كانوا يملكون فصاحة اللسان وبلاغة البيان.

إنّ مواعظَ الشيخ عبد القادر الجيلانيّ تُعَدُّ نموذجًا راقيًا جدًّا للخطاب الدَّعوي إلى يومنا هذا، ومكتوبات الإمام الرَّباني الشيخ أحمد بن عبد الواحد السرهندي كانتْ أكثر تأثيرًا وأقوى بيانًا وأعظم أثرًا من أدبيات أبي الفضل[1] . . . .

= عبد الهادي الجراحي، كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس، تحقيق: عبد الحميد هنداوي (بيروت، المكتبة العصرية، ط١، ١٤٢٠هـ) ج١، ص٢٢٨، ولكن معناه صحيح، فقد كان ﷺ من أفصح الناس وأبينهم وأعربهم، بشهادة العلماء والمؤرّخين، ولهذا عقّب الإمام ملا علي القاري على صيغة أخرى لهذا القول ـ وهي: «أَنَا أَفْصَحُ مَنْ نَطَقَ بِالضَّادِ» ـ قائلًا: «معناه صحيح، ولكنْ لا أصل له في مبناه»، يُنظر: القاري، أبو الحسن نور الدين علي بن محمد، الأسرار المرفوعة في الأخبار الموضوعة، تحقيق: محمد الصباغ (بيروت، دار الأمانة، د.ط، د.ت) ص١١٦.

(١) هو الوزير أبو الفضل بن المبارك الناكوري، أحد الأدباء المبرزين في الهند، ولد عام ٩٥٨هـ، وتعلم العلوم العربية والإنشاء والخط والفلسفة والمنطق على يد أبيه الشيخ المبارك وأخيه أبي الفيض، =

والفيضي(١).

= وبرع فيها، وصار مضرب المثل في الأدبيات، حتى اشتهر أمره وعلا صيته، فدعاه الملك جلال الدين أكبر بن همايون المغولي، وقرّبه إلى نفسه، حتى جعله على رأس الوزارة، وصفَه المؤرخ عبد القادر البدايوني بالإلحاد والزندقة، له مؤلفات كثيرة: منها: آئين أكبري (قانون الملك أكبر، ويعدّ هذا الكتاب موسوعة في قوانين البلاد والأنظمة المدنية والثقافة الهندية)، وأكبر نامة (تاريخ الملك أكبر في تاريخ ملوك الهند من أولاد تيمور لانغ)، ومجموعة الرسائل والمكاتيب وغيرها، قتله الملك نرسنكة ديو بأمر الأمير جهانكير ابن الملك أكبر عام ١١١١هـ. يُنظر: الحسني، الإعلام بمن في الهند من الأعلام، مصدر سابق، ج٥، ص٤٧١ ـ ٤٧٢.

(١) هو الشاعر الأديب أبو الفيض بن المبارك الناكوري، أحد أشهر الشعراء في الهند، ولد ٩٥٤هـ بمدينة آكرة، وأخذ العلوم عن والده الشيخ المبارك والشيخ حسين المروزي، ثم أقبل على قرض الشعر وقراءة الفلسفة، واقترب من الملك أكبر المغولي، ومدحه بقصائد حية، وقد اشتهر بالإلحاد والزندقة، له مؤلفات كثيرة، منها: تَباشير الصبح (ديوان شعر)، وسواطع الإلهام في تفسير القرآن (ألفه بالأحرف غير المنقوطة في اللغة العربية) وغيرها من الكتب، يُتَّهم هو وأخوه أبو الفضل بإيعاز الملك جلال الدين أكبر لاختراع الدين الإلهي الذي حاول فيه دمج الإسلام والهندوسية (!)، وتُوفي عام ١٠٠٤هـ. يُنظر: الحسني، الإعلام بمن في الهند من الأعلام، مصدر سابق، ج٥، ص٤٧٢ ـ ٤٧٥، والقنوجي، أبجد العلوم، مصدر سابق، ص٦٩٨.

وقد وصل بيان الإمام الدهلوي في كتابه «حجّة الله البالغة» إلى رتبةٍ يُمكن القول معه بأنه لم يستطع أحدٌ أن يضع نموذجًا أدبيًّا أفضل منه بعد مقدمة ابن خلدون طوال هذه القرون! وكان يملك أيضًا أسلوبًا فريدًا ومنهجًا خاصًّا في اللغة الفارسية، ويمكن أن يُعَدَّ كتابُه (إزالة الخفاء في خلافة الخلفاء) قطعة أدبية رائعة في اللغة الفارسية! وذلك في العصر الذي كانتْ فيه اللغتان العربية والفارسية لغة العلم والتأليف لدى المسلمين في هذه البلاد.

ولما راجَت اللغة الأردية في الأوساط الاجتماعية الهندية بدأ أولاد الشيخ الدهلوي ـ أنفسهم ـ يُؤلِّفون بها، وتُعَدّ كتابات الشّاه عبد القادر بن وليّ الله الدّهلوي نموذجًا أدبيًّا راقيًا في الأدبيات الأردية الكلاسيكية.

وكان العلامة محمد قاسم النانوتوي يكتب المباحثَ العلميّةَ العميقةَ بلغة أردية سهلة للغاية، بحيث لا يشعر القارئ معها بصعوبة الموضوع، ولا يحسُّ بغموض القضايا المعالَجة، وذلك لسلاسة اللغة وطلاقة البيان عند الشيخ.

وكان العلماء هم الذين قادوا اللغة الأردية وآدابَها، ولا زالوا يقودونَها، فيُمكن أن نعدّ الخواجة ألطاف حسين حالي[1]،

---

(١) هو الشاعر الأديب ألطاف حسين بن إيزد بخش الأنصاري الملقَّب بحالي، أحد كبار شعراء اللغة الأردية، وُلد ببلدة فاني فتْ=

والشيخ نذير أحمد الدهلوي(١)، والشيخ شبلي النعماني من

= عام ١٢٥٣هـ، حفظ القرآن الكريم وهو صغير، ثم درس العلوم العربية والمنطق على يد الشيخ إبراهيم حسين الأنصاري، كما درس على الشيخ نوازش علي الدهلوي في دهلي، والشيخ المحدث عبد الرحمن الأنصاري في فاني فت، ثم سار إلى جهانكير آباد، وتقرب إلى النواب مصطفى خان الدهلوي، وصحبه مدة، وتتلمذ على الشاعر الكبير أسد الله خان غالب في صناعة الشعر، وعمل في التدريس مدة، ثم رتّب له الوزير آسمان جان الحيدرآبادي راتبًا شهريًا، فأقبل على التأليف، ونظم الشعر في بيته، ومساعدة حركة التعليم التي تزعمها السيد أحمد خان، له مؤلفات كثيرة، منها: حياة سعدي (في سيرة الشاعر الفارسي السعدي)، وترياق السموم في الدفاع عن الإسلام والردّ على النصارى، ومن أشهر تصانيفه: المدّ والجزر في الإسلام المعروف بمسدس حالي (ديوان شعر)، حيث ولع الناس به، واستشهد بها الناس في النوادي والمجالس، وحفظ الكبار والصغار كثيرًا من قصائده، وهي تعد ملحمة إسلامية طويلة، ويعدّ حالي صاحب أسلوب خاص في الشعر الأردي، وله باع طويل في نقد الشعر والتمييز بين جيده من سقيمه، توفي سنة ١٣٣٣هـ ببلدته فاني فت، رحمه الله ورضي عنه. يُنظر: الحسني، الإعلام بمن في الهند من الأعلام، مصدر سابق، ج٨، ص١١٩٢.

(١) هو الأديب الكبير نذير أحمد بن سعادتْ علي بن نجابتْ علي الدهلوي، أحد أدباء الهند المشهورين، وُلد ١٢٤٧هـ ببلدة بِجنور، =

أساطين اللغة الأردية، وقد ترك هؤلاء أمثلة أدبيّة علميّة تدلُّ على ذوقهم المرهَف وطبعهم السليم وبيانهم القويم.

وتُعدّ كتاباتُ الشَّيخ حبيب الرحمن خان الشرواني[(١)] والسيد

= وقرأ مختصرات العلوم على الشيخ نصر الله الخويشكي، ثم سافر إلى دهلي ودرس على أيدي أساتذة المدرسة الكلية بها، وولي نظارة المدارس بمدينة كانفور، ثم استقدمه وزير الدولة الآصفية بالدكن نواب مختار الملك وولاه على بعض الأقطاع.
كان بارعًا في العلوم العربية، كما كان ماهرًا في الأدبيات الأردية وكان خطيبًا مفلقًا، ألّف كتبًا كثيرة، منها: مبادئ الحكمة، وما يُغنيك من الصرف، والفرائض، والحقوق، وله روايات أدبية تجمع بين الدين والأخلاق والعلم، مثل مرآة العروس، وتوبة النصوح، وبنات النعش، وابن الوقت، وأيامي وغيرها، توفي سنة ١٣٣٠هـ، رحمه الله تعالى، ورضي عنه. يُنظر: الحسني، الإعلام بمن في الهند من الأعلام، مصدر سابق، ج٨، ص١٣٨٩ - ١٣٩١.

(١) هو الشيخ الوزير حبيب الرحمن بن محمد تقي الشرواني المعروف بنواب صدر يار جنك، أحد مشاهير أدباء الهند، وُلد عام ١٢٨٣هـ ببلدة بكهين فور من أعمال عليكرة، نشأ في بيت الثراء والغنى، حيث كان والده ثريًا، قرأ على الشيخ عبد الغني القائم غنجي، والشيخ المفتي لطف الله الكوئلي وغيرهما، وأخذ الحديث النبوي الشريف عن المحدث الكبير حسين بن محسن الأنصاري اليماني، وأجازه، وبايع العلامة فضل الرحمن الغنج مرادآبادي. =

عبد الحي اللكهنوي(١) في كتابه غُلِ رعْنا «الوردة الرشيقة»

= استوزره النواب مير عثمان علي خان، صاحب الدكن، فصار وزير الشؤون الإسلامية، وقد شارك في تأسيس الجامعة العثمانية التي درّست العلوم والفنون باللغة الأردية لأول مرة، انضمّ إلى ندوة العلماء، ورأس مجلة الندوة التي نالتْ إعجاب أهل العلم والأدب، وكان رئيسا فخريًا لقسم الدراسات الإسلامية بجامعة عليكرة الإسلامية، والرئيس الدائم لدار المصنفين بأعظم كرة.
كان صاحب أسلوب بديع في الأدب الأردي، كما كان شاعرًا مطبوعًا، وخطيبًا مصقعًا، وناقدًا بارعًا في الأدب الفارسي والأردي وشعرهما، وواسع الاطلاع على التاريخ، وقد ألّف كتبًا كثيرة، منها: علماءِ سلف (علماء السلف)، وسيرة الصِّدِّيق، ونابينا علماء (العلماء المكفوفون) وأستاذ العلماء (سيرة شيخه العلامة لطف الله الكوئلي) والرد على الخطيب البغدادي في انتقاده للإمام أبي حنيفة، وغيرها، وله شعر بالفارسية والأردية، تُوفي سنة ١٣٧٠هـ بمدينة عليكرة، ودُفن بقرية حبيب غنج، رحمه الله ورضي عنه، وجعله في عِلِّيّين. يُنظر: الندوي، أبو الحسن علي، تتمة الإعلام بمن في الهند من الأعلام، مصدر سابق، ج٨، ص١٢٠٨ ـ ١٢٠٩.

(١) هو المؤرخ الأديب الطبيب الشريف عبد الحي بن فخر الدين بن عبد العلي الحسني، من أعظم مؤرخي الهند، ووالد سماحة الشيخ أبي الحسن علي الحسني الندوي، وُلد عام ١٢٨٦هـ ببلدة رايبريلي من أعمال مدينة لكهنو، نشأ في بيت دين ونسب وخلُق وعلم، قرأ العلوم =

. . . .

= العربية والتفسير والفقه والأصول والمنطق على الشيخ محمد نعيم الفرنغي محلي، والشيخ فضل الله وغيرهما ببلدته، ثم سافر إلى بهوفال، ودرس على يد الشيخ القاضي عبد الحق، والشريف أحمد الديوبندي، وأخذ الحديث النبوي الشريف عن العلامة المحدث حسين بن محسن الأنصاري اليماني، كما درس الطب على الطبيب الشهير عبد العلي، ثم سافر إلى دهلي وفاني فت وسهارنفور وسرهند وديوبند وغيرها من المدن للقاء العلماء والمشايخ والأخذ عنهم، منهم: العلامة الفقيه رشيد الغنغوهي، والعلامة المحدث نذير حسين الدهلوي والعلامة عبد الرحمن الفاني فتي وغيرهم، ثم بايعَ الشيخ الكبير فضل الرحمن الغنج مرادآبادي.

انضمّ إلى ندوة العلماء، ثم عيِّن مديرًا لها عام ١٣٣٣هـ، فقام بإدارتها خير قيام مع احترافه الطِّب، وكان ضليعًا في العلوم والفنون، وراسخًا في الآداب العربية والفارسية والأردية، وواسع الاطلاع على أحوال الهند وتاريخها وآدابها، وقد ألّف كتبًا صارتْ حديث الأندية والمجالس والمحافل والجامعات، من أهمها: نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر المعروف بالإعلام بمن الهند من الأعلام، وهو موسوعة تاريخية كبرى لتراجم علماء الهند منذ الفتح الإسلامي إلى عهد المؤلف، والثقافة الإسلامية في الهند، والهند في العهد الإسلامي، وغل راعْنا (الوردة الرشيقة)، ودهلي اور اسكي اطراف (عاصمة دهلي والمدن المجاورة لها) وغيرها من الكتب، وتُوفي =

وتاريخ ياد أيام «تاريخ الذكريات» نموذجًا نثريًا رائعًا يجمع بين الثقافة التاريخية والبراعة اللُّغوية.

وقد أثقلَ السيِّدُ سليمان النَّدوي[1] كاهلَ اللغة الأردية بتحقيقاته العلمية وكتاباته الأدبية، ولا زالتْ كتاباته الأردية تُعَدُّ نموذجًا راقيًا ومعيارًا عاليًا لدى نقّاد الأدب الأردي، وقد منح الشيخ أبو الكلام آزاد[2] اللغةَ الأردية قوّةً فريدة وأسلوبًا فذًّا،

= سنة ١٣٤١هـ بعد حياة حافلة مليئة بالإنجازات العلمية، رحمه الله، ورضي عنه، وجعل الفردوس مثواه. يُنظر: السيرة المختصرة التي كتبها نجله الشيخ الطبيب عبد العلي الحسني في مطلع كتابه (الإعلام بمن في الهند من الأعلام)، ج١، ص٢٣ ـ ٢٨، والحسيني، الدكتور قدرة الله، العلامة السيد عبد الحي الحسني؛ عصره ـ حياته ـ مؤلفاته (جدة، دار الشروق، ط١، ١٤٠٣هـ).

(١) تأتي ترجمته فيما بعد.

(٢) هو الأديب السياسي أبو الكلام محيي الدين آزاد بن خير الدين بن محمد هادي المعروف بأبي الكلام آزاد، أحد نوابغ المسلمين في الهند، وُلد عام ١٣٠٦هـ الموافق ١٨٨٨م بمكة المكرمة، وبدأ العلم عن طريق الأساتذة الخصوصيين الذين كان والده يعيّنهم له، كما درس على يد بعض علماء كَلْكَتّه ثم بُومباي، فتعلَّم العلوم العربية وتمكَّن منها، كما برع في اللغة الإنجليزية بنفسه، وأصدر مجلة لسان الصدق وعمره ١٦عامًا، ثم تولى رئاسة مجلة الندوة، ثم أصدر مجلته الشهيرة الهلال الأسبوعية عام ١٣٣٠هـ، وقد أقبل القراء عليها =

. . . .

إقبالًا كبيرًا، وتأثَّر بها كثير من الناس لمهارته في الأسلوب وبراعته في الإنشاء، ثم منعتْه الحكومة الإنجليزية من العمل الصحفي، ووضعتْه تحت الإقامة الجبرية بمدينة رانجي في ولاية بِهار، فاشتغل بالتأليف والتصنيف والعبادة والذكر.

ولما قامتْ حركة الخلافة في الهند ضدَّ سياسة الحلفاء ـ على رأسها بريطانيا ـ مع الخلافة العثمانية، واضطربتْ الهند بطولها وعرضها كردة فعل لها، وثار المسلمون الهنود ضد قرار الحلفاء بإلغاء الخلافة، خاض الشيخ أبو الكلام آزاد هذه المعركة، وجال أرجاء الهند بخطاباته الساحرة، وكتب مقالات بليغة، وأصدر مجلة الرسالة، ورأس مؤتمر الخلافة في مدينة آكرة، فأسرتْه الحكومة الإنجليزية، وألقى خطبة نارية في المحكمة تحدث عنها الناس إلى أمد، واضطرت الحكومة إلى إطلاق سراحه، وحين تأسَّستْ حركة العصبة الإسلامية التي نادتْ بتقسيم الهند على أساس الدين، مال أكثر المسلمين لها، وانضمُّوا إليها، ولكن أبا الكلام بقي صامدًا في موقفه، وبقي عضوًا في المؤتمر الوطني الهندي المناوئ للتقسيم، فتحمَّل بسبب ذلك أذى كثيرًا وانتقادات لاذعة من أبناء أمته الذين أيد جلُّهم فكرة باكستان المستقلة، واختير رئيسًا للمؤتمر الوطني الهندي عام ١٣٤٢هـ، ولما تألَّفت الحكومة المركزية الهندية بمشاركة كل من العصبة الإسلامية والمؤتمر الوطني الهندي صار أبو الكلام وزيرًا للمعارف فيها، وأخيرًا تحرَّرتْ شبه القارة الهندية من=

. . . .

= الاستعمار البريطاني على أساس التقسيم الديني لباكستان والهند، وحدثتْ اضطرابات كبيرة وحروب طاحنة ومذابح طائفية فاضحة ـ بين المسلمين والهندوس ـ تشيب من هولها الولدان، قصمتْ هذه الحوادث ظهر أبي الكلام، فلزم بيته، وابتعد عن المجامع الشعبية مع بقائه على رأس وزارة المعارف، حتى وافتْه المنية سنة ١٣٧٧هـ الموافق ١٩٥٧م، وقد صلى عليه خلق كثير، ودُفن عند رحبة الجامع الكبير بدهلي.

له مؤلفات علمية وأدبية قيّمة، منها: تاريخ المعتزلة، وسيرة ولي الله الدهلوي، وترجمان القرآن (من البداية إلى سورة المؤمنون)، وغبار خاطر، كاروان خاطر، ومسألة الخلافة وجزيرة العرب وغيرها، وله مقالات كثيرة منشورة، مستقلة ومجموعة، ﷺ ورضي عنه، وجعل الفردوس مثواه. يُنظر: الندوي، أبو الحسن، تتمة الإعلام بمن في الهند من الأعلام، مصدر سابق، ج٨، ص١١٦٩ ـ ١١٧٢، والمقدمة التي كتبها مصباح الله عبد الباقي لكتابه مسألة الخلافة وجزيرة العرب (القاهرة، دار الكتاب المصري، د.ط، ١٤٣٥هـ) ص١٥ ـ ٥٦، وللاستزادة عنه يراجع رسالة الدكتوراه لوزير الأوقاف المصري الأسبق عبد المنعم النمر، مولانا أبو الكلام آزاد؛ حياته وجهاده الديني والوطني في سبيل تحرير الهند (قسم التاريخ التابع لكلية اللغة العربية بجامعة الأزهر عام ١٩٧٢م، وهي متوفّرة في الشبكة العنكبوتية)، وقيصر، أبو الكلام آزاد وتشكيل الأمة الهندية (بيروت، الفكر العربي، ط١، ٢٠١٦م).

وسحرتْ مجلتُه (الهلال) بسحرها الحلال أعينَ أهل الهند إلى أمد طويل، وأسلوبه في الكتابة بقي حتى الآن أسلوبًا متميِّزًا في الأدب الأردي.

وكانتْ نتيجة هذه الصحوة الأدبية والعلمية من العلماء وأهل العلم أنْ لم يجرؤ أحدٌ من أهل الزَّيغ والضَّلال أن يرميهم بالجهل بأحوال البلاد ومجريات الأحداث، ولم يستطع أحدٌ أن يمنعهم عن أداء مهمّة القيادة والريادة؛ لأنهم لم يجعلوا من هذه البلاد جزيرة مغلقة، ولم يَغُضُّوا الطَّرفَ عن الأحداث التاريخية الجارية، كما حصل ذلك ـ مع الأسف الشديد ـ في بعض البلاد الإسلامية، فكان هؤلاء العلماء يوظّفون اللغة الرائجة في الأوساط العلمية والأدبية الراقية في الدعوة إلى الإسلام وبيان مقاصده.

فإذا أردنا أن نَقتفي أثرَهم في الدَّعوة والإرشاد والموعظة والجهاد، وأن نقوم بأعمال مؤثِّرة في خدمة الدِّين وتبليغ الدعوة وبيان العقيدة الصحيحة إلى الخاصة والعامة، فيجب علينا أن نتمكَّن من لغة قومنا ولسان عصرنا، وأن نُؤلِّف الكتبَ، ونُخاطب القوم بأسلوب مُؤثِّر جذّاب، وأن نَصل بمستوانا الأدبي والعلمي إلى تلك المكانة العالية التي ينظر إليها الناس بعين الإعجاب والإكبار، ولا يخالف ذلك ـ أبدًا ـ وقار العلماء وسلوك السابقين؛ لأنه عينُ العين وخلاصة الحكمة.

أهميّة التمكُّن من اللغة العربية:

والحقيقة الثانية التي أُريد أن أنبّهكم عليها أن اللغة العربية ـ مع كونها لغة القرآن الكريم والسُّنة المشرفة ـ لغة عالمية حيّة في هذا العصر، وهي لا تزال على حيويّتها السابقة وفُتوّتِها الماضية في بلاد العرب وغيرها، وقد صارتْ لغة القوانين والدساتير والعلم والفلسفة والأدب والصحافة والبحث والدراسة.

وقد انتشر في مدارسنا العربية فهمٌ خاطئ بأن اللغة العربية الفصيحة غير رائجة في العالم العربي، وأن هناك لغة عربية دارجة مختلفة عن العربية الفصيحة الأصيلة، وأن دور اللغة العربية انحصر في كتب التفسير والحديث والفقه[١]، وأن كثيرًا من ألفاظ اللغة الإنجليزية والفرنسية والمعرَّبة والدَّخيلة قد دخلتْ في هذه اللغة (العربية) الجديدة(!). وهذا الفَهم الخاطئ أبعدَ الكثيرين من علمائنا وشبابنا من اللغة العربية، واستوحشوها، ويئسوا من فائدة تعلُّمها(!).

فلو وثقتم فيّ لقلتُ: إن هذه اللغة التي تتحدَّثون عنها ليس لها وجود في دُنيا الناس وأرضِ الواقع، وأن اللغة العربية التي يستعملها أهل العلم والقلم في الشرق الأوسط قريبة جدًّا جدًّا

---

(١) ولا ننسى أن هذا الحديث أُلقِي عام ١٩٥٤هـ، وكانتْ وسائل التواصل شحيحة بين العرب والعجم، لا سيما طبقة الشباب.

من لغة القرآن الكريم والحديث النبويّ الشريف وعصور الإسلام الأولى، بل حتى العصر الجاهلي، والألفاظ الجديدة التي احتاجَ إليها إخواننا العرب لسدِّ الحاجات الجديدة استخرجها علماء العرب من ذخائر اللغة العربية القديمة، والعمل الكبير الذي قاموا به في هذا المجال جدير بالشكر والتقدير، والألفاظ غير العربية التي تسربتْ إلى اللغة العربية بعد احتلال نابليون مصر تُستبعَد يومًا بعد يوم، وتأتي في مكانها ألفاظٌ عربية خالصة.

وقد ارتفع مستوى اللغة والأدب في العالم العربي عن طريق الصحافة ووسائل الإعلام المختلفة إلى حدٍّ كبير، وظهرتْ خزائنُها المَخفية أمام أعين العامة، بحيث صار من الضروري جدًّا الاستعداد المُسبَق والإعداد السابق للعمل في مجال اللغة العربية في هذا العصر، والتعليم العربيُّ الموجود في مدارسنا الإسلامية لا يُمكن أن نقدّم به خدمةً علميّةً ودعويّة ذات تأثير ملموس في البلدان العربية.

فلو أردتُم نشر الدعوة الإسلامية والقيام بالخدمات العلمية في البلاد العربية، ورغبتم في تعريف العرب بالنشاط الدعوي والعلمي الموجود في هذه البلاد، وتوطيد العلاقة الروحية والقلبية واستمرارها مع إخواننا العرب، فلا مفرَّ من البراعة والمهارة في اللغة العربية، وهي تحتاج إلى فكر منظم وعمل دؤوب وجهد متواصل.

ولا ينبغي أن يبقى علماء شبه القارة الهندية بعيدين عن بلاد العرب وعلمائها ودُعاتها ورجال فكرها وتربيتها، لا سيما في الوقت الراهن؛ لأن الشرق الأوسط له تأثير كبير في السياسة الدولية المعاصرة، وهي تزداد يومًا بعد يوم، بالإضافة إلى الجزيرة العربية التي تُعَدّ قلب العالم الإسلامي ومركز الجهاز العصبي في نظر كلِّ مسلم.

فلو أردنا الصِّلة الدائمة والعلاقة القائمة مع قيادة الدين والدعوة والتربية والعلم والفكر في بلاد العرب، فلا بدَّ من الاهتمام البالغ باللغة العربية وآدابها ومدارسها؛ لأن انقطاع الصِّلة بيننا وبين إخواننا العرب ليس لصالحنا، ولا لصالحهم، ولا لصالح الإسلام.

الحفاظ على العقيدة الإسلامية الصحيحة:

أعزائي! قد طوّلتُ في هذا الحديث، وهو كما قيل: «لقيتُ الحبيبَ بعد غَيبة، فانفتح خيط الحديث!»، وقبل أن أختمَ الكلام أودُّ أن ألفت نظركم إلى أمر أخير، وهو وإن كان أخيرًا غير أنه لا يقلُّ أهمية وخطورة عن غيره.

إن من أعظم مآثر علمائنا السابقين الحفاظ على العقيدة الصحيحة والإحساس الديني والغَيرة الإسلامية لدى المسلمين، ولم يستسلموا في سبيلها أمام مطالب الزمن وفِتَن العصر، فلم

يتعاملوا مع البدع والخرافات والتقاليد المُخالفة للدِّين بعين التَّجاهُل والإهمال والتَّساهُل، وكان فيهم رجال راسخون في الثبات والاستقامة والحرص على التعاليم الإسلامية الصحيحة، من أمثال الشيخ محمد إسماعيل الشهيد[1]، والعلامة رشيد أحمد الغنغوهي[2] رحمهما الله تعالى وغيرهم، الذين تحمَّلوا صنوف الأذى في هذا الدَّرب، ولكنهم لم يتساهلوا مع الأمور المخالفة للشَّرع الحنيف، ولم يُداهنوا البِدَع والخرافات.

ولما فاض طغيان العادات الجاهلية والعقائد الملحدة والمُنكرات المخالفة للشريعة، بعد تسلُّط الإنجليز على مقاليد الحكم في هذه البلاد، انتفض هؤلاء العلماء، ووقفوا صامدين أمامها، ودافعوا عن حياض الشريعة الغراء، ولم يُعطُوا البِدَع والخرافات والرسوم والتقاليد صكَّ الجواز والإباحة؛ لذا لم تتمكَّن من صيرورتها جزءًا من الحياة الإسلامية الهندية، وقد أدَّوا بذلك دورَ الحُراس المُخلِصين على تعاليم الشريعة الغراء، وتحمَّلوا في سبيله سخرية المجتمع وسِبابَ العامة وفتوى التكفير من تجار الدِّين وظُلم السلاطين صابرين محتسبين، ولم يُوَلُّوا ظهورهم في معركة الحفاظ على صفاء الدين وصحّة الإيمان وخلوص الإسلام.

---

(١) تأتي ترجمته فيما بعد.

(٢) تأتي ترجمته فيما بعد.

فكانتْ نتيجةُ تلك الجهود الدائبة حفظَ عقائد آلاف مؤلفة من المسلمين الهنود، وبقيت حياتهم صافية من البدع والخرافات والجاهلية إلى يوم الناس هذا، بفضل الله تعالى.

سقى الله تعالى قبورَ أولئك العلماء الكبار والدعاة الأبرار، وأنزل عليها شآبيب الرضوان، وجعلها بردًا وسلامًا، وجزاهم عن الأمة خيرًا، وفي مثلهم قال الشاعر الأردي: أمطرتِ السَّماء على قبورهم النَّدى والشَّذا، وأظلَّتِ الأشجار الخضراء عليها بالوقار والسَّكينة!

إننا ندرك اليوم فراستَهم الإيمانيّة وفهمَهم العميق للدين، وعِلمَهم الغزير عن تعاليمه، وخدماتهم الجليلة تجاهه، ونعترف بها، ونُعلنها صراحة أمام التاريخ، وأنهم رحلوا عن هذه الدنيا الفانية بعد أن أدَّوا المسؤولية الملقاة على عاتقهم على خير وتمام، ويحقُّ فيهم قول الله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣].

إن علماءنا السابقين قد حافظوا على حديقة الإيمان الغنّاء مقابل نفوسهم ونفائسهم، وسقَوا أشجارَها بدمائهم وعروقهم، وعلّمونا كيف نحافظ عليها، وكيف نُؤدِّيها إلى الأجيال اللاحقة، ولسان حالهم يتمثَّل بقول الشاعر الفارسي: لقد حفظنا أشجارَ الحياة بدماء صُدورنا، وكتبنا وَصيّة الحفظ على الواحة!

فيجب علينا أن نحافظ على هذه الأمانة الغالية، وأن نهتمَّ بها أكثر مما نهتمُّ بأنفسنا، وإنني لأعتبُ عليكم وأقول: إنكم قد نِلتم هذه النعمة مقابل التضحيات العظيمة التي قدَّمَها السابقون، وقد مَضَوا إلى ربّهم تاركين هذه الثَّروة لكم، وهذه نتائج مآثرهم وآثار خدماتهم تكاد تخرج من تحت أيديكم وسيطرتكم، ولكنكم لا تُبالون!

كم واحدًا منكم يعرف العلامة محمد إسماعيل الشّهيد؟ وكم طالبًا منكم قرأ كتبه تَقوية الإيمانِ والصّراط المستقيم؟ كم واحدًا منكم يُدرك حقيقة التوحيد والسُّنة؟ من منكم يستطيع أن يُبيِّنَ حقائق معتقدات العرب في الجاهلية؟ ولماذا شدَّد القرآن الكريم النكير على أهل الجاهلية وعدَّهم مشركين؟ وما هي مراتب التوحيد؟ وما مظاهر الشّرك؟ وما التعريف الشامل للبدعة؟ وما مضارُّها؟

يجب عليكم أن تُدركوا كلَّ هذه الأمور بحقائقها وتفاصيلها؛ ليكون إيمانكم بالله تعالى واعتقادكم بحقائق الدين أعلى رتبة وأكثر عمقًا من عامّة المسلمين.

فتنة هذا العصر:

وينبغي ألا تنسَوا أيضًا أن رياح العصر الجديد تأتي بفتن جديدة، ولا تزال الجاهلية الأولى تتلوَّن وتتشكَّل وتظهَرُ في صور جديدة يومًا بعد يوم، فلو كان السّابقون واجهوا فتن البِدَع

والخرافات فإنكم تواجهون اليوم فتنةَ الوثنيّةِ الصَّريحة والإلحاد العلنيّ، ولَئن كانت في السابق فتنةُ الوثنية الدّينية فقط فقد ظهرتِ الآن فتنةُ الدّيانة الإنسانيّة الموحَّدة، كما ظهرتْ أديان جديدة في صورة القوميّة والشُّيوعيّة والاشتراكيّة والرأسمالية اليوم.

وهذه الفتن تختبرُ عقيدتَنا التَّوحيديّة وإحساسَنا الدينيَّ وغيرتَنا الإيمانيّة وحرارتَنا الرُّوحيّة، فينتظر التاريخُ بفارغ الصَّبر أن يرى كيف يواجهُ خلفاءُ أولئِك الذين لم يتساهلوا مع البدع والرسومات والتقاليد فتنةَ الوثنية والإلحاد، وكيف يتعاملون مع الكفر البواح والشّرك الصَّريح؟ ولا بد أن نُثبت أمامَه صلاحيّتَنا للقيادة الدينية والريادة الاجتماعية في هذا العصر.

إننا نكيل الثناء على علمائنا السابقين لِغَيرتهم الدّينيّة وحماسهم الإيماني، ونعترف أمام الخالق ثم أمام خلقه بأنهم لم يُطأطِئُوا رؤوسَهم أمام الباطل، ولم يضعوا أسلحتَهم أمام العدو، فلننظر كيف يشهد لكم مَن يَخلفُكم في هذا المجال، وما هي البصماتُ التي تتركونها في هذا الطريق؟ وما هي البراهين التي تتركونها في صفحات التاريخ؟

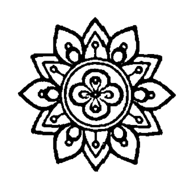
مسؤوليات العلماء وطلبة العلم في هذا العصر:

أعزائي! إن الزمن الذي اختاره الله تعالى لكم صعبٌ للغاية، والدَّور المطلوب منكم عظيم جدًّا، ولكن لا تيأسوا ولا تجزعوا

بعِظَم المسؤولية والأمانة؛ لأن الجائزة التي تنتظركم في مقابل هذا العمل أعظم بكثير من تلك المسؤوليّة والأمانة.

إن المقاتلين الشجعان لا يخافون صعوبة الحرب، ولا شدّةَ وقعِ الزمان، وأحسبكم من المجاهدين الشجعان، فعليكم أن تُثبتوا ذلك بأعمالكم ونشاطاتكم؛ ولهذا عليكم أن تستغلُّوا الفُرَص المتوافرة والإمكانات المتاحة للإعداد والاستعداد فيما بقي من الوقت، وقد منّ الله تعالى عليكم بشيوخ عظماء ومُربِّين كبار، وهم أصحاب بصيرة دينية ومَلَكة علميّة وحماسة روحيّة، ومنحكم ـ فوق ذلك ـ بيئةً دينيّة صالحة ومؤسَّسة علمية مرموقة، فالإدراكَ! الإدراكَ لخطورة الوقت وعِظم المسؤولية! والعملَ! العملَ للنَّفع العامّ! وأقول بقول الشاعر: **لا تكنْ من الغافلين، ولا تُضيِّعِ الوقتَ في اللَّهو واللَّعب؛ لأن الزَّمان زمانُ العِلم والعمَل والجِدّ والتَّحصيل.**





معركة الإلحاد ضدَّ الإسلام فأين حُرّاسُه؟

ألقى سماحة الشيخ الندوي هذه المحاضرة في يوليو عام ١٩٦٦م في القاعة السليمانيَّة لدار العلوم التابعة لندوة العلماء، وقد سُجِّلت المحاضرة وقتها، وفَرَّغها إلى الكلمات المكتوبة الأخ شفيق الراي بريلي.



الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، وبعد.

أعزائي الطلبة! أريد أن أتحدَّثَ إليكم اليوم بكل صراحة ووضوح، وأن أعرض عليكم أفكارًا مباشرةً دون الدُّخول في مقدمات؛ لأنه لا داعي للتكلُّف والتصنُّع في مجلس الأحبّة.

فهل رأيتُمُ الوالدَ يتكلَّفُ في الحديث مع ولده؟ والأخَ الكبير يتصنَّع في الحديث مع أخيه الصغير؟

لا طبعًا؛ لأن التكلُّفَ والتصنُّعَ لا يتناسبان مع طبيعة الأُبُوَّة والأُخُوَّة.

أيها الإخوة! من خلال خبراتي الطويلة وتجاربي الواسعة في مجال التعليم والتدريس أستطيع أن أُقسِّم الطَّلبةَ الذين يختارون طريق العلم الشرعي إلى قسمين:

القسم الأول: أولئك الطلبة الذين اختاروا هذا الطريق رغمًا عن أنفسهم، وسلكوه كُرهًا دون رغبتهم؛ لأنه ـ في الحقيقة ـ لم يكن اختيارَهم، وإنما كان ذلك اختيارَ آبائهم وأمهاتهم وأولياء أمورهم، فعلاقتهم بنا علاقةُ جَبرٍ واضطرار، وليستْ علاقة حبٍّ واختيار؛ حيث بَقَوا في المدارس الإسلامية؛ لِيمتثلُوا أوامرَ أولياء الأمور، دون أن يُدرِكوا أهميّةَ السَّير في طريق العلم، وأن يَفهَمُوا فائدةَ المسير في سبيله، وأن يجدوا له قِيمة ذاتيَّة يشكرون

عليها أولياءَهم، حيث اختاروا لهم هذا الطريقَ، وأنهم أسدَوا إليهم معروفًا بهذا الاختيار، وأن هذا هو الطريق الصحيح لقضاء سنوات خُضر من العمر؛ لِيَتسلَّحوا بسلاح العلم وتُرسِ الإيمان، وليتمكّنوا من العمل والعرفان.

لم يحصل هذا مع الأسف الشديد، بل ازدادَ نفورُ هؤلاء الطلبة من العلم الشرعي أكثر فأكثر يومًا بعد يوم.

ولا أراني بحاجة إلى سرد أسباب هذا الأمر وتفصيلاته، بقدر ما أحتاج إلى ذكر علاجه الناجع وبَلْسَمِه الشّافي.

نعم! إن هؤلاء الإخوةَ يَرَونَ أن بقاءهم في درب العلم الشرعي غيرُ مُثمِر، وأن سيرَهم في هذا الطريق غيرُ مُجدٍ، وأن أولياء أمورهم ووالديهم لم يكونوا على دِراية تامّةٍ عن أحوال هذه المدارس الإسلامية، وجدوى الدّراسة فيها.

فمَهما استمرُّوا في هذا الطريق، ومهما قضَوا فيه من الأوقات فلن يَجنُوا من ورائه أي فائدة مَرجُوّة، ولن يَقطِفُوا أيَّ ثمرة مَنشودة، دون تضييع الوقت، وتبديد المال، وفناء الجهد.

ولا أستبعد أن يوجد هذا النوع من الطلبة في المدراس العربية (= الإسلامية)؛ لأن هناك أمورًا كثيرة تحصل في الدُّنيا، ونحن لا نُحِبُّها، ولكنها تحدُثُ، فمن الممكن جدًّا ـ مثلاً ـ أن نجد بعض الإخوة الطيِّبين، الذين ترقَّوا في مراقي الصلاح والتزكية والعبادة،

وغدوا من العاملين للإسلام، ومع ذلك فإن شيئًا من الإحباط والتردُّد وعدم الاطمئنان يُصيب قلوبَهم عن جدوى العلم الشرعي وأهميته وفائدته، فلا تفارقهم تلك الأحاسيس ما لم يستمرُّوا في السير تحت إشراف المُربِّين البارعين.

فأريد أن أقول لهؤلاء الإخوة بكلِّ حبٍّ وإخلاص وصفاء قلبٍ: أيها الإخوة! كونوا أحرارًا في اختياراتكم، وتحدَّثوا بنوع من الشجاعة والجرأة مع آبائكم وأمهاتكم وأولياء أموركم مع الالتزام التامِّ بالأدب والاحترام، وبيِّنوا لهم بصراحة ووضوحٍ وُجهاتِ نظركم، وأن صدوركم غيرُ مُنشرحة للسير في هذا الطريق، وأن قلوبكم غير مطمئنة له، وأن الأوقات التي تقضونها في هذا الطريق تضيع دون فائدة، لهذا السبب ذاته، وأنكم لا تستطيعون أن تُكيِّفوا أنفسكم مع الأنظمة والقوانين والضوابط الموجودة في هذه المؤسسات، وأن بيئتَها العلمية لا تتناسب مع اهتماماتكم وتطلعاتكم؛ لذا لا تستفيدون منها حالاً، ولن تستفيدوا منها مآلاً، وأن أولياء أموركم يعيشون في حلم، حيث لا يُدركون أنهم يخدعون أنفسَهم، ويُدمّرون مستقبلَكم، ويظنُّون أنكم تجدُّون في الطلب، وتجتهدون في العلم، مع أن الواقع على خلافِه.

واعلموا ـ أيها الإخوة ـ أننا لا نجد عليكم أي غضاضة في أنفسنا، ولا ترون منا أيَّ فرق في معاملاتنا لكم في المستقبل،

ولن نقول عنكم شيئًا لا يَسرُّكم، ولن نتفوَّهَ بكلمة تُسيء إليكم، فلكم كامل الحرية والاختيار ـ من جهتنا نحن ـ في أن تعودوا إلى بيوتكم، وأن تُبيّنوا هذه القضية المصيريّة لآبائكم وأمهاتكم، وأنهم أرسلوكم إلى دار العلوم هذه أو غيرها من المدراس والمؤسسات الإسلامية دون أن تُحِسُّوا بالفائدة المرجوّة فيها، واطلبوا منهم بكل أدب واحترام أن يبحثوا لكم عن مكان آخر وطريق آخر يُناسبُكم وتطلُّعاتِكم واهتماماتِكم.

القسم الثاني من الطلبة: أولئك الذين انشرحتْ صدورهم لطلب العلم الشرعي، واطمأنَّتْ قلوبهم له، ويؤمنون بأن الاستفادة ـ كل الاستفادة ـ في دراسته والتعمق فيه والغوص في بحاره، وأن فرصة الالتحاق بالمدارس الإسلاميَّة تُعَدُّ محضَ توفيقٍ وفضل من الله تعالى، حيث هيَّأ لهم مثلَ هذه الأماكن لدراسة العلوم الشرعية، وإدراك مقاصدها، والتمكُّن من حقائقها وأسرارها، ويعتقدون أيضًا أن جميع الشرائط الأساسية والمتطلَّبات الضروريَّة لبلوغ مثل هذا الهدف السامي موجودة ومُتوفِّرة فيها.

فالذين يحملون مثلَ هذا الاعتقاد ـ إلى أيِّ حدٍّ كان ـ ويرون أنهم يستفيدون من الدراسة في دار العلوم هذه أو غيرها من المراكز التعليمية الدينية، وأنهم يَصِلون ـ بإذن الله تعالى وتوفيقه ـ

إلى درجة الكمال في العلوم، وأننا نستطيع أن نُقدِّم العلومَ الشرعيّة لهم بصورة جيّدة وبدرجة عالية من الإتقان والكمال، ونستطيع أن نُعينَهم في بلوغ هدفهم المنشود، فيتمكّنون من وقاية أنفسهم من العذاب الأليم، حيث قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ [التحريم: ٦]، وأن كلّ إنسان مسؤول عن إفادة نفسه أولاً، ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الإسراء: ١٥]، ثم إفادة أهله، وذويه، وأهل قراه، ومناطقه، بفضل الله تعالى وتوفيقه، ولو منحه الله تعالى بعد ذلك مزيدًا من التوفيق فسيَستفيد منه أهل بلده، وإنْ زاده من فضله فيستطيع أن يخدم الإنسانيَّة جمعاء.

فالطلبة الذين يطمحون إلى بلوغ مثل هذا الهدف السامي، ولا يرون أن دورهم يقتصر في معرفتهم لله تعالى وحدَهم، بل يعتقدون أن بإمكانهم أن يُؤدُّوا دورًا مُهمًّا في إرشاد غيرهم من حيارى الأفكار الهدّامة والعقائد الباطلة إلى الله تعالى، كما يرون أنفسهم نوَّابًا عن صاحب البنوة المحمدية ـ عليه ألف ألف صلاة وتحية ـ وأن هذه النيابة لَشرف عظيم، ولا يمحنها الله تعالى إلا مَنِ اصطفاهم من خلقه لحمل أمانة الدعوة وهداية الخلق، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤].

فالذي يحصل على مثل هذه الصلاحيّة والأهليَّة، من هذه المدارس الدينيّة، فلا يُستبعد أن يَسترشد به مائةُ أو ألف أو مائة ألف أو مليون أو ملايين من حيارى البشر، فتُكتب حسناتُهم في صحائف أعماله، كما هو شأن الداعية الكبير معين الدين الأجميري[1] والإمام أحمد بن عبد الواحد السرهندي المعروف بالمجدِّد للألف الثاني للهجرة[2]، والإمام عبد القادر الجيلاني، والإمام أبي حنيفة النعمان وغيرهم من الأئمة.

وليس خافيًا عليكم أن أكثر المسلمين في أقطار الأرض يسترشدون بأحد الأئمة الأربعة، فتَخيَّلوا تلك الجبال العظيمة من الحسنات الكثيرة والأجور الكبيرة التي تكون في ميزان حسنات هؤلاء الأئمة!

فلو أردنا أن نحسُب عدد المسلمين الذين استفادوا من فقه الإمام أبي حنيفة ـ مثلاً ـ من يوم استنبطه إلى يوم الناس هذا، فهل يكون ذلك بالإمكان! كم من الصلاة والصيام والزكاة والحج وغيرها من أعمال البر والخير قد كُتبتْ في صحيفة أعماله وغيره من الأئمة!

سنصلّى الظهر بعد قليل، وما من شكّ أن ثوابها أيضًا

---

(١) سبقتْ ترجمته.

(٢) سبقتْ ترجمته.

سيصل إلى أئمة الفقه؛ كأبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد رحمهم الله تعالى، والقرآن والسنة شاهدان على ذلك، وإنْ كنتم في ريب من ذلك، فاسألوا العلماء الجالسين أمامكم: هل تصل أجور هذه الصلاة إلى أبي حنيفة وأبي يوسف ومحمد وغيرهم من الفقهاء والمحدثين والعلماء أم لا؟

نعم بالطبع؛ لأننا نستطيع أن نُؤدِّيَها بصورة صحيحة بسبب تلك الجهود الجبارة التي بذلها أولئك العلماء في استنباط الأحكام الشرعية المتعلِّقة بالصلاة وغيرها، فهل يستطيع أحدٌ منكم أن يتخيّل قدر الأجر والثواب الذي يصل إليهم كل يوم؟ بل في كل ساعة؟ وفي كل دقيقة؟ وهل بإمكان أكبر عالم من علماء الرياضيات أن يحسُب ذلك الكمَّ العظيم من الأجر؟ ويستطيع أن يُحدِّد مقداره؟ أنّى له ذلك!

إن أوربا بعلمائها الكبار، وحواسيبها المتطوِّرة، ومعاملها المتقدِّمة لتعجر عن حسابه.

فالخلاصة التي أريد أن أصل إليها من وراء كلّ هذا هي أن الفِتية والشباب الذين أدركوا هذه الحقيقة لطلب العلم الشرعي هم السُّعداء من طلبة العلم، وأحسبكم جميعًا منهم، حيث إنهم حدَّدوا هدفهم المرجوَّ وغايتهم المنشودة من الحياة، وعرفوا أهميّة العلم الشرعي وخطورته، والتحقوا بالمدارس الإسلامية

لطلبه ودراسته، فهؤلاء إنْ لم يستطيعوا أن يقفوا في صفِّ الأئمة الكبار في خدمة الإسلام والمسلمين فإنهم بدون شكٍّ ليُحسَبون في عداد خُدّامِهم وأتباعهم.

ولا أستبعد من فضل الله تعالى وكرمه أن يمنّ على عباده في هذا العصر المتأخِّر بإمام عصامي مثل أئمة ذلك العصر، فيُوفِّق أحدًا منكم لخدمات عظيمة كتلك الخدمات الجليلة، ويمنحه تلك الأجور الكثيرة، ولا يُعدّ ذلك أمرًا عزيزًا على فضله سبحانه، وقد قال: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [الإسراء: ٢٠].

فتنة العصر الحاضر:

أيها الأحبة! انظروا إلى آفاق الدنيا اليوم، كم من فتن تَموج فيها كلَّ يوم؟ وكم من مِحَنٍ تشتعل فيها كلَّ حين؟ تلك الفتن والمحن التي تكاد تحرِق العالم الإسلامي والإنساني بشرارتها المتوقِّدة، وتحاول أن تقضي على تلك الثمار، التي نتجتْ عن جهود الصحابة الكرام رضي الله تعالى عنهم وتضحياتهم، فكم من فتنة ومحنة وبَلِيّة ترفع رأسها كل يوم من رماد الكفر والإلحاد ضد الإسلام والإيمان والأخلاق والإنسانية.

إن الإلحاد والماديّة والقوميّة وغيرها من الفتن تتقدَّم اليوم بجرأة وإصرار لإيقاف مسيرة رسالة الإسلام، ويظهر مسيلمة

الكذاب في ثوبه الجديد ليتحدى النبوة المحمديَّة ـ على صاحبها ألف ألف صلاة وتحية ـ وتُشنّ غاراتٌ شرِسة ضد ميراثها، وتُحاكُ مؤامرات ودسائس في الخفاء والعلن لصدّع قلعة الإسلام المتين، وتبدأ حملات قوية على دولة الإسلام.

وأنا على يقين تامّ بأن أئمة الفقه الكبار؛ كأبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد لو كانوا أحياء في مثل هذه الظروف الصعبة، **لأوقفوا تدوين الفقه الإسلامي لبرهة من الزمن**؛ ليتفرّغوا لِصَدِّ هذه الهجمات الضارية على قلعة الإيمان، فأنتم سعداء أيها الإخوة، حيث لم تُلقَ على عواتقكم مسؤولية الخدمات الفقهية، بل أكملها الله تعالى قبلكم بأيدي رجال أخلصوا عملَهم لله تعالى، وأدَّوا دورهم المُلقى على عاتقهم في أداء تلك الخدمة العظيمة التي لم تكن تحتمل التأخيرَ، ولو برهةً يسيرة من الزمن، فأنتم سعداء فعلاً، حيث وجدتم كل شيء جاهزًا.

فأمامكم اليوم ميدان جديد، ومعركة جديدة، وهو ميدان الإلحاد والمادية والقومية والليبرالية، فاستعدوا لمنازلتها، ولا تيأسوا من الانتصار عليها، بل اقتحموا غِمارها، وخُوضوا أغوارها بيقين بالله تعالى ونصره وبثباتٍ على عقيدة الإسلام وشريعته.

كونوا على يقين بأنكم لو استطعتم أن تنتصروا فيها، فإن

ذلك لا يُسِرُّ أولئك الأئمة فقط، بل تُسَرُّ بها روحُ محمد العربي ﷺ نفسُها، فأقبِلُوا إليها بكل شوق ورغبة، وجِدُّوا في طلبها، ألم تسمعوا ذاك الصدى الذي يَرِد في الأفق منذ أمد: إن السعادة منثورة في الميدان، فما بالُ النزلاء لا يلتقطونها!

ميدان العمل الجديد:

إن أنظار العالم الإسلامي اليوم شاخصةٌ إلى تلك القلوب النيِّرة والعقول الكبيرة والهِمم العالية التي تمتلك الأهلية الكاملة لفهم طبيعة المعركة الراهنة، وإن آماله اليوم معلَّقة على هذه المدارس التي تؤهِّل تلك القلوب والعقول والهِمم، حيث رامَ مؤسِّسوها أن يُعِدّوا طلابها لمثل هذه المعارك، بحيث لو ثارتْ ثائرة من جديد لاستطاع خريجوها أن يفهموا أبعادها وأسرارها، وأن يمتلكوا الاستعداد الكامل لمبارزتها ومُنازَلتها والانتصار عليها.

هجمات الإلحاد على قلعة الإيمان:

أعزائي! أمامكم اليوم ميدان فسيح جدًّا للعمل، وكم من أجر يُمكِنُكم الحصول عليه بقليل من العمل في هذا الميدان؛ فالذين يرغبون العمل فيه، ويريدون السير فيه، ويرومون دراسة هذه المسألة، والذين يعزّ عليهم تعليم هذه المدارس وتربيتها؛ لأنها تُعِدّ خالدًا الجديد وأبا عبيدة الجديد، وكأني بي أسمع صيحات قلوبهم المضطربة تُناديكم من قبورهم قائلة: إننا لم

نَتوانَ لحظة في استخدام السيوف وقطع رقاب الأعداء في سبيل إعلاء كلمة الدين وراية الإسلام، وقد أدَّينا ما كان واجبًا علينا، **ولكن معركة اليوم ليستْ معركة القتل والقتال والحرب والنزال بقدر ما هي معركة الفكر والأدب والثقافة، ومعركة العصر هي معركة الماديّة والقومية والإلحاد، فلا بدّ أن تخوضوها بسلاح الدليل، وتقتحموها بِسِنان الحجّة، وتدافعوا عن حرمة الدين بتُرس البرهان.**

فالإخوة الذين يعتقدون أن لديهم استعدادًا لأداء دور ما في هذه المعركة من خلال دراستهم العميقة للكتاب والسُّنة من أساتذة هذه المراكز الدينية، فإن أبواب السعادة مفتوحة أمامهم، حيث يستطيعون أن يُسجِّلُوا أسماءهم في صفِّ الأبطال الأبرار والشجعان الأخيار والشهداء العظام والأتقياء الكرام، الذين ازدانتْ بأسمائهم سماءُ التاريخ الإسلامي.

إن هذا الميدان الواسع للدعوة، أعدَّه الله تعالى لأناس ضعفاء الإيمان والهِمّة مثلنا بحكمته البالغة وقدرته الباهرة، كي نستطيع أن نحظَى بأجر كبير مقابل عمل قليل، وقد قال رسول الله ﷺ: «مَن أحيا سُنَّتي عندَ فسادِ أُمَّتي، فلَهُ أجرُ مائةِ شَهيدٍ»[١].

---

(١) هذا الحديث أخرجه الإمام الطبراني في المعجم الأوسط بلفظ «المتمسِّك بسنَّتي عند فساد أمتي فله أجر مائة شهيد» من حديث=

فماذا تفهمون من معنى السُّنة هنا؟ ولا شكَّ أن من أحيا سنة ميتة فله أجر كبير، ولكني أرى أن معنى السنة في هذا الحديث ـ حيث أُضيفَتْ إلى النبي ﷺ في قوله «سُنَّتي» ـ هو: طريقته وهَدْيُه ودينه وشريعته، ففكِّروا قليلاً في أجر ذلك الرجل الذي يقتحم معركة الإيمان لِصَدِّ هجمات الإلحاد والماديّة والقوميّة التي تُشَنّ ضدَّ الدين، الذي جاء به النبي الأمين، ﷺ، ويصير تُرسًا منيعًا بين الشريعة وبين تلك الهجمات، ماذا يكون أجره؟ وماذا يكون مقامُه عند الله تعالى؟

إن هذه المدارس الدينية التي ينظر إليها بعض الناس بنظرة ازدراءٍ واحتقار، تكمُن عظمتُها ـ رغم كونِ أساتذتها فقراء، ومَبانيها

= أبي هريرة رضي الله عنه في معجم من اسمه (محمد) ثم قال: «لم يرو هذا الحديث من عطاء إلا عبد الله بن أبي رواد، وتفرَّد به ابنه عبد المجيد»، وعبد المجيد هذا ضعيف، وهناك روايات أخرى للحديث قريبة لهذه الرواية ضعَّفها العلماء، وقد ذكر المناوي في فيض القدير بشرح الجامع الصغير أن الإمام السيوطي رمز له بالحسن، يُنظر: الطبراني، سليمان بن أحمد بن أيوب اللخمي، المعجم الأوسط، تحقيق: طارق بن عوض الله بن محمد وعبد المحسن بن إبراهيم الحسيني (القاهرة، دار الحرمين، د.ط، د.ت) ج٥، ص٣١٥، والمناوي، زين الدين محمد بن تاج العارفين، فيض القدير (مصر: المكتبة التجارية الكبرى، ط١، ١٣٥٦)، ج٦، ص٢٦١.

مُتهدِّمة، وأُثُثها متواضعة - في أنها تُعِدّ فرسانًا لمعركة الحق والباطل، أولئك الفرسان الذين يخوضون عباب المعمعة رافعين راية الشريعة، ويحملون على الحركات الإلحادية والهجمات القومية والفتن الأخرى التي تُدار ضدَّ الدين والأخلاق بجرأة فائقة وشجاعة نادرة، وهنا يَكمن سِرُّ قوة هذه المدارس وسِحرُ لَمعانها.

فلو وُجد شخص واحد في هذه القاعة يحمل قلبًا يخفق بحبِّ الدين، وعينًا تُبصر بمآل الأمور، وأذنًا تُصغي إلى الآمال، فلو وُجد ذلك الشخص الذي يرى في نفسه القوّةَ لأداء تلك المهمّة، فإنّي أعُدّ اليوم الذي أُرسِلَ فيه إلى دار العلوم أسعدَ يوم في حياته، وحياة أسرته، وعشيرته، وأهل بلده، بل حياة أهل الأرض جميعًا.

فأقول لذلك العصامي بصراحة واندفاع: **خُذ قرارَكَ الحاسِمَ بأن تَستغِلَّ كلَّ وَقتِكَ فيما يُفيدك ويُفيد أمّتكَ، وتقطف من أشجار هذه الحديقة السّاحرة أجملَ الزُّهور وأنضج الثّمار، وتكدّ وتجتهد لبلوغ المراتب العليا والدرجات العلى في العلم العميق الواسع للكتاب والسُّنة، وتقضي حياةً تَليق بداعية الإسلام والعالم الربانيِّ.**

توحيد الهدف:

أيُّها الإخوة! إن أصحاب هذه المدارس الدينيَّة وخدَّامَها قد أغلقوا مَتاجِرَهم وعطَّلوا أعمالهم، وتركوا مَلذّاتهم، وأحرقوا سُفنَ الحياة، وقطعوا شريان الثّروة، ونَزلوا في هذا الميناء من

أقطار الدُّنيا؛ لأجلكم أنتم، ولِخِدمتِكُم أنتم، ولكنَّ بعضَكم يَتعامل معهم معاملة غير شريفة، حيث يضعون رِجلاً في دار العلوم ورجلاً في غيرها، جسدُكم هنا وقلبكم هناك، أبدانكم هنا وعيونكم هناك(١)، ومَن يستطيع أن يُجيز مثل هذا التصرُّف

---

(١) لماّ غرُبتْ شمسُ الحكم الإسلامي في شبه القارة الهندية بعد أن أشرقت بنورها لأكثر من (٨٠٠) عام، واستطاع الإنجليز المستخرِبون الاستيلاء على مقاليد الحكم فيها ظلمًا وجورًا، بذلوا أقصى جهودهم لصد منافذ العلوم الشرعية؛ لأنها تُعِدّ ـ في نظرهم ـ الخارجين الثائرين المتمرِّدين على نظام الحكم القائم، الذين يُحرّضون الناس على الجهاد والقتال ضدَّ الاستعمار، فأغلق الإنجليز كثيرًا من المدارس الإسلامية، وضيَّقوا الخناق على العلماء والدعاة والمربين وأهل الدين، وقلَّلوا فُرَص العمل أمام خريجي المدارس الإسلامية، فرغب المسلمون ـ لا سيما الطبقة المثقفة منهم ـ إلى الدراسة العصرية التي يُحرّض عليها الإنجليز، ويفتحون مصاريع الفرص أمام خريجيها.

فبدأ الشباب المسلم هَجْر العلوم الشرعية فرارًا من الفقر المدقع والضيق المادي والتضييق الحكومي، وبدأ عدد الطلاب يَقِلُّون يومًا بعد يوم في المدارس الإسلامية، فخاف المسلمون الغيورون والعلماء الربانيون والدعاة المتوسِّمون على مستقبل الإسلام والتعليم الإسلامي والدعوة الإسلامية في هذه البلاد، فأسَّسوا مدارس ومراكز تدرّس طلابها بالمجان تشجيعًا لهم على العلم الشرعي وحفاظًا على=

. . . .

= الإسلام وتعاليمه وهويته، وكان كثيرٌ من هؤلاء المسلمين والعلماء والدعاة يجمعون التبرُّعات والعطايا والزكاة والصدقات من عامة المسلمين وأهل التديُّن ليصرفوها على الطلبة الفقراء وغيرهم الذين يحتاجون إلى الدعم المادي، وكانتْ هذه المؤسسات تتكفَّل بنفقات دراستهم وطعامهم وسكنهم وغيرها، وكان القصدُ من وراء كل هذا التسهيل إعدادَ هؤلاء الطلبة علميًّا وخلقيًّا وتربويًّا ودعويًّا؛ ليحملوا أمانة الدين والعلم والدعوة والتربية في قابل الأيام.

غير أن بعض الطلاب التحقوا بهذه المراكز الدينية بهدف الاستفادة من التسهيلات الموجودة فيها، ثم لا يهتمون بدراستها، بل يستعدون لامتحانات الجامعات العصرية؛ ليحصلوا على الوظائف المرموقة فيها، وهذا القصد قد لا يكون معيبًا من حيث هو، بل قد يكون مطلوبًا للتوازن الاجتماعي، ولكنه يصبح مشينًا حين يُؤدّي إلى استغلال الفرص الشحيحة الموجودة هنا من قبل هؤلاء، ويحرمون الطلاب الآخرين الذين يستحقونها بجدارة، ومن هنا شدَّد الشيخ الندوي رحمه الله النكير عليهم؛ لأنهم لا يُعِدّون أنفسهم لخدمة العلوم الشرعية وما يتعلَّق بها من مجالات، كما هو الشرط المعروف في عرفها، بل يُعِدّون أنفسهم للوظائف الحكومية التي تدرّ عليهم أرباحًا مادية، مع الاستفادة من الفرص الممنوحة لطلبة العلوم الشرعية.

ومثل هذه المدارس والمراكز موجودة بكثرة في طول شبه القارة الهندية وعرضها حتى الآن، مع استقلال هذه البلاد من الحكم =

المزدوج؟ وأي مخيَّم من مخيمات الأفكار الوَضيعة يتحمَّل هذه الازدواجية؟ وأيُّ مؤسَّسة تعليميّة تُجيز ذلك؟ وأيُّ نظام من النُّظم البشريّة يُبيح ذلك؟ هل الاشتراكيّة تُجيزها؟ وهل الشُّيوعيّة تُجيزها؟ وهل الرأسماليّة تُجيزها؟ لا أحدَ منها يُجيز ذلك، مع أن القوم يرَون أنهم أحرارٌ في تصرُّفاتهم وقراراتهم، ومع هذا لا يستطيع إنسان يعيش في روسيا أن يعمل لصالح أمريكا ـ مثلاً ـ وكذا العكس.

وإذا كان هؤلاء يَرَون أنهم أحرار من كل القيود والضوابط، بحيث لو أرادوا شُرب الخمر شربوها، وإذا أرادوا لعب القمار لعبوه، وإذا أرادوا اقتراف الفواحش اقترفوها دون حياء، ومع ذلك لا يجوز هذا الازدواج عندهم، فكيف نُجيز لكم أن تَبقَوا هنا وتستعِدُّوا لدراسات الكليات والجامعات العصريّة؟ أيُّ دِين

= الإنجليزي الغاشم، وذلك لأن الإنجليز لم يُغادروا هذه البلاد إلا بعد أن أعدّوا رجالًا ينتمون إلى القارة الهندية نسبًا ولونًا وتاريخًا، ولكنهم يُوالون الإنجليز فكرًا وثقافة وذوقًا وأدبًا، فكان من الطبيعي أن يستمرَّ الوضع العنصري تجاه المدارس الإسلامية، ومن هنا بقيتْ هذه المؤسسات والمراكز حتى العصر الحاضر، وبقي التعليم فيها مجانًا أو شبه مجانٍ غالبًا، وهي تُؤدّي أدورًا بارزة في خدمة الإسلام والمسلمين والدعوة والتربية والتزكية والتعليم والتأليف والفتوى والقضاء وغيرها من الخدمات الجليلة، بل لها نصيب الأسد فيها.

هذا؟ وأي قِسمة هذه؟ إننا نتسوَّل على أبواب الناس لأجلكم (وهذا ليس فضلاً منا، بل هو واجب دينيٌّ شرعيٌّ حضاريٌّ علينا) وأنتم تستفيدون من الفرص الموجودة في مدارسنا لأعمال لا تتعلَّق بها، أليس هذا استغلالاً غير شرعي! وأيُّ ظُلم أكبر من هذا!

ربما تقولون: إننا نفعل ذلك لأجل الرزق الحلال، فأقول لكم: إن القرآن الكريم تحدَّث عن الدّاعي إلى الله تعالى، وأمره بجُملة من الأوامر، فقال: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَـٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [طه: ١٣٢]، فأمر بالأمر بالصلاة والصبر عليه، ولكنْ قولوا لي بربِّكم! ما الذي جاء بذكر الرِّزق هنا؟ ولماذا ذُكرتْ جملة ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكَ﴾؟

العلماء موجودون هنا، فاسألوهم عن العلاقة بين الأمر بالصّلاة والصبر عليها وبين الرِّزق! ولماذا جاءتْ جملة ﴿لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا﴾؟

هل جاءت هكذا اعتباطًا دون قصد؟ ومن الواضح جدًّا أن الله تعالى لا يطلب الرِّزق من العباد، فلماذا جِيء بموضوع الرِّزق إذن؟

إن له معنى واسعًا وهدفًا شاملاً، وكأنَّ الله تعالى قال لنا: إننا لا نطلب منك بأن تتكفَّل برزقك أيضًا ـ أيُّها الدّاعي ـ بل نحن نرزقُك! ونضمنُه لك! ولستَ مطالبًا به!

فواضح إذنْ أن الذي يأمُر بالصّلاة، ويَصبِرُ عليها، يستحقُّ

الرِّزقَ من الله تعالى، وهذا يَعني أنه سبحانه لا يَترُكُ الدّاعيَ فريسةً للفقر والفاقة، بل يَرزقه من عنده، ويجعله وسيلة لارتزاقِ الآلاف من الناس، ألم تَسمعوا أنّ الذئبَ الواحد يَصطاد، وتأكل منه حيواناتُ الغابة كلُّها؟ اقرَؤُوا عن مائدة الشيخ نظام الدين[1]؛ لِتَعرفوا كَم مِنَ الجِياع والمساكين والفقراء كانوا يأكلون من مائدتِه!!

---

(١) هو العالم الداعية محمد بن أحمد بن علي البخاري البدايوني، أحد الدعاة المشهورين في شبه القارة الهندية، وُلد عام ٦٣٦هـ بمنطقة بدايون، وتُوفي والده وهو صغير، فنشأ في كنف أمه، وسلك طريق العلم، فدرس الفقه والأصول ببلده على يد الشيخ علاء الدين الأصولي، ثم سافر إلى دهلي وعمره ١٥ عامًا، وأخذ العلم بها عن الشيخ شمس الدين الخوارزمي، والشيخ كمال الدين محمد زاهد الماريكلي، والعلامة فريد الدين مسعود الأجودهني وغيرهم، وبايع على يد هذا الشيخ الأخير، ثم حُبِّب إليه الخلاء، فعكف على العبادة والتلاوة، وانقطع إلى الله تعالى بالقناعة من الدنيا والزهد فيما عند الخلق، وأقبل على الله تعالى بالكلّية، وإلى دعوة الخلق إلى الله تعالى بالقول والعمل، فأسلم على يديه كثيرون، حتى ذاع صيته، وأراد ملوك عصره أن يزوروه في زاويته فأبى أشد الإباء، تُوفّي بدهلي سنة ٧٢٥هـ، ودُفن هناك، رحمه الله ورضي عنه. يُنظر، الحسني، الإعلام بمن في الهند من الأعلام، مصدر سابق، ج٢، ص١٩٣ ـ ١٩٦.

وفي العهدِ القريبِ، اسمعوا قِصَص مائدة شيخ الحديث العلامة محمد زكريا الكاندهلوي[١]، واسألُوا أولئك السُّعداء

---

(١) هو العلامة البحّاثة محمد زكريا بن محمد يحيى بن محمد إسماعيل الكاندهلوي، أحد كبار علماء المسلمين في العصر الحاضر، وُلد ببلدة كاندهلة عام ١٣١٥هـ، وبدأ الدراسة الأولية في غنغوه، ودرس بها مبادئ العلوم الإسلامية، ثم سافر إلى سهارنفور عام ١٣٢٨هـ، ودرس بها الصرف والنحو والبلاغة والمنطق والفقه والأصول والتفسير وغيرها من العلوم على يد أبيه الشيخ محمد يحيى، كما قرأ عليه كتب الصحاح السّتة ما عدا سنن ابن ماجه، وكان آية من آيات الله تعالى في الحفاظ على الوقت والحرص على الاستفادة منه، وقرأ صحيح البخاري والجامع الترمذي على يد شيخه المُحدِّث الكبير العلامة خليل أحمد السهارنفوري عام ١٣٣٤هـ، كما ساعد شيخَه في تأليف كتابه (بذل المجهول في حل سنن أبي داود).

عُيِّن مُدرِّسًا في جامعة مظاهر العلوم بسهارنفور عام ١٣٣٥هـ، وعكف على التعليم والتدريس والتصنيف والتأليف، والدعوة والإرشاد، وسافر إلى بلدان كثيرة لنشر الدعوة إلى الله تعالى، والوعظ والإرشاد، ثم استوطن أخيرًا المدينة المنورة، على صاحبها ألف ألف صلاة وتحية، وتُوفي بها سنة ١٤٠٢هـ، ودُفن بالبقيع بجوار شيخه العلامة خليل أحمد السهارنفوري، رحمهما الله تعالى، ألَّف الكثير من الكتب العلمية والتربوية باللغة العربية والأردية، وقد تجاوزتْ مؤلفاته ١٠٠ كتاب، منها: أوجز المسالك إلى موطأ الإمام=

الذين رأوا مائدة العلامة السّيد حسين أحمد المدني[١]، لتعرفوا كيفَ يَصطاد ذئبٌ واحد ويأكلُ منه آلاف!

= مالك (طُبع في ١٨ مجلدًا)، والأبواب والتراجم لصحيح البخاري، وبين الشريعة والطريقة، والمودودي ما له وما عليه، والخصائل النبوية شرح الشمائل المحمدية، وتاريخ مظاهر العلوم، والوقائع والدهور، وفضائل اللغة العربية، وفضائل الأعمال والسيرة الذاتية وغيرها من الكتب والمؤلفات الكثيرة. يُنظر: الندوي، أبو الحسن علي، الإمام الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي ومآثره العلمية، تعريب: السيد جعفر مسعود الحسني الندوي (دمشق، دار القلم، ط١، ١٤٣٣هـ)، والندوي، محمد رحمة الله محمد ناظم، المحدث الكبير الداعية الجليل الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي؛ حياته وجهوده العلمية والتعريف بأهم مؤلفاته (بيروت، دار البشائر الإسلامية).

(١) هو المُحدّث الكبير والمجاهد الشهير السيد حسين أحمد بن حبيب الله المعروف بالشيخ المدني، أحد نوادر الدنيا في العلم والتربية والدعوة، وُلد عام ١٢٩٦هـ، ودرس مبادئ العلوم الإسلامية في ثاندة، ثم سافر إلى جامعة دار العلوم بديوبند الشهيرة عام ١٣٠٧هـ، وأخذ الحديث النبوي الشريف من الشيخ محمود حسن الديوبندي المعروف بشيخ الهند، وتفقه عليه، ثم سافر إلى المدينة المنورة عام ١٣٢٠هـ، وقام بالتدريس في المسجد النبوي الشريف مُحتسِبًا مُتطوِّعًا لمدة ١٣ عامًا، ثم شارك في حركة التحرير بقيادة شيخه محمود حسن، واعتُقِل من قبل الحكومة الإنجليزية في مكة المكرمة سنة ١٣٣٥هـ، فنفته مع شيخه إلى =

. . . .

= جزيرة مالطا، وبقي هناك ثلاث سنين وشهرين، قام خلالها بحفظ القرآن الكريم وخدمة شيخه الأثير، ثم أُفرج عنهما، فرجعا إلى الهند.
ولما تُوفي شيخه اتَّجه إلى سلهت (مدينة تقع في شمال بنغلاديش حاليًا)، وقام بتدريس الحديث النبوي الشريف هناك لمدة ستِّ سنوات، ثم ثارتْ ثورة الهند الكبيرة ضد الحكومة الإنجليزية في الهند، فشارك فيها الشيخ بكل ما يملك من قوة، وأفتى بحرمة العمل في الجيش الإنجليزي، فاعتقلتْه حكومة الاستعمار لمدة سنتين، ثم أُفرجَ عنه، وعُيِّن شيخًا للحديث في دار العلوم بديوبند ورئيسًا للمعلِّمين بها، فاشتغل في مجالي التدريس والثورة في آن واحد، وجال أقطار الهند طولًا وعرضًا، وألقى خطابات حماسية ناريّة ضدَّ الإنجليز، وشارك في حركة العصيان المدني عام ١٩٥١هـ فاعتُقِلَ مرّةً أخرى، ثم أُفرج عنه بعد ستة أشهر، وقد طبّقتْ شهرته آفاق الهند الكبرى.
ولما تأسستْ حركة العصبة الإسلامية (Muslim League) التي طالبتْ بتقسيم الهند على أساس الدين، حيث تنضمُّ الولايات التي تقطنها أغلبية مسلمة إلى باكستان، والولايات التي تسكنها أغلبية هندوسية إلى الهند، عارض الشيخ هذه الفكرة بصراحة وصرامة، ورآها مُضِرّة بمصالح المسلمين في شبه القارة الهندية، ولكن دعوى الشيخ لم تلقَ ترحيبًا كبيرًا من قبل الجمهور الذين انجرُّوا وراء فكرة التقسيم، وقد تحمَّل الشيخ كثيرًا من الأذى بسببه. =

إن الله تعالى قد ضَمِنَ لكم الرّزق فلا تُفكِّروا فيه، بل اجتهدوا، وجِدُّوا في الطَّلب، وأخلِصُوا العمل لله تعالى، ثم انتظروا لرؤية تصاريف القدرِ بأعيُنِكم!

القرار الأخير:

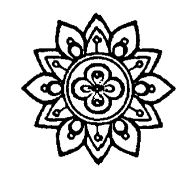
أيها الإخوة! أظنُّ أن هذا القدر من الحديث يكفي للمتبصّر

= ولما تمَّ إعلان استقلال الهند وباكستان على أساس الثنائية الدينية (الإسلام والهندوسية)، اختار الشيخ البقاء في الهند، حيث رأى أن بقاءه فيها أنفع للمسلمين الذين صاروا أقلية بها، وأقبل على التصنيف والتعليم، والدعوة والإرشاد، واعتزل السياسة كليًّا، ولما أرادتْ الحكومة الهندية أن تُكرِّمَه بجائزة الدولة التقديرية اعترافًا بخدماته الجليلة في ثورة التحرير رفضها الشيخ قائلًا: إن ذلك لا ينسجم مع طريقة أسلافي من العلماء العاملين في خدمة الإسلام، حيث لا يطلبون أجورَهم إلا من الله تعالى، فازداد قبوله لدى العامة والخاصة، وأقبل الناس عليه مُستفيدين مُستَفتِينَ، وهو يدعوهم إلى الله تعالى وإلى اتّباع السنة المطهَّرة وترك البدعة والخرافة، وبقي على ذلك عاملًا مجاهدًا مجتهدًا حتى وافاه الأجل المحتوم في ٣ جمادى الأولى ١٣٧٧هـ، وصلى عليه شيخ الحديث العلامة محمد زكريا الكاندهلوي في جنازة مشهودة، ودُفن بجوار شيخه العلامة محمود حسن الديوبندي، ومن تآليفه: الشهاب الثاقب، ومذكرات جزيرة مالطا، وسيرة شيخ الهند، ونقوش الحياة. يُنظر: الندوي، أبو الحسن، تتمة الإعلام بمن في الهند من الأعلام، ج٨، ص١٢١٤ ـ ١٢١٦.

السعيد، ولا حاجة إلى المزيد، بل أرى أن ما قلتُ اليوم أكثر من الكفاية، فحاولوا أن تستفيدوا منه، وخذوا قراركم النهائيَّ عنه؛ فإما أن تسيروا في ركب العلم أو تغادروه.

فإذا قرَّرتُمُ الذّهاب فاذهبوا شُرفاءَ كرماء، وإذا قرَّرتُم السير فسِيروا أيضًا شرفاء كرامًا طلابَ علمٍ وأصحابَ عزائم وهِمم، والسلام.





أماني الصّغار
(هكذا ينبغي أن يفكّر الصّغار)

في ٢٢ نوفمبر ١٩٦٥م ألقى سماحة الشيخ أبو الحسن الندوي كلمةً وجيزة أمام طلبة المدرسة الثانوية بمناسبة حفل توزيع الجوائز، ونصحهم فيها ببعض الأمور المُهمّة التي ينبغي أن يتطلَّعوا إليها في المستقبل.



أعزائي! إنني اليوم مسرور جدًّا بلقائكم، تلك المسرّة التي يُحسُّ بها كبار الأسرة حين يلتقون مع صغارها، فأستغِلُّ هذه الفرصة لأهنِّئَكم جميعًا على جهودكم ونجاحكم وتفوُّقكم، حتى صِرتُم مُستحقينَ للجائزة والتقدير.

هذه الجوائز التي تُقدَّم إليكم في صورة كتب وغيرها ليستْ ذات قيمة كبيرة في السُّوق، ولكنّ قيمتها كبيرة وكثيرة هنا؛ لأنها تُعَدّ شهادة اعتراف من قِبل أساتذتكم بِجِدِّكُم واجتهادكم وتفوُّقكم.

وأنا أتأسَّف اليوم على تلك الجوائز القيّمة التي حصلتُ عليها في الصِّغر، وقصّرت في حفظها والإبقاء عليها؛ لذا أنصحكم، بل أوصيكم، بالحفاظ عليها جيدًا.

إنني سمعتُ اليوم كلماتِكم الجميلة وأحاديثَكم الرائعة، وكانتْ تلك الكلمات والأحاديث عالية للغاية نظرًا لِسِنِّكم وعمركم، وهي تُنبئ عن مستقبل زاهر لكم، غير أن قلبي يميل إلى أن تكون هذه الكلمات أكثر سذاجة وأكثر طَبعيّةً؛ لأن الكلمة المتميّزة هي التي تكون ساذجة في ألفاظها ومؤثرة في قلوب سامعيها بمعانيها، ولا شكّ أنكم تستحقون التهنئة والمباركة على هذه الكلمات، وأن أساتذتكم قد نجحوا إلى حدٍّ كبير في جهودهم، ولكني أريد أن أقول بعض الكلمات التي ينبغي أن تقوموا بها في حياتكم.

إن أكثر ما يُريده الإنسان في الصّغر أن يحقِّق اللهُ تعالى أهدافه وأمانيه في كل مرحلة من مراحل الحياة؛ لذا ينبغي أن تُحدِّدوا أمانيكم ورغباتكم بتأمُّل وتَروٍّ، حتى لا تضطرُّوا إلى التأسُّف والندم فيما بعد، وأرجو أن تشدّوا العزم من الآن على أن تُبقوا راية الإسلام شامخة سامية عالية، وتنشروا رسالة الله تعالى الخالدة في الأرض، وتكونوا دعاةً مُخلِصين للإسلام، ولا تفكِّروا كما يفكّر بعض الصّغار بأننا نكون تي تي أي[1] في المستقبل؛ لنسافر إلى كل مكان مجّانًا! أو نكون ضُباط شرطة لنعتقل الناس! وغيرها من الأماني الصغيرة.

وهي ليستْ سيّئة، ولكنْ ينبغي أن تكونوا أكثر رفعة وأعلى شأنًا في تفكيركم ورغباتكم، فإن الله تعالى يحبُّ عفويّة الصغار المعصومين فيُعطيهم في الكِبر ما يتمنَّون في الصِّغر؛ لذا حاولوا أن تكونوا أكثر جِدّيّة وأعلى رتبة في أمانيكم، وأن ترغبوا في الأمور العظيمة والأعمال الكبيرة، وأن تعزموا العقد على أن تقوموا بأعمال الأنبياء ـ عليهم الصلاة السلام ـ وأن تكونوا من عباد الله تعالى المقرَّبين، وتكونوا من علماء الإسلام الكبار، وتُوصلوا أكبر قدر من الفائدة إلى العباد.

اعلموا أن الله تعالى قد منح الإنسان صلاحيّةً فريدة، وهي

---

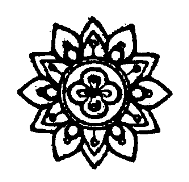
(١) Travel Ticket Inspector أي مفتّس تذاكر السفر.

أنه يستطيع أن يَصِلَ إلى ما يريد بِجِدِّه وجهده، فيستطيع أن يكون كالملائكة، بل أفضل منهم؛ لأنه يملك من المواهب ما لا يملكها الملائكة، وبما أنه يستطيع أن يصل إلى منزلة كبيرة ورتبة عالية بجدّه وجهده بعد توفيق الله تعالى، فلمَ تفكرون في الأماني الضيِّقة والأهداف الصغيرة؟

وارْجُوا دائمًا من الله تعالى التوفيقَ لخدمة دينه، وأن تقوموا بتلك الأعمال العظيمة التي تحتاج إليها الأمة في هذا العصر، وهذه أمانينا فيكم، وتلك رجاءاتنا إليكم.

وفَّقكم الله تعالى لذلك، آمين.





الإخلاص والاختصاص

ألقى الشيخ الندوي هذه المحاضرة القيمة في ٢٨ يناير ١٩٦٧م في الحفل الافتتاحي للعام الدراسي الجديد بمسجد دار العلوم الفسيح، وسجّلها الطالب السيد شرافت علي.



الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد:

أعزائي وإخواني! بدأ اليوم عامُنا الدراسيُّ الجديد، وفيكم منْ قضَوا فترة سابقة في دار العلوم، وهذه الفترة قد تكون سبعَ سنوات أو ثماني سنوات أو أقلَّ أو أكثر، وفيكم أيضًا من جاء جديدًا في هذا العام، غير أن الأنسب للجميع أن ترَوا أنفسكم جُددًا في هذا المقام؛ لتُحدّدوا أهدافكم، وتُفيضوا حماسكم، وتجدِّدوا عزمكم، فإجازة المدرسة وافتتاحها، وبداية الدراسة وانتهاؤها، ومجيءُ الطلبة وانعقاد مثل هذه الندوات والمحاضرات كلُّها لهدف واحد، وهو: **تجديد العزائم وإثارة الهمم في الطلبة**، وهو أمر مهمٌّ للغاية.

ويجب أن يُدرك جميع الطلبة ـ سواء أكانوا جُددًا أم قُدامى ـ بأننا اليوم نفتح صفحة جديدة من كتاب الحياة، والحقيقة أنكم ابتدأتم اليوم سفرًا جديدًا في عُرض بحر الحياة، وينبغي أن تطلبوا النصائح والإرشادات من الأساتذة وأصحاب الخبرة والتجربة في مثل هذا الأمر، وهذا من حقِّكم عليهم.

والإنسان حين يشدُّ العزم للسفر إلى بلد جديد ينصحه الكبار وأصحاب الخبرة في ذلك المجال، فخيرُ الإنسان وشرُّه يقتصر على الإحساس بالفائدة من الشيء، وإذا انعدم هذا الإحساس في الإنسان ينعدم فيه الخير كلُّه؛ لأنه الطريق الوحيد الذي سلكه

جميع البشر ـ حتى الأنبياء والمرسلين ـ وساروا عليه في إفادة الناس.

فالحصول على فوائد الحياة يعتمدُ على الإحساس بالفائدة من أمر ما، ثمّ التوجُّه إليه، وعليه تقوم علاقة الإنسان مع الإنسان، وعلاقة التاجر مع العميل، وعلاقة الأب مع الابن، وحتى علاقة النبي بأمته قائمة عليه.

وعلاقتكم بنا أيضًا قائمة عليه، وأنتم هنا طلاب الفائدة، وفي طلبها كان مجيئكم، وفي سبيلها تركتم أسرتكم، وودّعتم أهلكم ودياركم.

أعزائي وأحبائي! الكلام الذي يستحقُّ الذكر في مثل هذا المقام كثير، ولكن الوقت ضيِّق؛ فلا يُمكن ذكره كله بتفاصيله؛ لذا أودُّ منكم أن تسمعوا مني كلمة واحدة، كلمة جامعة، فأصغُوا إليها بقلوبكم بدلاً من آذانكم؛ لأن فيه خيرًا كثيرًا لكم.

وهي: أنْ تبذلوا جَهدكم وجُهدكم للفوز والنجاح، فلو أمكنكم الوصول إلى قلبي، لفتحتُه لكم، ولكن من سُنّة الله تعالى في الإنسان أنْ جعله محتاجًا إلى الكلام للتعبير عما يدور بداخله، وكلام الله تعالى خير شاهد على ذلك، فالخلاصة من كلامي هذا: أنِ اصرِفُوا طاقتكم لتصلوا إلى أعلى مراتب الشرف، وتلك مطالب الفطرة الإنسانية، فالإنسان الذي لا يملك

هذا الإحساس ليس بإنسان، وعلى أساس هذا الإحساس يستطيع الإنسان أن يبلغ رتبةً لا يُمكن للملائكة الوصولُ إليها!

الكنز الدفين:

أعزائي! لو أن شخصًا عثر على كنز ثمين، وذهب به إلى من يعرف قيمته، فقال له العارف: هذه جوهرة ثمينة، وهي تحتاج إلى إصلاح دقيق، وإصلاحها لا يمكن إلا بثلاثة شروط:

الأول: أنها تحتاج إلى صناعة دقيقة من صائغ ماهر حتى تَلمع، وبدونها لا تكون لها قيمة.

الثاني: أنها مادة حسّاسة جدًّا، فتحتاج إلى عناية فائقة، وأنها تفقد قيمتها بأدنى خدش.

الثالث: أنها لا يُمكن إصلاحها وإعادتها مرة أخرى إذا حصل فيها أي كسر.

فالعاقل من يحفظ هذه الشروط جيدًا، ثم يدفع هذه الجوهرة إلى صائغ ماهر ليقوم بصنعها جيدًا، ثم يَبيعها بأغلى الثمن؛ ليستفيد منه.

إنني أقول مُقسِمًا بالله تعالى بأن جوهرة قيمة موجودة فيكم، وأن كنزًا ثمينًا دفين فيكم، وكل واحد منكم يملكها، وتلك الجوهرة هي مواهبكم الذاتية؛ موهبة الذكاء، وموهبة الطاعة، وموهبة الإمكانات، تلك المواهب التي تَغبِطُكم عليها الملائكة،

ويمكن أن تصلوا بها إلى تلك المنزلة التي قيل عنها: «فيها ما لا عينٌ رأتْ، ولا أذنٌ سمعتْ، ولا خطر على قلبِ بشرٍ»[1]، وبها يُمكنكم أن تغدوا من أولياء الله الصالحين، وأحبّائه المقرَّبين، كما قال الشاعر الأردي: إنَّ نظرةَ المؤمن الصّادق تغيِّرُ المقادير!

أيها الإخوة! إن بإمكانكم أن تصلوا إلى درجة تستطيعون منها أن تُغيّروا وجه الأمة جمعاء، بله المدينة والوطن، فيُمكنكم أن تصبحوا أولئك الفرسان الذين تتغير بصحبتهم حياة البغاة والزناة والفجّار، فيصبحون من أولياء الله الصالحين.

وأينما تَحِلّوا يحلَّ الربيع، ويتغيَّر موسم البلدة وبيئتُها، وهذا التأثير يمكن أن يتولَّد فيكم بفضل الله تعالى - أولاً - ثم بجهودكم، فكم من أقوام يهتدون إلى طريق الجنة بسببكم؟

---

(١) هو جزء من حديث نبوي شريف أخرجه الإمام البخاري في صحيحه من حديث أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله تعالى: أعددتُ لعبادي الصالحين، ما لا عينٌ رأتْ، ولا أذنٌ سمعتْ، ولا خطر على قلب بشر، فاقرؤوا إن شئتم: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾»، كتاب الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة، رقم الحديث: ٣٢٤٤، والإمام مسلم في صحيحه، كتاب الجنة وصِفة نعيمها وأهلها، رقم الحديث: ٢٨٢٥.

ولا شكَّ أن النبوة قد انتهتْ، فلا مطمع فيها، ولكن يمكن أن يصير كل واحد منكم آية من آيات الله، فيصبح شيخَ الإسلام وحجّةَ الإسلام، وفوق كل ذلك تصبحون من عباد الرحمن وورثة الأنبياء المرسلين، وتستطيعون أن تبلغوا إلى كل تلك المنازل بشرط أن تعزموا أمركم على **أنكم جئتم هنا لنيل مرضاة الله تعالى، ولأن تكونوا من العلماء الربانيين.**

فلو قرّرتم ذلك مع إخلاص النيّة وصفاء القلب فإن كلَّ حصاةٍ من هذه الأرض وكلَّ جزء من هذا الكون يُعينكم عليه، بل إن نظام الكون يقف مُطيعًا لكم، والحديث النبوي الشريف شاهد على ذلك(١).

أيها الإخوة! إنني أسألكم بكل جديَّة وصراحة: مَن هو ذلك الشقيُّ الذي لا يرغب في النجاح؟

---

(١) لعلّ الشيخ رحمه الله يشير هنا إلى حديث أبي أمامة الباهلي رضي الله تعالى عنه، حيث قال: ذُكِر لرسول الله ﷺ رجلان أحدهما عابد والآخر عالم، فقال رسول الله ﷺ: «فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم» ثم قال رسول الله ﷺ: «إن الله وملائكته وأهل السماوات والأرضين حتى النملة في جحرها وحتى الحوت ليصلّون على معلّم الناس الخير»، رواه الإمام الترمذي في جامعه في أبواب العلم، باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة، رقم الحديث: ٢٦٨٥، وقال الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح غريب».

إن الأحجار لَتُفكّر في النجاح، ولا تزهد فيه، وكل ما في الكون يتطلَّع إلى العروج والتقدُّم والرقي.

انظروا إلى شتلة صغيرة في الصحراء، كيف تغدو دوحة كبيرة بعد أن تقطع منازل التعب والمشقة، وتصل إلى محطة الرقيِّ والتقدُّم الأخيرة، غير أن سفر النجاح الذي تريدون الإبحارَ فيه لا يتوقَّف عند حدٍّ مُعيَّن، بل يسير ويستمرُّ إلى ما بعد الموت، وأنتم في سير مستمرٍّ إلى طريق النجاح، حتى تتشرَّفوا برؤية الله تعالى، وتكون تلك آخر محطة في منازل سيركم وسفركم.

فواجبكم الأول ـ أيها الإخوة! ـ أن تَعقِدوا العزم وتشدّوا الحزم؛ لأن عليكم أن تصلوا إلى آخر محطة يمكن الوصول إليها، يقول شاعر الإسلام محمد إقبال:

غُصْ في بحرِ النَّفسِ، واكتشفِ الحياة!

فإن لم تُرِدْ أن تكون لي، فلكَ ذلك، ولكنْ كنْ لنفسِكَ على الأقلّ!

فإنْ لم تُريدوا أن تكونوا لنا ولأساتذتكم ومُحبيكم، فنَقبلُ منكم ذلك بكل سرور، ولكن أدُّوا حقوقَ أنفسكم على الأقلّ.

إنني أُعيد وأُكرِّر بأنْ جِدُّوا في السَّير، وابذلوا قُصارى

جهودكم في هذا الطريق؛ طريق الفوز والنجاح، والعالم شاهد على أن الله تعالى خلق الإنسان للفوز، وأمرَه بذلك.

أعزائي! اكتبوا على صفحات قلوبكم، وعاهدوا الله تعالى على أن تكونوا من الفائزين الناجحين، وهو صوت قلوبكم التي بين جوانحكم، بل إنني أزيد وأقول: إنه صوت القرآن الذي يَحثُّكم على أن تصلوا إلى قمة منازل القيمة الذاتية، وأن تُحسُّوا بأهميته، وأن تتحمَّسوا له، ومَن فقد هذا الإحساس من طلبة العلم فإنه ـ مع الأسف ـ فقدَ العقل الذي بلغ به الإنسان ما بلغ، وضاعتْ فيه بذرة الإنسانيّة، ولا أملَ فيه.

هما طريقان:

أيها الإخوة! إنني غير مستعد أن أقبلَ بأنه لا توجد فيكم موهبة النجاح والتفوُّق، وموهبة الرقيِّ والتقدُّم، لا يمكن أن أقبل ذلك بأيِّ حال من الأحوال، وهذا حماس حقيقي وأمل صادق فيكم، **وقد أثبتتْ شريعة الإسلام وصحفُ الأنبياء والمرسلين بأن جميع منازل الوصول ومراقي الفلاح في استطاعة الإنسان، حاشا الألوهيّة والنُّبوّة.**

إخواني! إن أمامكم طريقين اثنين، لا ثالث لهما، إما أن تنضمُّوا إلى قافلة الإيمان والعلم مع الكسل والخمول، ثم تنفصلوا عنها دون أن تبذلوا الجهد الكافي في إصلاح ذاتكم،

وتكوين شخصيتكم، وإما أن تنضمُّوا إليها وتتفانَوا فيها، ثم تتخرَّجوا منها وأنتم تنشرون نفحات الإيمان والعلم على طرق الإنسانية بعد أن تتقدَّموا إلى الأمام في مدارج السالكين إلى الله تعالى والسائرين إلى العلم.

والطريقان ـ أمامكم ـ مفتوحان، والخيار لكم، فيُمكنكم أن تبذلوا جهودكم وتصلوا إلى قمة النجاح، ولا تحول دون وصولكم إليها أي عقبة، فليس لأحد منكم أي عذر للقول بأنه لم يتمكَّن من العلم والإيمان في هذه المدارس والمؤسسات الدينية، إن لم تقوموا ببذل الجهود المطلوبة لذلك.

المحنة والصراع:

لا يَخفى عليكم أن التاريخ والسِّير موضوع دراساتي وأبحاثي، وإنني أقول، بناء على تجاربي الطويلة وخبراتي الواسعة في هذا المجال: **إن المدارس والكتاتيب لا تستطيع أن تُكوِّن الإنسانَ، بل الإنسان هو الذي يكوّن نفسه بجهده الذاتي، وطلبه الشخصي، وصراعه الطويل مع النفس والشيطان**، فلو نظرتم إلى طبقة الصالحين الكبار تجدون أن أحدهم كان عبدًا متواضعًا، لم يكن له مرشد كامل، ولم تكن له بيئة صالحة إلا أنه قد وصل إلى آخر مدارج الولاية بجهده الذاتي وطلبه الشخصي وعطشه المندفع إلى الأمام، ويمكنني أن أضرب لكم

آلاف الأمثلة من هذا النوع، فقد خرج إبراهيم عليه السلام من بيت آزر المجوسيِّ، ولا نستطيع أن نقول عن والد حجّة الإسلام الغزالي بأنه كان وليًّا كبيرًا، ومع ذلك صار ابنه حجّةَ الإسلام بجِدّه وجهده وحماسه.

اقرؤوا سيرة الإمام عبد القادر الجيلاني رحمه الله، إن والده لم يكن عالمًا، ولا وليًّا مشهورًا، وقد اختارتْ له والدته طريق العلم، وبذلتْ قصارى جهودها لحصول ابنِهما على أعلى التعليم الموجود في وقته، وبذل هو أقصى جهوده في طريقه، وقصة ذهابه إلى بغداد مشهورة، فماذا كان في ذلك؟

إنها قصة التفاني العجيب في الطلب، والصراع الطويل في سبيله.

إن الرقيَّ والتقدُّم ليسا وراثيَّين، ولو كان كذلك لما وصل إليه عبد القادر، الذي كان والدُه وجدُّه فلاحين متواضعين، ومع ذلك ماذا صار؟ إنه وصل إلى الرتبة التي يُنْظر إليها بعين الغبطة!

أعزائي! إن ذلك كله كان بسبب الجهد والطلب والعزم والصبر والمصابرة والطموح، يقول الشاعر الأردي: إما الوصول إلى حضنِ الحبيب، وإما الفناء في طريقه!

هناك بيت أُردّده دائمًا، وأودّ أن أُخطّطه بخط بارز ثم أعلّقه على الجدار، وهو البيت الذي يقول فيه فضيلة الشيخ مولانا

المفتي صدر الدين آزردة[١]: أيها القلب! إن الربح كله في تجارة

---

(١) هو صدر الصدور المفتي صدر الدين بن لطف الله الدهلوي، أحد نوابغ الهند في العلوم الإسلامية والفنون الأدبية، وُلد ١٢٠٤هـ بدهلي، وأخذ العلوم الإسلامية عن العلامة رفيع الدين بن ولي الله الدهلوي، كما أخذ العلوم الفلسفية والمنطق عن العلامة الثائر فضل إمام الخير آبادي، وأخذ الحديث النبوي الشريف عن العلامة محمد إسحاق بن أفضل بن عبد العزيز الدهلوي، كما استفاد من علامة الهند الكبير عبد العزيز بن ولي الله الدهلوي، حتى برع في العلوم الإسلامية والفنون الأدبية، وصار مرجع العلماء والفقهاء والأدباء والشعراء، فكان إذا تحدث في موضوع ظنّ السامع أنه لا يُحسن غيره، وكان العلماء يعدُّونه منهم والشعراء يحسبونه منهم! تولَّى صدارة دار المُلك لمدة طويلة، وهي منصب حكومي لا يتولاها إلا من كان يمتلك ناصية العلوم المختلفة، ويقال له صدر الصدور، ولقبه الشاعري آزرده أي الحزين.
كان مع ثرائه العلمي والأدبي يعيش في رغد من الحياة، حتى ثارتْ ثورة الهند الكبرى ضد الحكومة الإنجليزية، وأفتى الشيخ الذي كان مفتي دهلي آنذاك بفريضة الجهاد ضدها، فصادرَ الإنجليز أمواله، ونهبوا مكتبته التي كانتْ تحتوي على نوادر الكتب القيمة، تُقدَّر قيمتها بـ (٣٠٠) ألف روبية هندية قديمة!
لزم بيته بعد هذه الحادثة، واشتغل بالعلم إلى آخر حياته، وأعاد مياه الحياة إلى مدرسة دار البقاء التي أسّسها الملك المغولي شاه جهان=

الحبّ، والخسارة الوحيدة التي يمكن أن أتكبّدها في هذا الطريق هي: فقدان هذه الحياة الحقيرة، وهل تساوي هذه الأخيرة شيئًا أمام ذلك الرِّبح العظيم؟

إنه لا يرى ذهاب حياته في الحصول على غايته المنشودة أيَّ شيء! فما هذه الفلسفة يا تُرى! إنها فلسفة الحبِّ التي تُشعل في قلب المحبِّ نيرانَ المحبّة، فيضطرب، ولا يستقر حتى يصل إلى المقصود، وإنْ كان دونه الفناء، وهو لا يساوي شيئًا أمام ذلك المقصود العظيم!

اقرؤوا قصة الشيخ مخدوم البهاري(١)، فإنه لما أبحر بسفينة الحياة في عُرض بحر العلم، لم يَلوِ على شيء، وكانتْ تأتيه الرسائل والمكاتيب من أهله وذَويه، فيضعها في سلة مُقفَلة،

= على مقربة من جامع دهلي الكبير، وكان يتكفَّل بنفقات طلبة العلم الذين يدرسون بها، ويقوم بتدريسهم العلوم الإسلامية والفنون الأدبية.
ألّف الشيخ مؤلفات قيّمة في كثير من العلوم، من أهمها: منتهى المقال في شرح حديث «لا تُشَدُّ الرِّحال»، والدّرُّ المنضود في حكم امرأة المفقود، ومجموعة الفتاوى، توفيّ سنة ١٢٨٥هـ بدهلي، ودُفن هناك، رَحِمَهُ الله رحمة واسعة، ورضي عنه، وجعل الفردوس مثواه.
يُنظر: الحسني، الإعلام بمن في الهند من الأعلام، مصدر سابق، ج٧، ص٩٩٢.

(١) لم أجد ترجمته.

ولا يفتحها؛ لأنه كان يرى أن هذه الرسائل وأخبارها ومضامينها تصرفه عن طريق العلم!

ولما انتهى من طلب العلم فتح سلّة الرسائل، وبدأ يقرؤُها، فكان يضحك تارة من الأخبار السّارّة، ويبكي تارة أخرى من الأخبار الحزينة!

هذه هي الصورة الأولى التي لم تتهيّأ فيها أسباب العلم والعرفان، ومع ذلك وصل سالكوها إلى منازلهم الواقعة في قِمَم السماء.

لكن في المقابل نجد بعض الطلاب الذين تشرَّفوا بالولادة في بيت العلم والفضل، فكان آباؤهم وأمهاتهم وأولياء أمورهم علماءَ فضلاء، ورجالاً صالحين، وقد توافر في بيوتهم جميع وسائل العلم، غير أن هؤلاء لم يكن لديهم العطش إلى العلم، والحرص عليه، والرغبة إليه؛ لذا لم يصلوا إلى شيء، فلم تكن لهم قيمة في سوق العلم والعرفان؛ لأن الوصول إلى المنازل المقصودة يكون بعد قطع المسافة المحدَّدة وسير الطريق المحدَّد ومجاهدة النفس وبذل الجهد، وتحمل الصعاب، وهؤلاء لم يدفعوا هذه الضرائب، يقول الشاعر: إن الحِنّاءَ لا يُلوِّن البشرةَ إلا بعد أنْ يُدَقَّ تحتَ وطأة الحجر!

فالإنسان لا يستطيع الوصول إلى غايته ما لم يدفع الثمن

اللازم له، وها هما الصورتان أمامكم، صورة أولاد البسطاء والعامة، وقد وصلوا إلى ذروة النجاح والرقيِّ، وصورة أولاد كبار العلماء والأولياء، ولم يصلوا إلى شيء.

ومن هنا أقول لكم: إن بإمكانكم أن تصلوا إلى رتبة حجّةِ الإسلام وشيخ الإسلام وأنتم في مدرسة صغيرة، في حين أنكم لن تستطيعوا أن تصلوا إلى شيء رغم تخرُّجِكم من أعرق الجامعات وأفضل المعاهد؛ لأن الأمر مبنيٌّ على الإرادة الصارمة، والعزم الصادق، والجهد المطلوب؛ فاعقدوا العزم الآن وأنتم جالسون في بيت الله تعالى.

فإنْ قيل لكم: إن هناك جوهرة ثمينة تحت ثيابكم لاضطرب كل واحد منكم لأجلها؛ لأنكم تعرفون قيمتها، وإنني أقول لكم بكل تأكيد: إن لدى كل واحد منكم جوهرة ثمينة لا يستطيع العالم بأسره أن يدفع ثمنها، ولا تستطيع جميع ممالك الدُّنيا شراءها، وهي **قيمة الذات والصلاحية والموهبة**، وقد قال أحد العارفين: لا أحد يستطيع أن يدفع قيمة نفسي!

أعزائي! لا بد لكم أن تعرفوا قدر نفوسكم، ولا تستصغروا ذواتكم، وأن تدركوا بيقين أن مستقبلكم بيد الله تعالى، الحي القيوم، وهو لن يُضيِّعكم، ولكنْ بشرط أن تهتمُّوا بالجوهرة التي بين جوانحكم، وتبذلوا طاقتكم في صناعتها وصياغتها والعناية بها.

إنكم تستطيعون أن تكسروا الحجر مرارًا لتصنعوا منه ما تُريدون، وتستطيعون أن تُذيبوا النّحاس تكرارًا لتفعلوا منه ما تشاؤون، غير أن ذلك لن يُجدي نفعًا مع الجوهرة؛ لأنها لا تقبل التغيير إلا مرة واحدة، فما تريد أن تصنعه منها فلا بدَّ أن تصنعه في المرة الواحدة.

إخواني! إنني أقول بكل بوضوح وصراحة: إنكم تستطيعون الوصول إلى أية غاية ومنزلة، حاشا الألوهية والنبوة، فمن كان يظن أن في أغوار الهند يُولَد هؤلاء الدعاة العظماء، كأمثال الشيخ محمد إلياس(١)، والشيخ محمد يوسف

---

(١) هو الداعية الكبير محمد إلياس بن محمد إسماعيل الكاندهلوي، مؤسس جماعة التبليغ، وُلد عام ١٣٠٣هـ، وتربّى في بيت علم وخلق ودين، حفظ القرآن الكريم وهو صغير، ثم بدأ الدراسة الأولية عند والده في منطقة نظام الدين بدهلي، ثم ارتحل إلى غنغوه عند أخيه الشيخ محمد يحيى، ودرس على يديه، واستفاد من الإمام رشيد أحمد الغنغوهي علمًا وعملًا وخلقًا وسلوكًا، ثم ارتحل إلى دار العلوم بديوبند، وتخرج منها عام ١٣٢٦هـ.
عيِّن مدرسًا بمدرسة مظاهر العلوم بسهارفور عام ١٣٢٨هـ، ثم انتقل إلى منطقة نظام الدين بسبب وفاة أخيه الكبير عام ١٣٣٦هـ، وساءتْه أحوال المسلمين وبُعدهم عن تعاليم الدين، فبدأ أعماله الدعوية مع نشاطاته العلمية في منطقة نظام الدين، حيث كان يدعو عوامّ الناس=

الكاندهلوي[(١)]؟ ومن كان يدري أن الهند تلد هؤلاء العلماء

= إلى الصلوات والاهتمام بأحكام الدين، ثم انتشرتْ الدعوة إلى أرجاء شبه القارة الهندية، ومنها إلى العالم كله.
كان الشيخ يواصل نهاره بليله بدعوة الناس إلى الإسلام، لم ينقطع عنها حتى آخر يوم من حياته، وتوفي ليلة الخميس ٢٣ رجب ١٤٦٣هـ الموافق ١٩٤٤م بعد جهود دعوية وعلمية كبيرة، وصلَّى عليه ابن أخيه وزوج بنته شيخ الحديث العلامة محمد زكريا الكاندهلوي رحمه الله، وكانتْ جنازته مشهودة مشهورة، ودُفن بمقبرة نظام الدين بدهلي.
وكان الشيخ رحمه الله كثير الاتباع للسنة النبوية الشريفة، وفائض الدموع والدعاء، وشديد الغمِّ لأحوال المسلمين، ووافر الاهتمام بسير الصالحين وكثير العبادة والذكر منذ صغره، حتى قال شيخه شيخ الهند العلامة محمود حسن الديوبندي: «إن رؤيته تذكّر بسير الصحابة الكرام رضي الله عنهم!»، رحمه الله رحمة واسعة، وأنزل على قبره شآبيب الرضوان، ورفع درجاته في عِلِّيين. يُنظر: الندوي، أبو الحسن علي الحسني، حضرت مولانا محمد إلياس أور آن كي ديني دعوت (الشيخ محمد إلياس ودعوته الدينية) باللغة الأردية (لاهور، طيب فبليشرز، د.ط، ٢٠٠٩م).

(١) هو المحدث الداعية محمد يوسف بن محمد إلياس بن محمد إسماعيل الكاندهلوي، أحد كبار العلماء الدعاة في الهند، وُلد عام ١٣٣٥هـ ببلدة كاندهلة، ونشأ في بيت دين وخلق وعلم ودعوة، حيث عاش في كنف والده العلامة محمد إلياس، مؤسس جماعة التبليغ. =

. . . .

= حفظ القرآن الكريم في الصغر، ثم تلقَّى العلوم على يد والده، وتخرّج من جامعة مظاهر العلوم بسهارنفور عام ١٣٥٤هـ.
حُبِّب إليه العلم، واشتغل به تدريسًا وتأليفًا، وبدأ بتأليف شرح واسع لشرح معاني الآثار للإمام الطحاوي رحمه الله، ولكنه لم يستطع التكميل، كما ألّف كتاب حياة الصحابة الذائع في الآفاق.
اشتغل بالدعوة إلى الله تعالى، وقد ملكتْ عليه قلبَه وقالبه، فكان يُسافر إلى أقطار شبه القارة الهندية البعيدة لأجلها، ويُمضي أكثر أوقاته فيها، مع الاهتمام بالتأليف والتصنيف، وقد أسند العلماء والدعاة أمر جماعة التبليغ إليه خلفًا لأبيه عام ١٣٦٣هـ، فاهتم بنشر الدعوة بين العرب، حيث كان يراهم أولى الناس بالقيام بدعوة الإسلام الخالدة، فأرسل الجماعات إلى أقطار الحجاز، وأفريقيا، وبلاد الشام، ومصر والسودان، كما أرسل الجماعات إلى دول أوربا وآسيا وأفريقيا.
رجع الشيخ من حجّته الأخيرة عام ١٣٨٣هـ، ثم قام بجولات واسعة إلى محافظات باكستان الموحدة بشقيها الشرقي والغربي، وعقد اجتماعات كبرى فيها، لا سيما في بنغلادش الحالية، وحضر هذه الاجتماعات الملايينُ من المسلمين، وعند عودته إلى الهند مرّ بلاهور، ووافتْه المنية الحتمية هناك قبل أن يصل إلى الهند، ونُقل جثمانه إلى نظام الدين، وصلَّى عليه العلامة محمد زكريا الكاندهلوي، وقد حضر جنازته جمع غفير من الناس، ودُفن بجوار والده في نظام الدين بدهلي، رحمه الله رحمة واسعة، وأسكنه فسيح جنانه. يُنظر: =

الكبار الذين تزدان بهم سماء هذه البلاد؟ وتلك السلسلة جارية حتى الآن، فاعزموا أمركم الآن، وشدّوا أمركم بأنه يحرم عليكم الخروج من هذه المؤسسة إلا بعد أن تصلوا إلى ما تصبون إليه من العلم والتُّقى، وعندئذ تكون جميع قوى الأرض مُسخَّرة لكم، ومُطيعة لأمركم، يقول الشاعر الأردي: لو وُجد قائدٌ مثل موسى الكليم عليه السلام في المعركة فإن مقولة [لَا تَخَفْ] جاهزة لِتَخرُجَ من شجرة الطُّور حتى الآن.

الإخلاص والاختصاص:

إن ذلك الصوت الأبدي القائل: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾ موجود إلى الآن، فماذا تخافون بعد ذلك؟ الرِّزقَ؟ ووسائل المعيشة؟ والعيش الرغد؟

نعم، إنها كلها تتوفَّر لكم بشرط أن تتسلَّحُوا بسلاحين أساسيَّين:

١ ـ الإخلاص.

٢ ـ الاختصاص.

= الحسني، محمد الثاني، الشيخ محمد يوسف الكاندهلوي حياته ومنهجه في الدعوة، تعريب: جعفر مسعود الحسني الندوي (بيروت، دار البشائر الإسلامية، ط١، ٢٠٠٤م)، والغوري، سيد عبد الماجد، أعلام المحدثين في القرن الرابع عشر الهجري (دمشق، دار ابن كثير، ط١، ١٤٢١هـ) ص١١٢ ـ ١٢٠.

وهذان الأمران يكفيان لوصولكم إلى أي غاية تنشدونها، واعلموا بيقين أن ما يقوله العالَم أجمعُ خطأ إذا تعارض مع ما قاله الله تعالى ورسوله، فإن ما يقوله الله ورسوله هو الحق، الذي لا حقَّ سواه.

وختامًا أقول للأساتذة الفضلاء: أعينوا هؤلاء الطلاب في الوصول إلى أهدافهم؛ لأن أمامكم الآن آلافَ الجواهر الثمينة، وهي نعمة خالصة من الله تعالى، فإلى أين تذهبون للبحث عن الأحجار؟ وأين تَصبُّون مواهبكم وذكاءكم إنْ لم تضعوها هنا؟

إنني درستُ في مدرسة كان الطلاب فيها يُعطَون الخبز الحافي مع خمسة قروش لشراء المرق، وكنا نشتري بها المرق الذي لا يُستساغ عادة، ونأكله، ولا نبالي به، فكنا ننشغل بأعمالنا ودراستنا عن التفكير في المرق ولذّته، ونضع أمامَ أعيُنِنا الغايةَ التي تلوحُ لنا من بعيد، فلا يصحّ لكم بعد أن سمعتم هذا أن تشتكوا من قلّة الخدمات الموجودة هنا، نعم، لا يجوز لكم ذلك بأي حال من الأحوال.

إننا نقرّ بأن المرافق المتوفرة هنا غير كافية، فلو حصلتم على كسرة خبزٍ فكلوها واشكروا الله تعالى عليها، واصبروا عليها، ولا تُفكِّروا في غيرها.

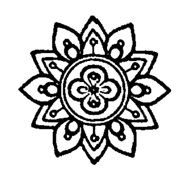
التفاني في الوصول إلى الغاية:

وأقول مرة أخرى: ابذلوا جهودكم للوصول إلى الأهداف السامية التي تنشدونها، ولا تلتفتُوا إلى غيرها، لا إلى سمن البدن، ولا إلى كثرة المال، ولا إلى زخارف الحياة، وعيشوا هنا صابرين شاكرين سعداء، وحينئذ يُسخِّرُ الله تعالى لكم العالَم أجمع، كما أعلن ذلك في كتابه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾ [مريم: ٩٦]، وهذه المودّة مُستلزِمة للتَّسخير، وحين تغدون من أوليائه الصالحين فلا تحتاجون بعده إلى شيء من متاع الدنيا الفانية، ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الفتح: ٢٣].

أعزائي! جِدُّوا في الطلب، وانسوا كلَّ شيء سواه، انسوا موائد الطعام اللَّذيذ والشراب البارد والملابس الجميلة الفارهة، وضعوا الغاية والهدف أمامكم، ثم سيروا على بركة الله تعالى، فلو صرتم أصحاب الكمالات الظاهرة والباطنة فإن العُقبى في الدارين تكون لكم.

وفَّقكم الله تعالى لذلك، وما ذلك على الله بعزيز.





تحدّيات العصر الحاضر
وطرق التّصدّي لها

في ١٢ أغسطس عام ١٩٧٢م ألقى الشيخ الندوي هذه المحاضرة في قاعة دار العلوم بديوبند الفسيحة، وقد ترأس الحفل أمير الشريعة بولاية بهار وأريسا الشيخ منة الله الرحماني، وشارك فيها كِبار العلماء ومسؤولو الجامعات والمدارس وأعضاء مجلس الشّورى لدار العلوم، وسُجّلتْ المحاضرة حين إلقائها، وفرّغها إلى الألفاظ المكتوبة فيما بعد كلٌّ من الشيخ واحد فياض الجلالفوري، والشيخ محمد شعيب خان الكوتي وغيرهما، ثم قام الشيخ الندوي ببعض التعديلات المناسبة، ووضع لها عناوين جانبية، فنُشرتْ كرسالة مستقلّة من قبل المجلس الإسلامي للنشر والتحقيق.



الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على مَن لا نبيَّ بعدَه، وعلى آله وصحبه ومن والاه، وبعد:

معالي رئيس الحَفل والإخوة الأعزاء! أودّ أن أعرض أمامكم اليوم شيئًا من أحاديث نفسي الخفيّة وأفكار عقلي المَخفيّة؛ لأني أراها مُهمّةً جدًّا في هذا الوقت.

قد أُتيحتْ لي فرصُ الحديث في محافل كبار العلماء وطلبة المؤسسات العلميّة والجامعات العريقة في شتّى بلاد العالم، غير أني أقولها صراحة بأن الحديث إليكم له معنًى آخر ووقعٌ آخر؛ لأنه أمر ذو وجهين؛ فهو أمر مُشرِّف من جانب وذو مسؤوليّة كبيرة من جانب آخر، وأنا في نفس الوقت أُقدّر هذا الاهتمام الكبير الذي تُولونني إياه، فأسجد لله شاكرًا.

كنتُ أحضر إلى هذه الجامعة العريقة في فترة ماضية بصفة طالبِ العلم، ولا أظنُّ أن هذه الجامعة التي كرّستْ نفسَها للعلم وطلابه رمتْني من ذاكرتها الحيّة، حيث كنتُ أجلس جاثيًا أمام شيخ الإسلام السيد حسين أحمد المدني رحمه الله بصفتي طالبًا للحديث النبويّ الشَّريف، وكان ذلك باعثَ شرف عظيم لي وسعادة كبيرة، وأحمدُ الله تعالى عليها كثيرًا، وأرجو منه سبحانه المثوبةَ الجزيلة والرَّحمة الغزيرة الكثيرة.

ومهما أبديت من اعتزاز بهذه العلاقة الروحيّة التي تربطني بهذه

المؤسسة العريقة فإنّ ذلك يُعَدُّ قليلاً في حقِّها، غير أن تاريخ علاقتي الحقيقية بها أقدم من هذا وأرسخ، حيث بدأتْ علاقتنا الروحيّة بهذه الأرض الوَلود من عدّة أجيال سابقة، وقد روّى أسلافنا هذه الأرض الطيّبة بدموعهم الطاهرة ودعواتهم المباركة[١]، وما زال نسيمُها الفواح يحمل عبقَ روائِحها المُنعشة، وقد رحلوا عن هذه الأرض بعد أن أعدُّوا القافلة، وجهَّزوا الرحلة!

أحمل في قلبي شعورَ الاعتزاز والمسؤوليّة معًا لكلٍّ هذا، ولا أراني مُنفصلاً عنكم الآن أيُّها الإخوة؛ حيث كنتُ طالبَ علم، ولا زلتُ كذلك، وأرجو أن يستمرَّ ذلك إلى آخر لحظة من حياتي.

إن حياتي قد رُبطتْ بالعلم وطلابه، وغايةُ نفسي أن تبقى كذلك أبدَ الدهر، ويمكن أن أتمثَّل لكم بالكلمات النبويّة التي خاطب بها صاحبُ النبوّة ـ عليه أفضل الصلاة والتّحيّة ـ الأنصارَ وأهل المدينة المنورة مُقتفِيًا أثره المبارك: «المَحيا مَحياكُم، والمَماتُ مَماتُكم»[٢]، وأسأل الله تعالى أن يتقبَّل دعائي ويُحقِّق رجائي.

---

(١) يشير إلى قافلة الإمام الشهيد السيد أحمد بن عرفان الحسني ورفاقه، مثل العلامة محمد إسماعيل الشهيد، والعلامة عبد الحي البرهانوي وغيرهم الذين أقاموا في هذه الولاية مدّة من الزمن قبل الرحيل إلى أرض الجهاد (يُنظر: سيرة السيد أحمد بن عرفان الشهيد للمؤلف).

(٢) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب فتح مكة، رقم الحديث: ١٧٨٠.

الباعث الأول وراء تأسيس دار العلوم بديوبند:

أعزائي الطلبة! إنكم تنتمون إلى هذه الجامعة العريقة بصفتكم طلابها المغترفين من مَعينها، والسُّعداء بانتسابكم إليها، فأسألكم أنتم: ما الغاية التي بُني عليها هذا الصَّرح العلميُّ الكبير؟ وما الذي يُميّزه عن غيره؟

ولا شكّ أن لديكم إجاباتٍ مُفصَّلةً ومقبولة ومعقولة لهذه الأسئلة، فلو قلتم: إن بناءَها كان بهدف نشر العلم، فلا يستطيع أحدٌ إنكاره، ولو قلتُم: إن بناءها كان على أساس الإخلاص والتَّفاني في الله تعالى لكنتم صادقين فيه بدون شكّ، ولو قلتُم: إن تأسيسَه كان على أساس إحياء السُّنّة وإزالة البِدعة فلا يملكُ أحدٌ رفضَه، وكلُّ هذه الأجوبة تستحقُّ التَّقدير والاحترام.

ومهما عدَّد الإنسان من الخصائص والمميزات لهذه الجامعة العريقة فإنها تُعَدّ قليلة بالمقارنة مع عُلو منزلتها، غير أن هذه الخصائص والمميزات يشترك فيها جميع المؤسسات العلمية الدينية، مع ملاحظة الفارق في الرُّتبة والدَّرجة؛ لأن جميع المدارس الإسلامية أُسِّست على هذه الأسس المذكورة، وإليها تنتسب، وعليها تعتمد في قيمتها ومكانتها، ولكن الميزة الأساسية التي تمتاز بها دار العلوم ديوبند، والقاعدة الأصلية التي بُنيتْ عليها هذه المؤسسة هي: الحَميّة الدّينية والغَيرة

الإيمانية والحرارة الرُّوحية، وبها تمتاز دار العلوم عن بقيّة المدارس والمراكز العلميّة والتّعليميّة.

التَّصدي للفكر الغربي وثقافته:

وحين بدأ الأعداءُ الاستعدادَ للغزو الفكري على شبه القارة الهندية، وشرعوا يُعِدُّون جيلاً جديدًا لأداء دور غريب في هذه البلاد، تم تأسيس دار العلوم للتّصدِّي لهذا الغزو الفكريِّ وتلك الأفكار الهدّامة التي كانتْ تدعو إلى التخلِّي عن الإيمان بالغيب والإيمان بعقيدة ختم النبوّة، والابتعاد عن الاعتراف برسالة الإسلام وشريعته؛ لِيُؤدِّي دورًا ماديًّا بحتًا قِوامه عبادةُ الحواسِّ والظَّواهر الماديّة(١).

---

(١) وهذا ما صرّح به كل من المخيمين، المخيم الإسلامي والمخيم البريطاني الغربي، حيث قال المندوب البريطاني في الهند توماس ماكولي - رئيس لجنة تطوير التعليم الهندي التي تأسستْ سنة ١٨٣٨م - في بيان هدف التعليم الإنجليزي لأهل الهند: «A class of person; Indian in blood and color, but English in taste, in opinion, in morals and in intellect»
أي تخريج «طبقة يكون هنديَّ الدم واللون، وإنجليزيَّ الذوق والرأي والخلُق والعقل»، وكتب في رسالة إلى والده:
«It is my firm belief that if our plans of education are followed up, there will not be a single idolater among the =

اختيار الميدان الصحيح للعلم:

وحينَ انطفأ نور السِّراج الخافت للسّلطنة المغولية الإسلامية على يد الإنجليز الآثمة، رأى العلماء أصحاب الفراسة الإيمانية أن قضاء الوقت في محاولة إبقاء هذا النور الخافت والدفاع عن هذه الشجرة التي استُؤصلتْ جذورُها لا يمكن إلا بمعجزة خارقة، وكأن مقولة المؤرخ الفيلسوف ابن خلدون: «**الهرمُ إذا نزلَ بالدَّولةِ لا يَرتفِعُ**»(١) كانتْ نصب أعينهم، وكانوا يُدركون أن هذه المؤسسة التي نخرتْها دُودةُ الهرمِ والموت لا يُجدي الدِّفاعُ عنها(٢)، فحاولوا

= respected classes in Bengal thirty years since. And this will be affected without any efforts to proselytes،

«واعتقادي الجازم بأن خطتنا التعليمية لو طُبِّقتْ (في الهند) لا يبقى أي مؤمن في الطبقة البنغالية المحترمة خلال ثلاثين سنة، وسيحدث هذا دون أية جهود ارتدادية»، (يُنظر: مشتاق، الدكتور أحمد: دور العلماء في حركة الاستقلال ضد الاستعمار (داكا، مكتبة نادية القرآن، د.ط، ٢٠٠٦م) ص٣٦)، وأما كلام علماء الإسلام بهذا الصدد فسيأتي في الكتاب بعد قليل.

(١) ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد الإشبيلي، المقدمة، تحقيق: إبراهيم شبوح وإحسان عباس (تونس، القيروان للنشر، ط١، ٢٠٠٦م) ج١، ص٥٠٣.

(٢) كلام الشيخ رحمه الله هنا يجري على تقرير الجهود التي بذلها العلماء =

أن يستعملوا مواهبهم بإخلاص وأمانة لصالح الإسلام، وقرَّروا الحفاظَ على العقيدة الإسلامية الصحيحة وتراث الحضارة الإسلامية العريقة في هذه البلاد، فكانوا على يقين تامٌّ بأن التشريع الإسلاميَّ والقرآن الكريم والتراث الحضاري للأمة المسلمة وأصول الإسلام وأُسُسه لا تسير حسب مقتضيات القانون الطبيعي للحياة والموت، والشيخوخة والشباب، والتقدُّم والتخلُّف.

= والدعاة في الحفاظ على الشخصية الإسلامية بعد انقراض الدولة الإسلامية، وليس القصد منه تفصيل الأحداث التاريخية التي جرتْ في تلك المرحلة من الزمن، ولهذا لم يُشِرْ هنا ـ ولو من بعيد مع علمه المفصل بها وكتاباته الكثيرة عنها ـ إلى تلك الجهود الكبيرة التي بذلها العلماء الكبار والدعاة الأبرار والمسلمون الغيورون للحفاظ على الدولة الإسلامية الهاوية بقوة إلى حاوية الانحطاط، وخاضوا لأجلها المعارك الدامية، وتحمَّلوا في سبيلها البطش والظلم والأذى من الحكومة الإنجليزية الجائرة، ولعل معركة واحدة مثل معركة بلاكوت ومعركة شاملي وغيرهما شاهد صدق على ذلك، والتي كانت القيادة المركزية فيها بيد العلماء، أمثال الإمام أحمد بن عرفان الشهيد، والعلامة محمد إسماعيل الدهلوي سبط الإمام وليّ الله الدهلوي، وحجة الإسلام محمد قاسم النانوتوي والإمام الحاج إمداد الله المهاجر المكي وغيرهم، وقد وردتْ إشارات منها في ثنايا كلام المؤلف رحمه الله فيما سبق، وسوف يأتي شيء منها فيما بعد، كما ترد إشارات منها في التراجم الموضوعة لهم في الهامش، رحمهم الله تعالى أجمعين.

وحقيقة قوله تعالى: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢]، وقوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣] إعلان شامل وضمانة إلهيّة كاملة لاستمرار هذا الدين العظيم وسير قافلته، فلم يبذلوا طاقاتهم للحفاظ على ميراث العلوم النبويّة والثقافة الإسلاميّة فحسب، بل وسَّعوا دائرة أعمالهم ومدّدوا نشاطاتها إلى شريان الحياة الإنسانية.

فكان من توفيق الله تعالى لهم وفضله عليهم أن وجَّهَهم وجهودَهم إلى الميدان الصحيح، وأيُّ خطأ، مهما كان صغيرًا، في هذا المقام يمكن أن يُؤدِّي بالأمّة إلى مائةِ سنة إلى الوراء، ولا يُمكن جبرُها بأيٍّ تعويض.

ميزة الشيخ محمد قاسم النانوتوي:

إن الحماسة والحَميّة والغَيرة والحرارة التي اكتوتْ بنيرانها شخصية الإمام محمد قاسم النانوتوي[1] ورفاقه الأجِلاء كالشيخ

(١) هو الإمام حجة الإسلام محمد قاسم بن أسد علي بن غلام شاه الصديقي النانوتوي، أحد عظماء الإسلام في شبه القارة الهندية، وُلد في نانوتة عام ١٢٤٨هـ، سافر إلى دهلي، ولازم الشيخ مملوك علي النانوتوي، ودرس عليه جميع الكتب الدراسية، وأخذ الحديث عن العلامة عبد الغني بن أبي سعيد الدهلوي، وبايع المصلح الكبير=

. . . .

الشيخ إمداد الله المهاجر المكي، واشتغل في المطبعة الأحمدية عند الشيخ أحمد علي السهارنفوي، مُحشّي صحيح البخاري الشهير، وكتب الحاشية على الأجزاء الخمسة الأخيرة لصحيح البخاري مع تحقيق متون الحديث، وكان مع علمه الغزير يبتعد عن الأزياء الخاصة بالعلماء من العمامة والطيلسان وغيرهما.
ولما ثارتْ ثورة عام ١٢٧٣هـ ضد الحكومة الإنجليزية بالهند، اتهمتْه الحكومة بالبغي والخروج على الحكومة (!) فاختفى فترة من الزمن، ثم عاد إلى الظهور، وكان يسترزق بتصحيح الكتب في المكتبة المجتبائية، وشارك في تأسيس دار العلوم مع الشيخ عابد حسين النانوتوي، وصار مديرًا لها فيما بعد.
دافع عن العقائد الإسلامية ضدَّ الشبهات الآرية، وناظرهم، وجادلهم، وأسكتهم بالحجج والبراهين، كما ألّف كتبًا كثيرة في مجالات عدّة، منها: قبله نما (كتاب القبلة)، وتقرير دلبذير (المحاضرات الروحية)، وآب حياة (ماء الحياة)، وحجة الإسلام، والدليل المُحكَم، وهدية الشيعة، وتحذير الناس، والحقّ الصريح في بيان التراويح، وتصفية العقائد، واللطائف القاسمية، والتحفة اللحمية، وقاسم العلوم وغيرها، تُوفيّ سنة ١٢٩٧هـ في ديوبند، ودُفن بها، رحمه الله رحمة واسعة، وجعل الفردوس مأواه. يُنظر: الحسني، الإعلام بمن في الهند من الأعلام، مصدر سابق، ج٧، ص١٠٦٧ ـ ١٠٦٨، والمبارك فوري، محمد عارف جميل القاسمي، =

رشيد أحمد الغنغوهي[1] وغيره كانتْ صادقة مُخلصة، وعليها أُسِّستْ هذه المؤسَّسة.

= لمحة عن الجامعة الإسلامية دار العلوم ديوبند ومناهجها ومقرراتها الدراسية (ديوبند، إدارة القبول والتسجيل بديوبند، ط١، ١٤٣٧هـ) ص٩ - ١١٠.

(١) هو المحدث الفقيه رشيد أحمد بن هداية أحمد بن فير بخش الأنصاري، أحد فقهاء الهند النوابغ، وُلد ببلدة غنغوه عام ١٢٤٤هـ، وقرأ الرسائل الفارسية والنحو والصرف هناك، ثم سافر إلى دهلي ولازم الشيخ مملوك علي النانوتوي، وقرأ عليه أكثر الكتب الدراسية، وقرأ التفسير والحديث على الشيخ عبد الغني الدهلوي والشيخ سعيد أحمد الدهلوي، حتى برع في المنقول والمعقول، واشتغل بالتدريس في بلده غنغوه، واعتُقل سنة ١٢٧٦هـ بتهمة الخروج والبغي على الحكومة الإنجليزية (!) في الهند ثم أُفرج عنه.
اشتغل في آخر عمره بتدريس الصحاح الستّة، وكان آية من آيات الله تعالى في الدقّة والبراعة في التفسير والحديث والفقه وغيرها، قال الحسني في الإعلام بمن في الهند من الأعلام: «انتهت إليه الإمامة في العلم والعمل ورئاسة تربية المريدين، وتزكية النفوس، والدعاء إلى الله وإحياء السنة وإماتة البِدَع».
وقد رُزق بتلاميذ بارعين وطلاب نبهاء قلَّ من يجتمع له مثلُهم، منهم: الشيخ خليل أحمد السهارنفوري، والشيخ محمود حسن الديوبندي، والشيخ عبد الرحيم الراي فوري، والشيخ حسين أحمد=

وكان الإمامُ صاحبَ اجتهاد كامل في العلوم الإسلامية، وقد منحه الله تعالى الحكمة والنُّبوغ في علم الكلام وعلم السلوك والتزكية، وكُتُبُه مثل آب حياة (ماء الحياة) وتقرير دل فذير (المحاضرات الروحية) وحجة الإسلام وغيرها شاهدة عليها، غير أن الميزة الكبرى التي كان يمتاز بها الشيخ أن الله تعالى أعطاه نصيبًا وافرًا من الحَمِيّة الدينيّة، كما شرّفَه بعقل مُتواصل الفكر، وقلبٍ شَفوقٍ بمصالح الأمة، فكان يرى بعين البصيرة أن الهند التي أفنى فيها علماؤنا السّابقون جميعَ مواهبهم، وقدَّموا في سبيلها تلك المآثر والتَّضحيات التي لا يوجد لها نظير في الممالك الإسلامية الكبرى، حيث كانوا أمثلة حيّة لِعُلُوِّ الهِمّة الإسلامية الماضية وقوتهم الاجتهادية وعزمهم الشديد، وقد ضربوا أروع الأمثلة، ليس فقط في خدمة العلوم الإسلامية، بل

= الفيض آبادي، والشيخ محمد يحيى الكاندهلوي، والشيخ ماجد علي المانوي، والشيخ حسين علي ألواني وغيرهم، ومن مؤلفاته: الكوكب الدريّ شرح جامع الترمذي، وتصفية القلوب، وإمداد السلوك، وهداية الشيعة، وزبدة المناسك، وهداية المعتدي، وسبيل الرشاد، والبراهين القاطعة في الردّ على الأنوار الساطعة، ومجموعة رسائل الشيخ، تُوفي سنة ١٣٢٣هـ بغنغوه، ودُفن بها، رحمه الله تعالى رحمة واسعة، وأسكنه فسيح جنانه. يُنظر: الحسني، الإعلام بمن في الهند من الأعلام، مصدر سابق، ج٨، ص١٢٢٩ ـ ١٢٣١.

في تطويرها والإضافة إليها، وقدّموا للمكتبة الإسلامية تلك الكتب النادرة التي ليس لها مثيل في طول التاريخ العلمي الإسلامي وعرضه، فكان الشيخ يتساءل في نفسه: هل يُمكن أن يُترك هذا العالم العلمي الكبير تحت رحمة الفكر الغربي ورجاله؟ وهل يُمكن أن نرى بأعيُنِنا أولادَ الأُسَر الصِّدِّيقيّة والفاروقيّة والعُثمانيّة والعَلَويّة وفلذات أكباد الأشراف والأسياد والمسلمين يقعون فريسةً سهلة على أيدي الإنجليز الآثمة؟

إن الأُسَرَ التي جعل الله تعالى أفرادها سببًا في هداية آلافٍ مؤلَّفة من حَيارى البشر في هذه الديار، وتعرَّفوا عن طريقهم على مناهل العلوم النبويّة، والذين احتضنوا سراج الإسلام بصدورهم في وجه السُّيول العارمة والفيضانات الجارفة، هل يمكن أن نترك أولاد هؤلاء الدُّعاة والمجاهدين الغزاة والعلماء الكبار يختلعون عن آداب الإسلام وقواعده وشريعته وسُنّتِه؟ فيقعون في أيدي الإنجليز المتوسِّخة، عُبّاد المادية المحضة! هل يُمكن أن يُعلِنَ الإنجليز بحكم الإعدام على مناهجهم العلمية والخُلقية ويجعلونهم إنسانًا آخر يختلف عن سِيَر آبائهم وسرائر أسلافهم؟ ذلك الإنسان الجديد الذي ينظر إلى الدُّنيا على أنها غاية الحياة وهدف الوجود، ولن تبقى لهم أي علاقة مع ماضيهم التّليد وأمجاد آبائهم المجيدة إلا علاقة الاسم ونسبة الدم! هل يُمكن ذلك؟؟

هذا السؤال الخطير ظهر في صورة مشكلة مُستعصِية أمام الشيخ محمد قاسم النانوتوي، فأسَّس دار العلوم ديوبند، التي لم تكن مدرسة بالمعنى التقليدي للمدارس والمؤسَّسات التعليميّة والعلميّة عند الناس، فلو قيل بأن هذه المؤسَّسة أُسِّست لتدريس بعض الفنون والفروع من العلوم، وأنها مركزٌ لتحصيل بعض المعارف والمعلومات فإني أعدّ ذلك جريمة تغيير هوية دار العلوم، ولا يمكن أن يكون هناك ظلم أعظم ولا أكبر في حقٍّ هذه المؤسسة من هذا العار، وإن قائلي هذا الكلام ليخجلون بلا شكّ إذا وقفوا أمام أرواح أولئك العلماء العظام والأئمة الكرام.

وقد كان شيخُ الهند[١] يرى في هذه المؤسَّسة قلعةً إسلاميّة

---

(١) هو المجاهد الكبير والمحدث الشهير محمود حسن بن ذو الفقار علي الديوبندي، أحد العلماء الأعلام في مجال التعليم والتربية والجهاد والتضحية في شبه القارة الهندية، وُلد عام ١٢٦٨هـ بمدينة بريلي، ونشأ بديوبند، وقرأ على السيد أحمد الدهلوي والعلامة مملوك علي النانوتوي، والعلامة محمد قاسم النانوتوي، ولازم الأخير ملازمة طويلة، ويُعدّ أول تليمذ لدار العلوم ديوبند، واشتغل بالتدريس بها بعد التخرُّج، وتولَّى رئاسة التدريس فيها سنة ١٣٠٥هـ بعد وفاة العلامة محمد يعقوب النانوتوي وسفر العلامة السيد أحمد الدهلوي. سافر إلى الحجاز، ورفع راية الجهاد ضد الإنجليز، وقاد حركة منديل الحرير الشهيرة ضد الحكومة الإنجليزية في شبه القارة الهندية، =

. . . .

= وهي إحدى الحركات الثورية الكبرى ضد الاستعمار البريطاني في الهند، قادها الشيخ محمود حسن بين الأعوام ١٩١٤ ـ ١٩١٨م بالتعاون مع غالب باشا والي العثمانيين في مكة المكرمة، وأنور باشا وزير الحربية العثماني وغيرهما، وسُمِّيتْ بذلك؛ لأن الشيخ عبيد الله السندي (١٢٨٨ ـ ١٣٦٢هـ)، أحد قادة الحركة وتلميذ شيخ الهند، كتبَ رسالة في منديل بخيوط الحرير إلى شيخ الهند لِيُخفيها عن أعين الجواسيس، ذكر فيها بنود الاتفاق مع والي أفغانستان حبيب الله خان لقيادة الحرب ضدَّ الإنجليز، وقد وقعتْ هذه الرسالة، مع الأسف الشديد، بيد رجال المخابرات البريطانية في الهند، وانكشفتْ الخطة، واعتُقل شيخ الهند في المدينة المنورة عن طريق الشريف حسين الذي أعلن الخروج على الخلافة العثمانية، ونُفي الشيخ إلى جزيرة أندمان سنة ١٣٣٥هـ، ولبث فيها ثلاث سنوات وشهرين ثم أُفرج عنه.

ولما وصل إلى الهند استقبله الناس استقبال الملوك، واحتفَوا به احتفاء الرؤساء، واشتهر أمره، وذاع صيته، وأقبل عليه الناس من كل حدب وصوب، ولُقّب بشيخ الهند، حتى غلب هذا اللَّقب على اسمه، وقد أنهك المرض والحبس والظلم جسمَه، وقضى على قوَّتِه، ومع ذلك كان يقوم بجولات واسعة في مدن الهند الكبرى، ويُلقي الخطب، ويُصدر الفتاوى، ويطالب بمقاطعة الإنجليز، وقد اشتد به المرض في دهلي، حتى وافاه المرض هناك سنة ١٣٣٩هـ، =

وحصنًا منيعًا لمعسكر الإسلام، وأنها ثكنة عسكرية لإعداد المجاهدين والدُّعاة، وأنها حاملة الضَّوء الخافت للإمبراطورية المغولية الإسلامية، ونعمتِ الحاملة هي!

فكانت المسألة العويصة أمام الشيخ النانوتوي: كيف يُمكن أن نُلقي أهل الهند المسلمين أمام اللُّصوص المُغيرين من الإنجليز؟ وكيف نرى بأمِّ أعيُننا فلذاتِ أكبادنا الذين ربَّيناهم بدماء أرواحنا وتَعَبِ أجسادنا، والذين تجري في عروقهم دماء المجاهدين والعلماء والدعاة والصالحين يذهبون إلى هذه الكليات والجامعات التي تسلخهم من أصولهم، وتفصلهم من جذورهم، وتفسد عليهم عقولهم وقلوبهم؟ ويُربُّون على التهذيب

= ونُقل جثمانه إلى ديوبند، وصلَّى عليه جمع غفير من الناس، ودُفن بجوار شيخه العلامة محمد قاسم النانوتوي رحمهما الله تعالى.

من مؤلفاته: تعليقات على سنن أبي داود، وجهد المُقِلّ في تنزيهِ المُعِزّ المُذِلّ (باللغة الأردية) في مسألة إمكان الكذب وامتناعه، والأدلة الكاملة في جوانب السؤالات العشرة للشيخ محمد حسين البتالوي، وإيضاح الأدلة في جواب مصباح الأدلة لدفع الأدلة الأذلة للسيد محمد أحسن الأمروهي وغيرها. يُنظر: الحسني، الإعلام بمن في الهند من الأعلام، ج٨، ص١٣٧٧ ـ ١٣٧٩، ومشتاق، الدكتور أحمد: دور العلماء في حركة الاستقلال ضد الاستعمار، د.ط (داكا: مكتبة نادية القرآن، ٢٠٠٦م)، ص٩٣ ـ ٩٤.

الغربي والتعليم الإنجليزي، فيصيرون غرباء عنا وأجانب لنا؟ فلا نحن نعرف هويّتهم، ولا هم يعرفون هويّتَنا!

فقَبِلَ الشيخُ تحدِّيَ الحكومة الإنجليزية[١] وصرخ في وجوه القوم بصوت جدِّه الأعلى أبي بكر الصِّدّيق رضي الله تعالى قائلا: «أينقصُ الدّينُ وأنا حيٌّ؟».

هذه العبارة التي خرجتْ من في أبي بكر الصديق قبل ألف وثلاثمائة سنة، وغيّرتْ مجرى التاريخ الإنساني، وحوّلتْ سيرَ الزمن، لم تكن عبارة عاديّة تتكوَّن من حروف عجماء، بل إنها شعار دورٍ مجيد وخلاصة تاريخٍ عريق، فإن لم يقم أحد بكتابة سيرة أبي بكر الصِّدّيق ـ وكُتّابها كثيرون ـ فإن هذه العبارة وحدها كانتْ كافية لتمثيل صورة أبي بكر وشخصيّتِه الفذّة.

كانتْ هذه الجملة الملهَمة من الله تعالى تُمثِّل غَيرةَ الشّيخ النانوتوي وحرارته الإيمانية، وإذا كان الأسد الجريح يُجلجل بزئيره أرضَ الغابة فإن هذه العبارة زلزلتْ بلاطَ أقوى الإمبراطوريات الموجودة في ذلك العصر؛ لأنها كانتْ تحمل في طيّاتها قوّةَ الإيمان وصَولةَ العِرفان!

هذا الشعور بالمهمّة والإحساس بالمسؤوليّة كان من المعالم

(١) يشير الشيخ رحمه الله إلى مقولة المندوب البريطاني توماس ماكولي التي نقلناها في الهامش قبل قليل.

التي هدَتْ مؤسِّسَ دار العلوم ديوبند ودار العلوم التابعة لندوة العلماء إلى الطريق الصحيح والقرار الصائب، فلم يكن يخطر على بالهم أبدًا أن يُدرّسوا فيها مجموعة من كتب الصَّرف والنَّحو، وتعليم علوم الآلة والمقاصد، وقد كانتْ هناك مراكز أعظم وأعرق لأداء مثل هذا الدَّور، مثل الجامع الأزهر في مصر، وجامع الزيتونة في تونس، وجامع القرويِّين في المغرب، وكانتْ هناك مراكز علميّة شهيرة في شبه القارة الهنديّة أيضًا، فلم يكن من الحكمة والفراسة أن يُقدِمُوا على تأسيس مراكز علمية تُضاهي تلك المراكز العريقة بالوسائل المتواضعة التي كان يملكها هؤلاء الأعلام.

الوعد الدائم لربط العلاقة:

هذه هي الحَمِيّة التي جعلتِ الشّيخ قاسمًا قَلِقًا، وجعلتْه يضطرب كالزيت في المرجل السّاخن، ولهذا أقدمَ على تأسيس مدرسة صغيرة بإمكاناته الضئيلة القليلة، فشقّتْ طريقها إلى الوجود في ظروف قاسية في تاريخ هذه البلاد بهدفٍ نبيل عالٍ، ويبدو أن كثيرًا من كبار أهل البصيرة لم يُدركوا عُلُوَّه، ولكنه كان عاليًا وساميًا، حيث أراد بناء قلعة حصينة للحفاظ على ميراث النبوّة وعلوم الشريعة وآداب الإسلام وأخلاقيات الدين في هذه البلاد النائية عن مركز الحضارة الإسلامية ومهبط الوحي، وأن

يتجاوز هدفُه حدودَ الحاضر ليصل إلى أغوار المستقبل، كما قال تعالى عن أبينا إبراهيم عليه السلام: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الزخرف: ٢٨].

وكانت خلاصة تلك الجهود المُضنية استمرارَ علاقة المسلمين في هذه الديار مع الملة الإبراهيمية والشريعة المحمدية إلى هذه اللحظة، واتباعهم لذلك القانون الإلهي الذي جاء به خاتم النبيين محمد العربي ﷺ، ورحلوا عن هذه الدنيا الفانية وهم يحملون عِقد الوفاء لهذا الدِّين في أعناقهم، وكأنها كانتْ تطبيقًا لتلك الوصية التي ذكرها القرآن الكريم: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢].

العصر الجديد والفتن الجديدة:

أعزائي! كما قلتُ مرارًا: إن هذه المؤسَّسة أقيمتْ على أساس الحَمِيّة الدّينيّة والتحدِّي الصارخ لتحديات الزمن، فلا يمكنكم أن تُغمضوا عيونَكم أمام تحدِّيات العصر الجديد، ولا يجوز ذلك لطلبة دار العلوم ديوبند ودار العلوم التابعة لندوة العلماء على أقلِّ تقدير؛ لأن هاتين المؤسَّستَين قد تمّ بناؤهما على أساس قَبول تحدِّيات العصر والأنظمة الغربية، والآداب غير الإسلامية، والتعليم الإنجليزي الذي لم تكن له علاقة بالدين والأخلاق والتربية حينذاك.

ويُثبِتُ التاريخ أن الفتنة لا تختصُّ بزمن مُعيَّن، كما أن الواحدة منها لا تظهر في صورتها الكلاسيكية القديمة في كل مرة، بل تقوم الفتن وراء الفتن، وتتحدَّى الإسلامَ والمسلمين، وتظهر الجاهلية في صورتها الجديدة المُتغيِّرة، وتنزل في الميدان بصولاتٍ وجَولاتٍ مُجلجِلة، ولم يُخطئ العلامة محمد إقبال حين قال: إن عزيمة المؤمن وإنْ أُصيبتْ بالشيخوخة، لكن فتوّةَ اللّاتِ والمَنَاة بقيتْ على حالها!

ويعني محمد إقبال باللات والمناة هنا قوّةَ الباطل وسطوتَه التي ملأت الدنيا بجاهلية الغرب الجديدة، وزلزلتْها من تحت ترابها بصيحاتها وصرخاتها، وهي تُقدم - كل مرة - إلى المعركة بشعارات جديدة ولافتات جديدة وطرق جديدة وحماسات جديدة.

لكنَّ مدّعي الوراثة الإبراهيميّة مصاب باليأس والقنوط والهزيمة النفسيّة والعزلة الاجتماعية والاضطراب الفكري والتردُّد الذّهنيّ! وتبدأ فيه السكرات خوفًا وفرَقًا من الباطل، ويكاد يضمحِلُّ ويَمَّحي من الوجود، ويبحث جاهدًا عن ملجأ أو مغارات أو مدَّخَلٍ للتّولية إليه من معركة الحياة؛ ليعيش في عافية، ويَقضي بقية أيامه في راحة وهناء، مع أن اللّات والمناة يَصولان ويجولان في المعركة، ويصرخان بدعوة المبارزة والمنازَلة!

فتنة العصر الكبرى:

إخوتي الطَّلبة! إن السؤال الذي يطرحُ نفسه هنا: ما هي فتنة هذا العصر؟ وما هي تحدِّيات هذا الزمن؟

أقول بكل ثقة: إن تحدّي هذا العصر هو **المحاولة المستمرّة لفصل الإسلام عن شريعته وقانونه وأحكامه ونُظمه وتعاليمه ولغته وأدبه، فيصبح الإسلام عبارة عن عبادات ورسومات وتقاليد؛ كعادات الأفراح والأتراح، ورسومات الجنائز والدُّفون التي تجعل الإسلام مجموعة من الطُّقوس والتّقاليد!**

لا ندري ماذا يكون غدًا، وأظنُّ أن الوقت الذي يقال فيه للمسلمين في شبه القارة الهندية: لا يُمكنكم أن تُؤدُّوا الصلاة، ولا أن تصوموا رمضان، ولا أن تحجُّوا إلى البيت الحرام، ولا أن تلتزموا بعقيدة الإسلام، ولا أن تُزكُّوا أنفسَكم، أظنُّه بعيدٌ بإذن الله تعالى.

ولكنْ وصل ذلك الوقت الذي يُقال فيه للمسلمين بالإشارة والكناية والإيعاز، وقد يُقال بنوع من التَّصريح أيضًا: إن عليهم أن يتخلَّوا عن الآداب والأحكام التي تميّزهم كأمة عن بقيّة الطوائف الهنديّة، والتي تُحيي فيهم الإحساسَ بوراثة شريعة مستقلة تختلف عن نُظم الهند وقوانينها وعاداتها! وأن عليهم أن يُدركوا أن بقيّةَ الهنود لن يقبلوا في أرضها شريعة خاصّة، فلْيَقبلُوا

طواعيةً القانونَ الموحَّد الذي يُطبَّق على بقية الطوائف، ولْيُسلِّموا المراكزَ والمدارس التعليمية التي أسَّسوها لحاجاتهم الخاصّة إلى الحكومة الهندية، ولْيَنفُضوا أياديَهم من إدارتها وتنظيم شؤونها، فلْتتحولْ تلك المدارسُ والجامعات إلى مؤسَّسات ومراكز تَليق بالعلمانية الشّاملة التي حملتْ رايتَها هذه البلاد!

إنني أرى ـ شخصيًّا ـ أن الحكومة الهندية لا تُعادي الإسلام، وهي لا تُريد القضاء عليه، بل تَظهر من تصرُّفاتها أنها تعتزُّ بوجود أكبر عدد من المسلمين في العالم في هذا البلد، فيُمكن للمسلمين أن يعيشوا براحة هنا، وأن يتربَّوا باطمئنان، وأن يزدهروا باستقرار، والحكومة تستفيد من خدماتهم وأعمالهم؛ لأن وجود المسلمين في هذه البلاد مهمٌّ للغاية لأجل السياسات الهندية الداخلية والخارجية، حيث يُمكن للحكومة أن تقدِّمَهم إلى العالم كدليل وحجّة على التعايش الحضاري السِّلميّ بين أصحاب الحضارات المختلفة!

ولكنَّ الذي يُريده المُغرضون وأصحاب الأهداف الخبيثة، بل يقولونها صراحة بلغة واضحة في هذه الأيام بأن المسلمين لو أرادوا العيش في هذه البلاد فعليهم أن يتقبَّلوا القوميّة الهنديّة الشاملة، والقومية تعني ـ عندهم باختصار ـ التخلِّيَ عن الهويّة الإسلامية.

فهم يقولون: عِيشوا أيُّها المسلمون براحة، فلا أَحد يُزعجكم، ولكن ليس بالهوية الإسلامية، بل بالهوية الهندية الشاملة!

وأرى أن هذه النَّعرات الطائفية تُعَدُّ نوعًا من هذيان المريض، ودروةً من الهستيريا التي تَعتري المصاب بالمرض النفسيِّ، وهي لا تَدوم بإذن الله تعالى، وتَرَون أن هذا النَّوع من الدعوات قد خَفَّتْ اليوم، وأُبشِّركم بأنها ستَقِلُّ يومًا بعد يوم، وهذه ليستْ مشكلة أصليّة في نظري.

والمشكلة العويصة التي تحتاج إلى حلٍّ جذريٍّ هي **الارتداد المعنويُّ والنفسيُّ والخلُقي لدى المسلمين، ولا يحتاج الإنسان إلى فراسة قوية ولا إلى مجهر عالي الدِّقّةِ لإدراك هذا الأمر المقلق**، حيث صار ذلك كإعلانٍ مكتوب باللَّون البارز، يستطيع أن يقرأه كل واحد بسهولة ويُسر، فعلينا أن نستعدَّ لمواجهة هذا الارتداد الخطير.

ويرى أهلُ الرأي السَّديد والبصيرة النافذة أن المشكلة التي تُواجِهُها جامعة عليكرة الإسلامية اليوم ـ مثلاً ـ ستُواجِهُها دار العلوم ديوبند غدًا، وستُواجِهُها ندوةُ العلماء بعد غدٍ، إنها مسألة وقت وزمن، لا أكثر ولا أقلّ، فعلينا أن نتَّحِدَ ونستعدَّ على أساس الغَيرة الدّينيّة والحَمِيّة الإسلامية لِنُواجِهَ قضيّةَ جامعة عليكرة اليوم؛ كيلا يَجرؤَ أحدٌ على إثارة حفيظتنا وامتحان قدراتنا في المستقبل.

مسؤولياتنا تجاه البِدع:

أعزائي الطلبة! إن علماءكم السّابقين لم يُداهنوا أصحاب البِدَع

والخرافات، إنهم لم يُجيزوا - حتى الآنَ - الاحتفالَ بالمولد النبويِّ الشّريف، ولكن هناك رسومات وطقوس كثيرة دخلتْ في حياة المسلمين، وصارتْ جزءًا من حياتهم الدّينية، كأنها فرائض أو واجبات أو سُنن أو نوافل، وصارتْ في اعتقاد كثير من المسلمين كشعائرِ الدّين اللازمة، فعليكم أن تتنبَّهوا إلى هذه الأمور الخطيرة.

إن المركز الفكريَّ الذي تنتمون إليه أبدى مخالفاته الدائمة مع الرسومات والخرافات باسم الإسلام، وبيّن علماؤكم عدمَ علاقتها بالدّين الإسلامي، ودفعوا ثمنًا باهظًا في كل ذلك، حيث تحمَّلوا المقاطعات الاجتماعية، وأُخرِجوا من المساجد والجوامع، وأُلصقتْ بهم فتوى التكفير والخروج عن الملّة، وحُرِموا من كثير من المصالح الدنيويّة، ولكنهم لم يُبدوا أي تساهُل مع البِدَع وأصحابها، ولم يتعاملوا معهم ومعها بالمُداهنة والمُراوغة، وأنا أيضًا - شخصيًّا - أنتمي إلى تلك الأسرة التي كانتْ لها أقدام راسخة بهذا الصَّدد، الذين تعاملوا مع الشّرك والكفر والبدع والرسومات بحسٍّ مُرهَفٍ وذكاء واقعيّ وحزم وجزم، حيث إن علاقاتي الأسرية ترتبط مع الإمام الشهيد السيِّد أحمد بن عرفان[1]، والعلامة الشهيد محمد

---

(١) هو الإمام المجاهد أحمد بن عرفان بن نور الحسني، من أعظم دعاة الإسلام وأكبر مجاهدي الدين في شبه القارة الهندية، وُلد عام=

. . . .

= ١٢٠١هـ ببلدة راي بريلي، وسافر إلى دهلي، ولقي العلامة عبد العزيز الدهلوي بن الإمام ولي الله الدهلوي، ولازمه فترة، وتعلّم على يد الشيخ الإمام عبد القادر الدهلوي بن الإمام ولي الله الدهلوي، ثم غلب عليه الشوق إلى الجهاد، فاتصل بمعسكر الأمير نواب مير خان، ولبث عنده بضع سنين، وكان يحرضه على الجهاد، ولما عزم النواب على مسالمة الإنجليز تركه، وعاد إلى دهلي، واشتغل بنشر السُّنة وقمع البدعة، فأقبل عليه الناس من كل صوب وحدب، وأحبوه، ولازموه، وسافر إلى بلدات كثيرة لنشر الدعوة، فهدى الله تعالى به آلافًا مؤلفة من حيارى البشر، ولازمه العلامة محمد إسماعيل بن العلامة عبد الغني بن الإمام ولي الله الدهلوي، كما لازمه العلامة عبد الحي بن هبة الله البرهانوي وغيرهما من كبار علماء عصره.

سافر إلى أرض أفغانستان عام ١٢٤١هـ بهدف الجهاد ضد الإنجليز، وحرّض الناس على الجهاد والقتال، وبعث أصحابه إلى كابل وكاشغر وبخارى لِيُحرِّضوا الملوك والأمراء على المشاركة في الجهاد والإعانة عليه، فاجتمع تحت لوائه ألوف من الرجال الأبطال، وأحسنَ تربيتهم الدينية والحربية، ثم أعلن الجهاد ضد الملك رنجيت سنغ، ملك بنجاب، الذي اشتهر بشدّته وقسوته على المسلمين، وانتصر الشيخ في معارك كثيرة ضدّه، وأسَّس دولة إسلامية في حدود الهند الشمالية الغربية، التي تشتمل على بيشاور وما جاورها من=

= البلاد، ونشر فيها التعاليم الصحيحة للإسلام، وأزال البدع والخرافات منها، فتعصَّب ضدَّه الأعداء، كما ثار عليه أصحاب المصالح الشخصية من رؤساء القبائل وأهل البدع، وساعدهم الإنجليز بجيشه وعدّته وعتاده.

وبدأ جيش سنغ الحرب الشرسة ضده وضد أتباعه، ودار رحى الحرب الدامية بين المسلمين والأعداء، حتى رجحتْ كفة المسلمين، ولكن بعض المسلمين غدروا بالشيخ، وكشفوا ظهور الجيش للأعداء، فحملوا على الجيش الإسلامي من الوراء، ونجح الأعداء في أن يحيطوا بالإمام أخيرًا في جبل بالاكوت، ولكنه لم يستسلم، بل جاهد هو ورفاقه جهادًا مُستميتًا، وضربوا أروع الأمثلة للفروسية والشجاعة والبسالة، ثم استشهد أخيرًا في ٢٤ من ذي القعدة ١٢٤١هـ في جبل بالاكوت مع جمع كبير من أصحابه.

ويُعدّ جهاد الإمام أحمد بن عرفان من معالم الثورة الهندية العظيمة، وقد ألف كثير من رفاقه كتبًا في سيرته ومسيرته، منها: الصراط المستقيم للشيخ العلامة محمد إسماعيل والعلامة عبد الحي البرهانوي، ومنظومة السعداء للشيخ جعفر علي البستوي، وسوانح أحمد للشيخ محمد بن جعفر التهانسري، والملهمات الأحمدية للمفتي إلهي بخش الكاندهلوي، والوقائع الأحمدية للشيخ محمد علي الصدرفوري وغيرها. يُنظر: الحسني، الإعلام. بمن في الهند من الأعلام، ج٧، ص٨٩٩ ـ ٩٠٢، والندوي، إذا هبتْ ريح =

إسماعيل[(١)]، وغيرهما من العلماء الدُّعاة والمجاهدين الأبطال،

= الإيمان (الكويت، دار القلم، د.ط، ١٣٩٤هـ) والحسني، محمد الثاني، الإمام أحمد بن عرفان الشهيد في محراب التاريخ (راي بريلي، مجمع الإمام أحمد بن عرفان الشهيد لإحياء المعارف الإسلامية)، والطنطاوي، علي، أحمد بن عرفان الشهيد (دمشق، دار الفكر، ط٢، ١٣٩٩هـ) وغيرها من المؤلفات القيمة الكثيرة.

وقد حظي الإمام أحمد بن عرفان الشهيد باهتمام واسع من قبل العلماء والمؤرخين الهنود والإنجليز بسبب أعماله التجديدية الكبيرة وجهاده الطويل مع الإنجليز والسِّيخ.

(١) هو العلامة المجاهد محمد إسماعيل بن عبد الغني بن الإمام ولي الله الدهلوي، أحد نوابغ علماء الهند، وُلد عام ١١٩٣هـ بدهلي، توفي والده وهو صغير، فتربى في رعاية عمه العلامة عبد القادر الدهلوي، ودرس على يديه وعلى عميه العلامة عبد العزيز الدهلوي والشيخ رفيع الدين الدهلوي، ولازمهم جميعًا، ففاق في علوم المنقول والمعقول، ثم شارك في الجهاد ضد الإنجليز تحت قيادة الإمام أحمد بن عرفان الشهيد، ولازمه إلى آخر عمره، وسافر إلى أقطار الهند داعيًا ومحرِّضًا على الجهاد، واستشهد في ذي القعدة سنة ١٢٤٦هـ في معركة بالاكوت الشهيرة.

وكان مع جهاده ضدَّ الإنجليز صاحب علم غزير في العقيدة والفقه والأصول، كما كان لكتاباته صدى واسع لدى العامة والخاصة، وكتبه مشهورة ومقبولة حتى الآن، منها: تقوية الإيمان (ترجمه إلى =

الذين رفعوا راية التوحيد والسُّنة في هذه البلاد، وبذلوا في سبيلهما الغاليَ والنَّفيس.

فأستَميحُكم عذرًا على هذه الجرأة: إن الدّعوة إلى التوحيد الخالص ونبذِ الشّرك والبِدَع جاءتْ إلى هذه الأرض أيضًا عن طريق تلك الأسرة التي أنتمي إليها، فهو تاريخ عزيز علينا، نحافظ عليه بصدورنا، ونضعُه أمام عَيننا، فلسنا نتخلّى عنه، لا نحن، ولا أنا، وكل جهودي المتواضعة وأعمالي الضئيلة مكرّسة لخدمة هذا الميراث المجيد ونَشره وتبليغه وتقديره، يقول

= العربية الشيخ أبو الحسن الندوي بعنوان رسالة التوحيد)، وإيضاح الحقّ الصريح في أحكام الميت والضريح، والإمامة في تحقيق مسألة النبوة والخلافة، ومختصر أصول الفقه، ورسالة الشرك والبدع، وتنوير العينين في إثبات رفع اليدين وغيرها. يُنظر: الحسني، الإعلام بمن في الهند من الأعلام، ج٧، ص٩١٤ ـ ٩١٥، والقنوجي، أبجد العلوم، ص٧١٠، وشفيق، الدكتور عبد المنان محمد، حركة الإمامين أحمد بن عرفان والشاه محمد إسماعيل بن عبد الغني الدهلوي وآثارهما على المجتمع الإسلامي في الهند (رسالة ماجستير مقدمة إلى جامعة أم القرى بالمملكة العربية السعودية)، وخليل الرحمن، الدكتور عبد الوهاب، الدعوة السلفية في شبه القارة الهندية وأثرها في مقاومة الانحرافات الدينية (رسالة دكتوراه مقدمة إلى كلية الشريعة والدراسات الإسلامية بجامعة أم القرى عام ١٤٠٦/ ١٤٠٧هـ، وأجيزتْ).

الشاعر الأردي: إنك تحسُّ بدخان النار الخامدة في صرخاتي، وقد أمضيتُ السَّفر كلَّه بحثًا عن ذلك المفقود!

إن قلمي المتواضع كتَب تاريخ (رجال الفكر والدعوة في الإسلام)، وسوَّد آلاف الصفحات في كتابة تاريخ الإسلام المجيد، فتقع عليّ المسؤولية كخادم صغير لهذا الدّين أن أحاسِبَكم على تصرُّفاتكم الخاطئة، وأن أُراقبَ سَيركم الجاري إلى الأمام.

إن أسلافكم لم يتحمَّلوا أدنى تحريف في أحكام الدّين، ولم يتحمَّلوا أدنى انحراف في سلوك المسلمين، وقضية اليوم ليستْ قضيةَ البِدعة في الدّين فقط، وليستْ قضيّةَ التعليم الإنجليزي فقط، بل إن معركة اليوم دائرة بين عبادة الأوثان والأصنام والشّرك الجلي والانحناء للأيديولوجيات الباطلة والإلحاد والعلمانية الشاملة من جانب وبين عقائد الإسلام الصحيحة وهويّة الملّة الإبراهيميّة من جانب آخر.

فيجب أن يكون تعامُلُكم مع هذه الفتن الجديدة تعامُلَ قومٍ أوفياء لهذه الأرض التي تعلَّقنا بها، ونحيا عليها، ونموت عليها بإذن الله تعالى، وإن تحدِّيَ اليوم أخطرُ وأعظم من التَّحديات الماضية، وقبول هذا التحدِّي يحتاج إلى مزيد من الجرأة والإيمان والإيثار والتَّضحية.

الفتن المعاصرة وسَيرُها:

إنّ الفتنَ السابقة كانتْ تسير بِبُطءٍ كَسَيرِ تلك الأزمنة، وكانت الفتن تأخذ صورة عربة الأبقار والفِيَلة وعربة الفَرس كثيرًا، فكانت الفتنُ تأتي في سرعة هذه الوسائل القديمة، ثم بدأ عصر القطار، فازدادتْ سرعة الفتن كسرعة القطار، ثم جاء عصر الطائرات فارتفعتْ سرعة الفتن، وهي اليوم قد أخذتْ سرعة القنابل النووية والذّرية العابرة للقارات في ثوانٍ معدودةٍ، فازدادتْ سرعة الفتن بهذا القدر، حتى بدأت تصل إلى كلّ بيت ودار خلال لحظاتٍ وثوانٍ، وذلك عن طريق الأجهزة المتطوِّرة من المذياع والتّلفاز وغيرهما من وسائل التّواصُل الحديثة.

سَعة سلطة الحكومة:

إنّ هذا العصر عصرُ الجمهورية والديمقراطيّة الشاملة، ويَحكُمه النّظام البرلمانيُّ الذي يملك السُّلطة المطلَقةَ للتَّقنين، فلم تَعُدْ دوائرُ أعمالها محصورةً في أجهزة الدّفاع والأمن وتحصيل الضَّرائب والجمارك، بل إنها تُسيطر اليوم على جميع مرافق الحياة، بما فيها وسائل التَّعليم والتَّربية، فلم يَعُدْ شيءٌ خارجَ دائرتها في الدّاخل والخارج، إنها تُقنِّنُ قانونًا في اللَّيل وتُنفِّذهُ في النَّهار على جميع أقطار البلد طولاً وعرضًا، ويُحتمَل أن تكون هناك جلسة برلمانية في الدّيوان في هذا الوقت الذي

نجلس فيه هنا، ويُمرَّرُ فيه قانون جديد يُحدث انقلابًا كبيرًا في حياتنا من الغَد.

وكانتِ الحكوماتُ القديمة لا تتدخَّل في شؤون الناس الخاصّة، ولم تكن لها أي علاقة مع قضايا الأحوال الشَّخصيّة مثل النكاح، والطلاق، والتَّركة وغيرها، ولم تكن تُدخل نفسها في شؤون المراكز والمدارس المستقلّة، كما أنها لم تكن تُصِرُّ على تطبيق أفكار مدرسة فكرية معينة في مجال التعليم والتربية، ولكن الحال قد تغيَّرتِ الآنَ.

أنتم تعيشون حياةً مُريحةً جدًّا في ظلِّ هذه المؤسَّسة؛ لأنها يُحيطها النور من كلِّ جانب، ولا يَرِدُ في جوِّه غيرُ صَدى «قال الله تعالى، وقال رسوله»، فهذه قاعةُ التَّفسير، وتلك قاعة الحديث، وهناك بيئة المسجد الروحيّة، وهاكم بيئة المدرسة العلمية، ولكنَّكم حين تخرجون منها غدًا أو بعد غد، لا أقصد بكلمة «الغد» اليوم الذي تتخرَّجون فيه من هذه الجامعة فقط، بل أقصد يومَ ذهابِكم إلى البيت أيام الإجازة أيضًا، إنكم حين تخرجون من بيئة المدرسة هذه سترَونَ دُنيا أخرى، تختلف عن هذه الدُّنيا التي تعيشون فيها هنا، فإنْ لم تُدركوا نوعيّة الأحداث الجارية خارج أسوار المدرسة والجامعة، وكيفيّة التعامُل معها بلباقة وحِنكة فإنها ستفاجِئُكم بأحوالها المتغيِّرة العَجيبة الغريبة

التي يَصعُبُ عليكم التعامُل معها، فضلاً عن إيجاد الحلول المناسبة لمشكلاتها.

الفتنة الداخلية:

إن من المشاكل الكبرى التي نراها اليوم أيضًا: ظهور فئةٍ من المسلمين أشدَّ على الإسلام والمسلمين من الكفّار أنفسِهم، ويصدُق فيهم المثل الفارسي: «المدَّعي هادئ ولكنَّ الشّاهدَ ثائرٌ».

لو نشر الأعداء عيبًا عن الإسلام والمسلمين في الخفاء فإن هذه الفئة التي تدَّعي الإسلام تُعلن ذلك العيبَ بالجهر، وهم أجرَؤُ على التراث الإسلامي من الكفّار، حيث يقولون بجرأة غريبة: إن على المسلمين الهنود الانضمامَ إلى التربية المشتركة لأهل الديانات التي تَقطنُ هذه الأرض، ويجب عليهم أن يتخلَّوا عن جميع الفوارقِ الدينيّة والخصائص المِلِّيّة، حتى الأسماء العربية الإسلامية، وأننا لو أردنا العيشَ في أرض الهند فإن علينا أن نتخلى عن هذه الثقافة التي تميّز بين (نحن وهم)، والتي تُفرّق بين المساجد والكنائس، والطبقة الهندية الحاكمة الآن يُسيطر عليها أصحابُ هذه النفسيّة المتطرِّفة.

التحديد والوضوح من خصائص الإسلام:

إن وضوحَ أحكام الإسلام ومحدوديّتَه هما سرُّ بقاء الأمة الإسلامية بهويتها المتميزة على هذه الأرض التي قضتْ على كثير

من الأمم، التي كانتْ مُطلقة وفضفاضة وغامضة، كالمذاهب الآريّة التي ولّدت فلسفةَ وحدةِ الأديان وعقيدةَ وحدةِ الوجود.

والإسلام يرسم خطًّا واضحًا بين الكفر والإيمان، والتوحيد والشّرك، والهداية والضَّلالة، والحلال والحرام، قال الله تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا﴾ [البقرة: ٢٥٦].

إننا لا نقول بوحدة الأديان، وإنما نقول بوحدة الحقِّ، إن الإسلام يرفض بصراحة فلسفة وحدة الأديان، وإنه قائلٌ بوحدة الحقِّ والصَّواب، وهو يعني أن الأديان كلَّها ليستْ وحدة فكرية واحدة في نظره، قال الله تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ [يونس: ٣٢].

إن للإسلامِ عقائدَ مُعيّنة، وله طريقة تربوية واضحة، وقانون شامل، ونظم حياة محدَّدة، وهذا ما أعلنه الإسلام بوضوح: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

فليس هناك مجالٌ لخداع النفس، ولا لخداع الغَير؛ لأن الإسلام وضع كلَّ شيء في مجهر الوضوح، فليلُه واضح كنهاره، حيث يتبيَّن السَّوادُ سوادًا والبياضُ بياضًا.

شخصيتان بصيرتان:

أعزائي طلبةَ العلم! يجب أن نسأل أنفسَنا ما الذي جعل مُؤسِّس دار العلوم بديوبند الشيخ محمد قاسم النانوتوي يضطرب كاللَّحم في الزيت المغليِّ؟ وما الذي جعل مُؤسِّسَ ندوة العلماء الشيخ محمد علي المُونْغِري[١] يتلوّى بنار القلق، أحدهما هنا في

---

(١) هو الإمام العالم محمد علي بن عبد العلي بن غوث علي المونغري، مؤسس ندوة العلماء بالهند، وُلد بكانفور عام ١٢٦٢هـ، وقرأ مختصرات العلوم على يد الشيخ المفتي عنايت أحمد الكاكوروي والسيد حسين شاه الكشميري، ولازم المُفتي لطف الله الكوئلي، حتى برع في العلوم والفنون الموجودة في عصره، وعُيّن مدرسًا بمدرسة الفيض العام، فدرّس بها فترة، ثم سافر إلى سهارنفور، وأخذ الحديث النبوي الشريف عن المحدث الكبير أحمد علي السهارنفوري، محشّي صحيح البخاري، فحصل على الإجازة الحديثية منه، ثم عاد إلى بلده.
وكان الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقظًا فطنًا مُدركًا ما يجري في البلاد من محاولات تنصيرية وجهود إلحادية، ونتائجها الوخيمة على المجتمع الإسلامي الهندي، فأكبَّ على دراسة النصرانية وتاريخها وفلسفتها بعمق وتَرَوٍّ، ثم أصدر صحيفة باسم (المراسيم المحمدية)، يقوم عن طريقها بتوعية الشعب بدسائس المنصّرين والمستعمرين، كما ألّف كتبًا بهذا الصَّدد، منها: مرآة اليقين، ومرآة الإسلام، ودفع التلبيسات، والرسالة المحمدية.
وقد أدرك من خلال أعماله الآثار السيئة التي تنتج عن خلاف =

ديوبند والآخر هناك في لكهنو، اختلف المكان، ولكن اتَّحد الهدف والمهمّة، إنني لا أرى فرقًا بين أفكار الشَّخصيّتَينِ وأحزانهما، بل أراهما كالعينَينِ لشخص واحد، وقد نوّرتْ هاتان

= المسلمين فيما بينهم، وتقدُّم غيرهم عليهم بسبب ذلك، وجمود العلماء على النظام التعليمي القديم، وعدم توفيته لمطالب العصر الجديد، فأسَّس ندوة العلماء عام ١٣١١هـ، وهي تُشبِهُ ناديًا علميًّا يضمُّ كبار العلماء بهدف إصلاح النظام التعليمي الموجود، وإحياء دَور المدارس الإسلامية من جديد، ورفعِ الخلاف بين الفرق الإسلامية، والدفاع عن القضايا الإسلامية، وقد نجحتْ هذه المؤسسة في تحقيق أهدافها، فأسس أعضاؤها دار العلوم عام ١٣١٧هـ، ثم قدّم الاستقالة منها عام ١٣٢١هـ واعتزل في زاويته بمدينة مونغِر، حيث قصده الناس للاستفادة منه والاستماع إلى وعظه وإرشاده.

وقد ثارتْ في تلك الفترة فتنة القاديانية التي أقضّتْ مضاجع الشيخ، فهبّ للردّ عليها، فألّف وناظر وأرسل الرسائل إلى الأصدقاء والمعارف، وقام بتوعية المسلمين بحقيقتها، وكشفَ لهم ضلالاتها وانحرافها عن الصراط المستقيم، وأنها فرقة مارقة من الدين، وخارجة عن ملّة المسلمين، وقد وصل عدد ما كتبه الشيخ في الرد على القاديانية نحو ١٠٠ كتاب ورسالة، ومضى في قضاء حياته في العبادة والذكر والوعظ والإرشاد والرد والمناظرة حتى وافاه الأجل المحتوم سنة ١٣٤٦هـ، ودُفن بزاويته بمدينة مونغر، رَحِمَهُ اللهُ ورضي عنه، وجعل الفردوس مثواه. يُنظر: الحسني، الإعلام بمن في الهند من الأعلام، مصدر سابق، ج٨، ص١٣٦٨ ـ ١٣٧.

العينانِ أرضَ الهند بغَيرتِهما الرّوحيّة وفِراستِهما الإيمانيّة، وكأنهما يمثّلان قوله ﷺ: «اتَّقُوا فِراسةَ المؤمنِ فإنّه ينظرُ بنورِ اللهِ»[(١)].

---

(١) أخرجه الإمام الترمذي في صحيحه، أبواب التفسير، باب: ومن في سورة الحجر، رقم الحديث: ٣١٢٧، قال الترمذي: «هذا حديث غريب»، وقد ذكر الإمام السخاوي عدة أسانيد للحديث ثم قال: «وكلّها ضعيفة»، غير أنه يرى أن الحديث ليس بموضوع كما ذهب إليه الإمام رضي الدين الصغاني، حيث قال السخاوي: «وفي بعضها ما هو متماسك، لا يليق مع وجوده الحكمُ على الحديث بالوضع، لا سيما وللبزار والطبراني وغيرهما كأبي نعيم في الطب بسند حسن عن أنس رضي الله عنه رفعه: «إن لله عبادًا يعرفون الناس بالتوسُّم»، ونحوه قول النبي ﷺ لعمران بن حصين رضي الله عنهما وقد أخذ بطرف عمامته من ورائه: «واعلم أن الله يحبُّ الناظر الناقد عند مجيء الشُّبهات»، وقد ذهب العلامة محمد طاهر الفتني إلى أبعد من هذا، فقال معقّبًا على الإمام السيوطي الذي يرى عدم صحة الحديث: «قلتُ: حسن صَحِيح، فإن الضعفاء في طرقه متبوعون وبعض طرقه سالم عَنهم مع أن له شاهدًا عن أنس «إن لله عبادًا». يُنظر: السخاوي، شمس الدين أبو الخير محمد بن عبد الرحمن، المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة، تحقيق: محمد عثمان الخشت (بيروت، دار الكتاب العربي، ط١، ١٤٠٥هـ) ص٥٩ ـ ٦٠، والصغاني، رضي الدين الحسن بن محمد بن الحسن العدوي، الموضوعات، تحقيق: نجم عبد الرحمن خلف (دمشق، دار=

ولا يَعدو النظام التعليمي كونَه وسيلة للوصول إلى هذا الهدف، والاختلاف الموجود بين الشخصيّتَينِ ليس في القضايا الأساسيّة، بل في الوسائل والطُّرق، واقرؤوا ـ إنْ شئتم ـ كتابات الشيخ المونغري ورِفاقه، فإن أعيُنَهم كانتْ أرفع من هذه الجزئيات المختلَف فيها، فلو ظنَّ أحد أنه أسَّس ندوة العلماء لتغليب جانب الأدب العربي أو التاريخ الإسلامي أو العلوم العصرية على العلوم الإسلامية فقط، فلن يكون هناك جرمٌ أعظم منه في حقّ الشيخ المونغري ورفاقه، ولن يكون هناك تزوير للحقيقة الصَّريحة أكثر منه في حقِّهم.

إن الهدف الأسمى من تأسيس المؤسَّستَينِ لدى الشخصيّتَينِ هو مجابهةُ الفتن الموجودة في عصرهما، فبنى أحدهما معسكرًا هنا، ووضع الثاني فسطاطًا هناك، وقد واجهَا تحديات العصر بصبر وجلَد، ولم يتَّخذاها من ورائهما ظِهريًا، وبذلَا أقصى

= المأمون، ط٢، ١٤٠٥هـ) ص٥١، رقم القول: ٧٤، والسيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، اللآلئ المصنوعة في الأحاديث الموضوعة، تحقيق: أبو عبد الرحمن صلاح بن محمد بن عويضة (بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٧هـ) ج٢، ص٢٧٨، والفتني، محمد طاهر بن علي الصديقي، تذكرة الموضوعات (د.م، إدارة الطباعة المنيرية، ط١، ١٣٤٣هـ) ص١٩٥.

جهودِهما لإعداد دعاة أبرار وعلماء كبار ومجاهدين أشداء ومترجمين أقوياء للإسلام وأحكامه في زمن الأزمات الكبيرة والتغيُّرات الجذريّة، أكرمهما الله بأعلى المقامات عنده، وجزاهما وجميع رفاقهما وأصحابهما خيرًا، ووفَّقَنا لفهم أهدافهما بصورة صحيحة واقتفاء أثرهما بفهم ودراية.

دور الأفراد والأشخاص في تاريخ الإصلاح والتجديد:

أعزائي الكرام! إن تاريخ الإسلام التجديديَّ مليء بتضحيات الأفراد والأشخاص، وعلوِّ هِمَمِهم، ونحن نقول عادة: إنه تاريخ الأمة وتاريخ المِلّة، وهذا صحيح، ولكنه ـ في الحقيقة ـ تاريخ الأفراد والأشخاص من أوَّله إلى آخره، وتاريخُ مواهبهم وهِمَمِهم، وسجلُّ صلاحيّاتهم وتضحياتهم، وثبْتُ سِيَرِهم وأعمالهم، وهي تُقدِّمُ لنا نماذجَ رائعةً في علوِّ الهِمّة وقوة الشَّكيمة، وبهم تكوَّن التاريخُ الإسلامي الذي نفتخر به.

وحينَ واجَهَ الإسلامُ تحدِّيًا ما فإنّ شخصيةً من هذه الشَّخصيّات الكبار تقدَّمَ إلى الميدان، ولم يكن ذلك الإقدام ـ عادةً ـ بعد مشورة واجتماع، بل كان هؤلاء العظماء يتقدَّمون إلى المعركة حسب حاجات الوقت وضروراته، ويُؤدُّون الأدوارَ المطلوبة منهم لصالح الإسلام والأمة، ويُوقِفُ بمفرده ـ بعد توفيق الله تعالى ـ سيلَ التّحدِّي وسَيرَهُ، ويقصِمُ ظهرَه وقوته، إنها

نفس الصورة التي تكرَّرت من لدن عمر بن عبد العزيز إلى الحسن البَصريّ، وإلى وليّ الله الدّهلوي، وإلى مؤسِّسي هذه المراكز الدينية والعلماء والدعاة العاملين في الوقت الراهن.

جهود الإمام المجدِّد والشاه وليّ الله الدهلوي:

قال الشاعر العظيم محمد إقبال في وصف الإمام المجدِّد أحمد بن عبد الأحد السرهندي: كان حارسَ الأمّةِ في ديار الهند، أيقظَه الله تعالى لهذه الأمّة في الوقت المناسب.

إن إقبالاً كان صادقًا في هذا الوصف الدَّقيق للإمام السّرهندي؛ لأن الطريق بين الهند والحجاز ومحمد العربي اتَّصل ـ من جديد ـ بسبب جهوده المتواصلة، وبقيت خدماته الكبيرة في مجال العقيدة والتربية والآداب محفوظة في ربوع هذه الدّيار، وبجهوده المتواصلة ـ بفضل الله تعالى وتوفيقه ـ جلس إمبراطورٌ مُسلِمٌ غَيورٌ فقيهٌ مثل محيي الدين أورنك زيب[(١)] ـ صاحب الأعمال التجديدية والإصلاحية الواسعة ـ على عرش الإمبراطور جلال الدين أكبر.

ثم جاء الإمام وليُّ الله الدهلوي وأفراد أسرته الذين حملوا راية التجديد والإصلاح في هذه الديار، وقدَّموا خدماتهم العظيمة

---

(١) سبقتْ ترجمته.

التي ازدان بها جبين الهند، واستفادتْ منها الأقطار الهندية كلُّها، من ديوبند إلى سهارنفور، ومن دهلي إلى لكهنو، فهذه المراكز العلمية الكبيرة التي نراها الآن، مثل ديوبند، وسهارنفور، وندوة العلماء كلها من نِتاجِ أعماله، وقد تنوَّرتْ كلُّها من ضياء ذلك السّراج، وتنتهي أنسابها الروحية إلى الإمام الدهلوي وأولاده وتلاميذه، قال الشاعر الفارسي: كان سراجًا وحيدًا في هذا البيت ـ ولكن الله تعالى بارك فيه ـ فحيثما وصلَ نورُه أُقيمتْ فيه المحافل النُّورانية!

مسؤوليات طلبة دار العلوم ديوبند:

إنكم تطلبون العلم في هذه الجامعة العريقة حاليًّا، وستتخرَّجون منها قريبًا، ولكنكم تنتسبون إليها بعلاقة الرُّوح ورباطة القلب دائمًا وأبدًا، فهذه العلاقة الروحية والرابطة القلبية تتطلَّب منكم أن تقبلوا التحدِّيات المعاصرة بصدور واسعة، والزائر لهذه الجامعة قد لا يلفِتُ نظرَه شيءٌ غريب هنا، ولكن هذا البحر الهادئ يحمل في طيّاته تلك البراكين الناريّة والفيضانات العارمة التي تستطيع أن تُزلزل مراكز الإلحاد واللادينيّة، يقول الشاعر الأردي: من هذا البحر الهادئ تخرجُ الأمواج الهائلة التي تُغرق الدُّنيا كلَّها، من جحور الضبِّ إلى أكواخِ الطَّير!

خطورة هذا العصر:

إنني باحثٌ في التاريخ، وهو موضوعي المفضَّل المحبَّب، فيُمكنني القول بناء على دراساتي للتاريخ عامّة وتاريخ الهند خاصّة: إنه لم يأت وقتٌ أخطر من هذا الوقت في تاريخ الهند الطويل؛ لأن الوسائل المتوافرة حاليًّا لتخريب القلوب الصّافية، والعقول السليمة، والإرادة النافذة، والعزيمة القوية، والغَيرة الدينية، والحماسة الإيمانية، والتفكير الصحيح لم تكن موجودة في أي عصر من العصور السابقة، فلم يكن فيه شيءٌ من هذه المجاملات السياسية المُغرِضة، والدهاء الدبلوماسي العريض، والدعوات الجاهلية المناهضة للإسلام، والنَّعرات الإلحادية، والديمقراطيّة الشّاملة، والمساواة غير العادلة، كما لم تكن فيه هذه الطاقة الهائلة لوسائل الإعلام المختلفة من الصُّحف والجرائد والمجلات والدوريات، ولم يكن فيه هذا العدد الكبير من وسائل التواصُل المتنوعة من المذياع والمطابع والتلفاز. أما هذه الجامعات الكبيرة والتقنيات العلمية العالية والنوادي الأدبية الفخمة فلم تكن شيئًا مذكورًا.

أبو الفضل وفيضي في هذا العصر:

إن الفتنة الكبرى التي واجهها المسلمون الهنود في الماضي البعيد كانتْ فتنة الدّين الإلهيّ الذي اخترعه الملك المغولي

أكبر بن بابر، نعم، هكذا يُقال على الأقل، ولكن هل كان في ذلك العهد شيءٌ من المراكز القوية والوسائل العجيبة لدى رجال الدولة؟ وهل كانت فيه هذه المجلات المؤثرة والصحف الملتوية التي تصدر الآن بالمئات والآلاف؟ وهي تنشر أخبار الشرق والغرب في آنٍ واحد.

ما من شكٍّ أن بلاطَ الإمبراطور أكبر كان يَزخر برجال دُهاة أقوياء، أصحاب مواهب متعدّدة، مثل أبي الفضل وفيضي وغيرهما، وإن كنت ـ شخصيًّا ـ لم أر في سيرتهما شيئًا يدلّ على الذكاء الخارق إلا الدهاء والمكر، وإنْ سلَّمنا بذكائهما وألمعيتهما أليس لدينا الكثيرون من أمثالهما؟

نعم، إنهم كثيرون، ولهم مؤسَّسات خاصّة ومراكز مستقلّة في هذه البلاد، وكان أبو الفضل وفيضي السّابقان قد يتحرك فيهما الحماس الديني، وقد كتب فيضي نفسُه تفسير «سواطع الإلهام» الذي يحيّر العقلاء بذكائه ودقائقه ولغته، ولكن أذنابهما الموجودين في هذا العصر لا تثور فيهم تلك العاطفة الجياشة تجاه الدين، ولو بالخطأ.

إن الحماس الذي كان يختفي في قلوب أصحاب الحرية والتقدُّم في ذلك العصر لا يوجد له وجودٌ لدى أصحاب التقدُّم والرُّقيّ في هذا العصر.

المسارات الجديدة للإلحاد:

إخوتي الأعزاء! إن الفلسفة القديمة قد فقدتْ شيئًا كبيرًا من الأهمية في وقتنا الحاضر، ولم يملك العلم الحديث تلك الطاقة التي كان يملكها في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، حيث كان المثقَّفون يَرتدُّون عن الإسلام بتأثيرها، ويُلحدون في الدِّين بصحبتها، ويُصبحون مُنكِرين للخالق سبحانه أو مُتشكِّكين فيه على الأقل برفقتها، وقد فقد العلم اهتمامَه بهذه القضايا، وبدأ يعمل على عكس ما كان يعمل سابقًا، حيث يُظهر العلم الحديث نفسَه اليوم دلائلَ جديدة وبراهين ساطعة من عالم المادة تُثبت حقائقَ الدّين ومعارفَ بما وراء الغيب، فالإلحاد الناشئ عن الفلسفة والعلم الذي أقضّ مضاجع علماء الحقّ في القرن التاسع عشر قد توقّف إلى حدٍّ كبير، وتغيَّرت الآن مصادرُ الإلحاد والشَّكّ، **فصارتْ علوم السياسة والاقتصاد والتاريخ والأدب هي التي تخدم قضيّةَ الإلحاد في الوقت الحاضر، وقد أدَّت العلوم الاجتماعية والآداب الإنجليزية دورًا كبيرًا في بُغض الدّين لدى المؤمنين، ونشر الفوضى النفسيّة في قلوب الناس.**

ولعل من الحقائق المفاجِئة لكم أن كثيرًا من الأقسام العربية والأردية في الجامعات صارتْ من مراكز الإلحاد والتَّشكيك في

الدين في الوقت الحاضر، وليس ذلك إلا لأن التعليم الإسلامي والعربي قد ضعُف فيها عن المستوى المطلوب.

الاستعداد القائم على الحقائق الواقعية:

وينبغي أن نُعالج هذه المشكلة بقلوب مفتوحة وصدور واسعة، وأن نعرف أولاً **المؤهلات المطلوبة للعمل في ميدان الحياة**، لكي نستطيع أن نؤدِّيَ فريضةَ الدعوة إلى الاسلام ومسؤوليةَ الحفاظ على الشريعة الغرّاء، **وأن نعرف كذلك الأدوات والأسلحة والطرق الجديدة التي نحتاجها في هذه المعركة الجديدة، ثم نستعدَّ لها، ونتدرَّبَ عليها بالمستوى المطلوب، ونخوضَ غمار المعركة مُتوكِّلين على الله تعالى.**

وبما أن الله تعالى قد اختار لكم هذا الوقت، فيجب عليكم أولاً أن تُدركوا طبيعة الوقت الذي اختير لكم، وهذا الاختيار الإلهي يبعثُ على الخوف والسَّعادة في آنٍ واحد، فهو يبعث على السعادة والاعتزاز؛ لأن الله تعالى لم يخترْكم لحمل هذه الأمانة في هذا الوقت إلا لأنه رآكم أهلاً لذلك، ولم يُلقِ عليكم هذه المسؤولية العظيمة إلا لأنكم أهلٌ للقيام بأعبائها، وهذا مَبعثُ شرف كبير واعتزاز عظيم، فيجب عليكم أن تُدركوا خطورة المهمة وصعوبة الفترة، وأن تُقبلوا على العمل بكامل المهارة والشجاعة، وأن تتضرَّعوا إلى الله تعالى طالبين منه التوفيقَ

والسَّداد؛ كي يوفِّقَكم لأداء هذه المهمّة الصعبة على وجهها، كما أدّاها السابقون الذين لم يدَعُوا تحدّيات الفِتَنِ والجاهليّاتِ دون مواجهتِها ومُبارَزتها.

التصوُّر الغربيُّ للدّين وخطورتُه:

يجب عليكم أن تُواجهوا هذه التحدِّيات التي **تُحاول أن تُجرِّد الدّينَ من جميع صلاحيّاته الإرشادية والإصلاحية والتوجيهية والرقابية والتنفيذية في الحياة**، وإن من الحقائق المُسلَّم بها لدى الغرب أن الدِّين أمرٌ شخصيٌّ، وليس له دخلٌ في المجتمع والحياة، فلَكَ ما تُريد أن تعتقد من الأمور ولكنك لا تستطيع أن تُلزم بها الناس، حتى أولادك وأقرب الناس إليك، كما لا تستطيع أن تُطبِّقَها في الحياة، وهذا التصوُّر الخاطئ للدِّين يُعارض فكرةَ النظام التعليمي الخاصِّ الذي نَسير عليه، والمراكز التّعليمية الخاصّة التي نُديرها، والتربية الأخلاقية التي نُطبِّقها على أساس الدِّين، وإذا تمَّ قَبولُ هذه الفكرة في هذه البلاد فإنها تتحوَّل إلى تلك الصورة الفظيعة التي تحدَّث عنها محمد إقبال قبلَ نصف قرن من الزمن، حيث قال: حين سُمح للمُتعالِم بالسُّجود ظنَّ أن الهند قد تحرَّرت من براثن الوثنيّة!

التأثير الذي يمكن أن يمارسه خريجو ديوبند:

وإذا عقد خِرِّيجو دار العلوم العزمَ على تغيير هذه الأوضاع

الخطيرة، وحالفهم التوفيقُ الإلهي في ذلك، فإنها تتغيَّر إلى حدٍّ بعيد؛ لأن العلاقة القويّة التي تربطكم بجماهير المسلمين وعامّة الأمة لا تَملكها أي جماعة دينيّة في هذه البلاد، وشبكة المدارس القائمة على نظامها التعليمي والتربوي مُنتشرةٌ في أرجاء الهند وأغوارها، وهي التي يُسمِّيها النّاسُ بالمدرسة العربية في هذه البلاد، وخريجو ديوبند هم المسؤولون عن الإدارة والتعليم في هذه المدارس، وهم أصحاب نفوذ قويٍّ في العامّة والجماهير، فيُمكنكم أن تقوموا بمهمّة تغيير أوضاع الناس الدينية والاجتماعية.

لكنّ هذا يحتاج إلى تلك الجرأة الإيمانيّة والرُّوحيّة التي تحدَّث عنها الشاعر الأردي حين قال: إن الرِّياحَ تَجري في وادي الحياة المظلمة بين فينةٍ وأُخرى، ولكنَّ المُؤمنَ الصّادق يتحدّاها ويُشعل سراجَ الإيمانِ على رغمِ أنفِها؛ لأنَّ اللهَ تعالى منحَه نورَ الإيمان وعلوَّ الهِمّة، فلا يُبالي بشيء!

الإعداد النفسي:

إن تحمُّل هذه المهمّة الصعبة يتطلَّب منكم أيضًا التكوينَ النفسيَّ المسبَق والإعداد الذهنيَّ المتقدِّم والتربية العلميّة والروحية والأخلاقية حتى تقفوا على حقائق هذه الفتن، وأسباب ظهورها وعوامل تحرُّكها وتاريخ صعودها بعمق ورَوِيّة، وأن تعرفوا العدوَّ

في صورته الحقيقيّة الواضحة، ومدى قدراته وسعة نشاطاته، وهذه كلُّها تعدُّ شروطًا أوَّليّة للانتصار في هذه المعركة.

ويجب عليكم أيضًا أن ترتقوا إلى درجات **عالية من الإيمان والرُّسوخ والصَّلابة ومعرفة الذات، بحيث لا يتخيَّلُ أحدٌ إمكانيّةَ شراء ذِمَمِكم وعقيدتكم وحَمِيّتكم وغَيرتكم.**

إن النُّظم التعليميّة القائمة في الجامعات العصرية تُعلّم الطلاب كيف يَبيعون الذِّمَم الإنسانية والجواهر العلمية والأخلاق النفسيّة مُقابلَ ثروة زَهيدة، ولكنَّ النظام التعليميَّ الموجود في مؤسَّستكم يعلّم طلابَه ما قاله الشاعر: لو تَصوَّرتَ إمكانيّةَ شِرائي مُقابِلَ الدُّنيا والآخرة فإنَّكَ بَخستَ حَقّي!

عصر بَيعِ الذِّمَم:

إن هذه الدُّنيا غدَتْ سُوقًا كبيرًا لبيع الذِّمَمِ والضَّمائر، إنني أعرف كُتّابًا كِبارًا يحملونَ أقلامًا بارعة ويَملكون مَواهبَ عِلميّةً نادرةً، بحيثُ نَستصغِرُ أنفسَنا أمامَهُم، غير أنهم لا يَملكون بداخلِهِم الضَّمائرَ والذِّمَم؛ لأنّهم باعوها في سوقِ الخيانةِ والغَدر! يَملكون العقولَ الكبيرة، ولكنَّهم لا يملكون القلوبَ الصّافية، فيُمكن أن نقول فيهم: إن صُدورَهم تَحوي أقلامًا قويّةً مكانَ قلوبٍ نابضةٍ بالحبِّ والوفاء، ومثلُ هذه الأقلامِ تَستطيع أن تُسوِّدَ أيَّ شَيء مقابلَ ثروة دُنيويّه زَهيدة؛ **لأنهم لا يَملكون**

الإحساسَ بالمحاسبة الأُخرويّة، ولا يَملكون الإحساسَ بتأنيب الضَّميرِ، فنَمَتْ فيهم قدراتٌ هائلة على التَّلوُّنِ معَ رياح الزَّمن وترجمةِ مَطالبه!

الحاجة إلى قيادة جديدة:

أعزائي! لو أردتُم أن تتخرَّجوا في هذه الجامعةِ كأساتذةٍ بارعينَ لأعرق الجامعات أو شرّاح حاذقين لعَويصات المُتونِ العِلميّة أو وُعّاظٍ ناصحين في ميدان الدَّعوة والإرشاد أو كُتّاب كِبار في مجال التَّصنيف والتأليف فلا أحدَ يَمنعُكم من ذلك، وأنا شخصيًّا أباركُكُم على هذه الأهداف السامية والغايات النبيلة، ولكن الزمنَ يحتاج إلى أمور أهمَّ من هذه كلِّها.

إنه بحاجة إلى **رجال يملكون القدرة على منحِ العصرِ الجديد فكرةً قياديّةً جديدة، وأُسُسًا دينيّة مَتينةً، وقوّةً روحيّةً عالية وتَربيةً أخلاقيّةً صافية**، فإن خَلَتْ مَدارسُنا الإسلامية من الرّجال المتوسِّمين بهذه الصِّفات فإن أرض الإسلام والمسلمين في خطر شديد، وكأني بي أرى حينئذٍ كيف تخرج هذه الأرض من تحت أقدامنا شيئًا فشيئًا، وتصير صورتُها وقتئذٍ كالصُّورة التي تحدَّث عنها القرآن الكريم: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ [الرعد: ٤١] و﴿ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ﴾ [التوبة: ١١٨]، معاذَ الله تعالى.

إن هذه الأرضَ التي جلسنا عليها الآنَ وتلك التي أقمنا عليها المراكزَ العلميّة اليوم ليستْ صخرةً عاتيةً تستطيعُ أن تنافِحَ الزمنَ وتقلُّباتِه وأعاصيرَه، إنها كومة من الرمال التي تَذروها الرياحُ، وهي ستخرج من تحت أقدامنا شيئًا فشيئًا عند قحطِ الرّجالِ البَواسل، وتصير كتلك الأرض التي قال الله تعالى عنها: «كَثِيبًا مَهِيلاً»، نسألُ الله تعالى السَّلامةَ والعافية.

معرفة الحقيقة والذات:

أعزائي! لا تزالُ الفرصةُ سانحةً أمامَكم، فتعلَّموا قبل أن يُعلِّمَكم التاريخُ المُؤلِمُ، وافتحوا عيونكم قبل أن تفتحَها حقائقُ الزَّمن القاسية، وحاوِلُوا الاستفادةَ من نور العلم، وانظروا مِن وراءِ حُجُبِ الغَيب كيف تُوقِفونَ عواصفَ الزَّمنِ في مركز القيادة!

أين الشيخُ المونغري؟ وأين الشيخُ النانوتوي؟ وأين الشيخ النعماني؟ وأين نحن؟

فاستعدُّوا للقيادة قبلَ أن يُطوى بساطُ الفرصة منكم، واعكفُوا على بناء الأفكار والأخلاق بالعزمِ الصّادق، واسترشِدُوا بأساتذتكم، وخذُوا منهم الزّادَ والنَّصائح، ووَطِّنوا أنفسَكم في العلوم والمعارف، وصِلُوا إلى ذروتها العالية الشامخة، بحيث لو خرجتُم من دُنيا الجامعة الصَّغيرة التي تعيشونها إلى دُنيا البشر

الفَسيحة التي يجب أن تعيشوا فيها تستطيعون أن تُكيِّفُوا أنفسَكم مع حقائقها الواقعيّة وحالاتها المتغيِّرة.

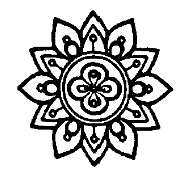
إن في هذه القافلة الصَّغيرة، وفي هذه الثِّياب البالية، وفي هذه الأجسادِ النَّحيفةِ يَعيش ذلك الأسدُ الذي يُزلزل بزئيره غابةَ الفلسفاتِ الماديّةِ والفِتن العصريّة، وفيكم يعيشُ عبقريُّ الإسلام القادم الذي يحملُ نفسًا طاهرة وهِمّةً عالية، وفيكم يَحيا عصاميُّ الدَّعوة المُقبِلِ الذي لن تستطيعَ أن تُدنِّسَه شبهاتُ الجهلِ وشَهواتُ الهوى، ولكنَّكم لا تعرفونَه، وأساتذتُكم لا يَعرفونَه.

إنني أُخاطِبُ هنا أصحابَ المواهب الخفيّةِ والقدراتِ المَخفيّة بصوتي الضَّعيفِ العاجز، لعلَّه يصلُ إلى تلك الأبواب المغلقةِ التي يَنام وراءَها الأسدُ النِّيام! ويُوقظُهم من نومِ الغفلةِ ونِسيانِ اليَقظة فيَستيقظون، ويقومون، ويعلمون، ويعملون، ويَبنون.

وأختِمُ كلامي بقول محمد إقبال الذي خاطبَ به هلالَ العيد: **لا تحزَنْ برُؤيةِ جِسمِكَ الصَّغيرِ! وفيكَ اختفَى البَدرُ المُنيرُ!**







الحاجة إلى مزيد من الكفاح والمؤهلات

ألقى سماحة الشيخ الندوي هذه المحاضرة القيمة في الجلسة الافتتاحية لجمعية الإصلاح التي يُديرها طلبةُ دار العلوم التابعة لندوة العلماء.



الحمدُ للهِ، نحمدُه، ونصلِّي على رسوله الكريم، أما بعد:

أعزائي الطَّلبة! من الأهداف العامة التي تأسَّستْ عليها دارُ العلوم التّابعة لندوة العلماء أن يكون خرّيجوها على دراية تامّة واطِّلاع كامل على أحوال الدُّنيا ومُجريات العصر، بحيث لا يشعرون بالغربة، ولا يُصابون بالدَّهشة حين يَلِجُون مُعترَك الحياة بعد التخرُّج، ولا تُثبت الأيام أن المدّة التي قضَوها هنا كانتْ بعيدة كلَّ البُعد عن الحياة العامّة الجارية خارجَ أسوار هذا المكان، بل كانوا يَستنشقون هواء الدُّنيا قدر حاجتهم من هنا؛ ولهذا الهدف تركْنا النوافذ والأبواب مفتوحة إلى الحياة الخارجية.

الجرأة المطلوبة للإصلاح:

إن الفترة التي تأسَّست فيها دار العلوم كانتْ لها لغةٌ خاصّة وأسلوب خاصّ للتعبير عن الآراء ووجهات النظر، حيث كانت الألفاظ المُستعمَلة والتعابير المستخدمة في الحوارات والمحافل والمجالس متأثِّرة بذلك المنهج الذي كان رائجًا في المجتمع، فلم تكن هناك فرصة مواتِيةٌ في المدارس الإسلامية القديمة لقراءة المجلات والجرائد والصُّحف، بل يُعَدُّ ذلك أمرًا معيبًا وفعلاً مشينًا إلى حدٍّ ما، وكان الطلاب المهتمُّون بها يُتَّهمون بعدم الاهتمام بالدراسة والتحصيل والجِدِّ والطَّلب، ويُقال عنهم: إنهم يضيّعون جزءًا ثمينًا من أوقاتهم في أمور غير مهمّة!

في مثل هذه البيئة والظروف تأسَّستْ جمعيةٌ طلابيّة خاصّة لطلبة دار العلوم التابعة لندوة العلماء، يُشرف على أعمالها الإدارية والتنظيميّة والعلميّة الطلابُ أنفسُهم.

وقد وضعت هذه الجمعية برامجَ خاصّة لمراجعة الكتب غير الدراسية، وقراءة الأخبار اليومية، ومطالعة المجلات الشَّهرية والدَّوريات المختلفة، كما اهتمتْ بإقامة جلسات أسبوعيّة لتدريب الطلاب على فنّ الخطابة والإلقاء.

وما من شك أن هذه المبادرة الجريئة قامتْ على الإحساس بالواقع والتعايش مع مقتضياته، وهذه المبادرات والنشاطات وإنْ لم تحمل أي جِدّة في وقتنا الحاضر إلا أنها كانت تُعَدُّ خطوة جريئة وثورة جديدة أمام حواجز العادات والتقاليد الجارية في المدارس الإسلامية.

تخيَّلوا الجرأةَ المطلوبة للقيام بمثل هذه الثورة عن طريق طلاب دار العلوم الفتيّة في نهاية القرن الماضي وقبل سبعين سنة من الآن[١]، وكان ذلك من قِبل أولئك الطلاب النُّجباء من أبناء دار العلوم الذين تقرؤون أسماءَهم في الكتب والمجلات في الوقت الحاضر.

---

(١) وقبل أكثر من ١٢٠ سنة من الآن.

إن هذه المبادرة كانت ذات أهميّة خاصّة في تلك الفترة من تاريخ النظام التعليمي لهذه البلاد، وكانت خطوة جديدة في ساحة الحياة التعليمية والبيئة المدرسية، ويستطيع أن يُدرِكَ صِدقَ كلامي هذا أولئك الإخوةُ الذين أدركوا تلك الفترة، وعرفوا طريقة تفكير أكثر العلماء ورجال العلم والفكر فيها، ورأوا صعوبة القيام بمثل هذه النشاطات في تلك الظروف والبيئات، ومن هنا كان تأسيس جمعية الإصلاح في ذلك الوقت خطوة ذات أهميّة بالغة.

وما من شك أن جمعية الإصلاح أدتْ دورًا كبيرًا في الرِّيادة الطلابيّة والقيادة الشبابيّة في تلك الفترة، ولا تزال تُؤتي أُكُلَها كلَّ حينٍ بإذن ربنا، وقد خَرَّجَتْ هذه الجمعية خطباءَ مشاهير ودعاة كبارًا وكُتّابًا لامِعِينَ، كما استفاد من أنشطتها المختلفة وأعمالها المتنوعة كثيرٌ من الطلاب في مجالات الحياة المختلفة، ومن هنا نرى أننا وإن أكثرنا المدحَ والثناء في حقِّ أولئك الطلاب الذين أسَّسوا هذه الجمعية، فإنه يُعدّ قليلاً بالمقارنة مع الفضل الكبير الذي أسدَوه لنا بتأسيس هذه الجمعية.

التغيُّرات الجذريّة في الحياة:

أعزائي! إن الأعمال والأنشطة تقيَّم على أساس استجابتها لمطالب العصر، ومدى نجاحها في قضاء حاجات المجتمع، وتأسيس هذه الجمعية في تلك الفترة من الزمن يُعَدُّ برهانًا قاطعًا

على إدراك العلماء الدقيق لحاجة العصر ومطالبه، وكانتْ دار العلوم التابعة لندوة العلماء سبّاقة في مثل هذه الخطوات الجريئة النيِّرة، غير أن المسافة التي قطعها الزمن بعد تأسيس هذه الجمعية طويلة جدًّا، حيث لم يقف سَيرُ الزَّمن ولو للحظة واحدة على طول هذا التاريخ، ولم يَسترحِ الزمنُ عند منزل معيَّن خلال هذه الفترة الطويلة، وقد تغيَّرتْ خلال هذه العقود العشر طرقُ التفكير وضروريات الحياة وحاجاتُ المجتمع، وظهرتْ في مسرح الدُّنيا ميادينُ جديدة للعمل، وتحدِّيات جديدة في الحياة، وكلُّها تنتظر حلولاً جذرية وأجوبة واضحة من العلماء ورجال الدين.

ومن هنا صارتْ مطالعة الأخبار اليومية وقراءة المجلات الشَّهرية وتصفُّح الدَّوريات المختلفة وإقامة الحفلات المتنوعة أمرًا عاديًّا جدًّا في بيئة المدارس الإسلامية الحالية، وأظنُّ أنه لا تَخلو مدرسة مهما كانتْ صغيرة من مثل هذه الأنشطة إلا نادرًا.

وقد تأسَّست جمعياتٌ كثيرة من هذا النوع في القُرى البعيدة والبوادي النائية، حيث تُدرِّب هذه الجمعيات الطلاب والنَشْء على فنِّ الخطابة والإلقاء، وهي منتشرة بكثرة في بيئات المدارس الإسلامية في الوقت الحاضر، ويوجد في بعض المؤسسات العلمية عشرات الجمعيات من هذا النوع، وهناك جمعيات على

مستوى المحافظات، بل إن هناك جمعياتٍ من هذا النوع على مستوى الأسرة!

وفي ضوء هذه التطوُّرات الكبيرة أرى أن الزَّمنَ أسرعُ بكثير من هذه الأنشطة المتواضعة، فلم يعد كافيًا أن يقوم الإنسان بإلقاء خطبة ارتجاليّة أو أن يكون على دراية عامّة بالصُّحف والمجلات ومحتوياتها ومضامينها وأماكن صدورها أو أن يكتب تقريرًا عاديًّا عن هذه الأمور أو يكتب مقالاً في موضوع مُعيَّن أو يُعبِّر عن وجهات نظره وآرائه في صورة مُنظَّمة.

لا، لم يَعُدْ شيءٌ من هذا كافيًا، ولم تَعُدْ هناك أي ميزة لهذه الأنشطة التقليدية تلفتُ النَّظرَ وتجذب البصر!

إن هذه الأنشطة صارتْ من ذكريات الماضي القديم! ونحن نُعَرِّجُ عليها الآنَ من باب إمكان التَّوسُّع فيها أو الاستفادة منها في مُواكبةِ بعض مُقتضيات العصر الجديد، وإلا لم تَعُدْ هناك أي جِدّة مذكورة أو أهميّة كبيرة في إلقاء خطب عادية أو إصدار مجلات تقليديّة أو تأليف كُتُبٍ مُتواضعة.

المؤهَّلات المطلوبة في هذا العصر:

إن تأليف كتاب عاديٍّ بأسلوب عصريٍّ أو كتابة مقالات مُتواضعة باللغة الأردية أو الفارسية أو غيرهما أمرٌ قد جلب لصاحبه الثناء والمديح في القديم، ولفتَ إليه الانتباه والنظر في

الماضي؛ لأن كثيرًا من العلماء لم يكونوا قادرين على التعبير عن آرائهم ووجهات نظرهم بلغة العصر، فكانوا يستعملون المصطلحات والألفاظ القديمة للتعبير عن الأفكار الجديدة، فإذا تمكَّنَ شخص أو أشخاص من التعبير عن هذه الأفكار بألفاظ جديدة ومصطلحات مفهومة في مثل هذه البيئة فإنه يُعَدُّ إنجازًا كبيرًا ومهارة فائقة لصاحبها، ولكن المياه قد جرتْ كثيرًا بعد ذلك، فلم تَعُدْ هذه السِّلع تجلبُ الزبائن إلى سوق العلم والدِّين.

وكانت الحالُ في تلك الفترة التي تأسَّست فيها ندوةُ العلماء، أنه إذا استطاع خِرِّيجٌ ندويٌّ أن يُؤلِّف كتابًا في موضوع تاريخي ـ مثلاً ـ بأسلوب حديث وبترتيب جيّد، عن طريق جمع المواد اللازمة من الكتب القديمة، فإن ذلك يُعدّ إنجازًا علميًّا كبيرًا وخدمة علميّة عظيمة! وكان يكفي لإثبات جدارة أي خريج أن يكتب كتابًا متوسّطًا ـ من حيث المحتوى والأسلوب ـ في فرع من فروع التاريخ الإسلامي، أو عن خدمة علمية من خدمات المسلمين، أو عن أثرٍ حضاريٍّ أو تربويٍّ لهم، أو عن حكومة معيَّنة من الحكومات الإسلامية المنقرضة، أو أسرة حاكمة من الأسر المسلمة الحاكمة، ويقدّمه للقارئ بصورة مرتبة وبأسلوب معاصر، بحيث لا يشعر القارئ بالغربة والوحشة في القراءة، فإنه يكفي لأن يُعدّ هذا الرجل صاحب قلم سيّالٍ قويٍّ وأسلوب فريد ممتاز! وإن لم يحمل الكتابُ في ثناياه أيَّ ملاحظاتٍ دقيقة أو نتائجَ مهمّة!

غير أن ذلك الزمن قد وَلّى دون رجعة، وتلك الدُّنيا قد تغيَّرت للأبد، فلا مطمعَ في عودته!

فإذا كانت جمعية الإصلاح تهدف ـ حتى الآن ـ إلى تكوين خطباء عاديِّين أو دُعاةٍ متوسِّطين، وألا يبقى طلابُنا بعيدين عن عالم الصّحافة والإعلام والأخبار ووسائل التَّواصُل المختلفة، بحيث يعرفون ميول العصر وأحداثه، وأصحاب المجلات وكُتّابها، والكتب وأصحاب الأقلام المتميّزة فيها، فإن مثلَ هذه الأهداف السَّطحيّة غير كافية في الوقت الحاضر!

مطالب العصر المتجدّدة:

إن مطالب العصر ازدادتْ كثيرًا عن هذه الأنشطة العادية، وسقف طلباته يتغيَّر ويتجدَّد في كلّ لحظة، ورُتَب معاييره ومقاييسه تتبايَنُ في كلّ وقت حسب قدرات أهله، وحسب التغيُّرات السّياسيّة والاجتماعية الحاصلة فيه، وهي تُطالب العلماءَ ورجال الدِّين والفكر بإرشاداتٍ ونصائحَ تتناسب مع مستوى التقدُّم الحاصل والتطوُّر الموجود في هذا العصر.

وبناء على هذا كلِّه أقول: إن هذا العصر غير مُستعدٍّ للاعتراف بوجودٍ علميٍّ لشخصية طالب علم مُتوسِّطِ القدرة والملَكة، بحيث يستطيع أن يخطب أو يكتب!

الحاجة إلى مزيد من المؤهلات:

إن الفوضى العارمة التي نعيشها اليوم في مجال الفكر والثقافة، والهزيمة النفسية القاتلة التي نراها في صفوف المسلمين، وعدم الثّقة المشؤوم الذي نلمسُه لديهم في صلاحية الإسلام لمواكبة حاجات العصر، والظنّ السَّيِّئ الذي نُحِسُّه فيهم عن مستقبل الإسلام وقدراته، واليأس المُسيطِر على جيل الشباب والطبقة المثقَّفة، وحتى حَمَلة الدِّين! كلُّ هذه القضايا تتطلَّب الكثير من الاستعدادات المنظَّمة والإعدادات المُبرمجة والتجهيزات المرتّبة، وتتطلَّب مزيدًا من الدراسة والبحث والجهود والتفكير والتأمُّل في المشاكل وأسبابها وحلولها.

وما من شكٍّ أن خريجي ندوة العلماء السابقين قد قاموا بجهود مشكورة في مجال التأليف والتصنيف والتحقيق، وبذلوا جهودًا كبيرة لإعادة ثقة المسلمين في مستقبل الإسلام وأحكامه واستجابته لمطالب العصر، والخدمات التي قدَّمُوها في تلك المجالات التي كانت موضع اهتمام الناس في عصرهم تُعَدُّ جليلة وعظيمة بالنسبة لعصرهم، غير أننا ـ إذا قمنا ـ بإعادة نشر تلك الكتابات وتكرارها فلا يدلُّ ذلك على مهارة فائقة بالنسبة لنا، بل إنه يزيد اليأس والقنوط لدى خاصّةِ المسلمين وعامّتِهم! حيث يظنُّون أن سلَّتَنا العلمية قد فرغتْ من كل جديد، وأن خدماتنا

الدينية قد توقَّفتْ إلى هذه الحدود، وأنه لا مزيد لدينا لتقديمه أمام الدنيا.

ميدان البحث الواسع:

إن ميدان البحث والدّراسة قد اتَّسع كثيرًا في الوقت الحاضر، والقضايا التي كانت تُعَدُّ من وَحيِ الخيال في السّابق، والموضوعات التي لم تَخطُرْ على بال علمائنا السّابقين صارت حقيقةً حيّةً عاديّة في هذا العصر، وإن المؤسسات والإدارات وحركات الطبع والنشر قد شقّت صدورَ الأرض وأخرجَت كنوزَ البحار، والأمور التي كنا نسمع عنها أنها نادرة الحصول قد أصبحتْ متوفِّرة بكثرة في سُوق الدُّنيا اليوم، وقد تغيَّرت طريقة التفكير والحياة، وتجدَّدتْ مشكلات الناس وحاجاتهم، فتصحيح طرق التفكير وتقديم الحلول لهذه المشاكل بطريقة تُطَمئِنُ قلوبهم وترتاح إليها نفوسهم يحتاج إلى قوّةٍ فائقة في العلم، وإرادةٍ قويّةٍ على الصَّبر والتحمُّل، وعمل دؤوب على أرض الواقع، ولا يمكن الاكتفاء بإعادة نشر خدمات السابقين أو تقليدهم في تلك المجالات، بل لا بدَّ من الابتكار والإبداع والتجديد في كلِّ هذه المجالات.

المباحث القديمة فقدَت أهميّتَها:

مرَّ بالأمة الإسلامية وقتٌ أحدَثَ فيه كتابُ «حجّة الإسلام» للعلامة شبلي النعماني هزّةً قويّة في الأوساط العلمية، وكان

كتاب «نظرات على حياة أورنك زيب» يُعدّ فتحًا جديدًا في باب التراجم والطبقات، وكان كتاب «مكتبة الإسكندرية» يُعتبر نموذجًا عاليًا في مجال التَّحقيق العلمي والبحث التاريخي، وكان يُنظر إليه على أنه دليل قاطع على حيويّة الإسلام وجِدّته ومُرونته، غير أن تلك المباحث والقضايا قد فقدت كثيرًا من أهميتها في الوقت الراهن، فلو كتبنا في هذه المواضيع مرة أخرى فإنها لن تَلقى أيَّ اهتمام من الطبقة المتعلِّمة، كما أنها لن تُلَبّي أي حاجة علميّة لدى المثقَّفين، فهذا العصر يتطلَّب بحوثًا أقوى ودراساتٍ أنضجَ من تلك الدراسات والمراجعات والتحقيقات.

اعتراف التاريخ مطلب صعب:

إن هذه الخدمات التي قدمَّها علماؤنا السابقون لَتستحقُّ منا الشُّكرَ والتقدير بدون شكّ، وتربطنا بها علاقات روحيّة وقلبيّة، وهي جزء من تاريخنا الإسلامي المجيد، غير أن الزَّمن قاسٍ في حكمه على الأمم والشعوب، وهو غير رَحيم في الحكم على الأفراد والأشخاص، فلا يعترف بأمّةٍ أو جماعة أو شخص بسهولة، ولو كانتْ ذاتَ تأثير كبير وجهود مشكورة؛ لأن طبيعته عدمُ الانقياد أمام أحد ـ كائنًا من كان ـ ما لم يُجبره على الانقياد بقوة شكيمتِه، وكثرة أعماله، وجِدّة جهوده؛ لأنه فُطر على ألا يعترف بأحدٍ ما لم يُلزمه على ذلك بمواهبه وقدراته وصلاحياته

وجهوده وأعماله، ولا يكفي لحصول الاعتراف منه استمرار وجود الشيء لفترة معينة على صفحات التاريخ، إنه واقعي جدًّا في هذا المجال، وقاسٍ جدًّا بهذا الصَّدد، فهو لا يُبدي الاحترام لأمة ما لم تُثقِلْ كاهلَه بإنجازاتها واختراعاتها وابتكاراتها ومستجداتها، بحيث يضطرُّ إلى الاستسلام لها والإقرار بها.

إن حصولَ الاعتراف من التاريخ، وتحصيلَ شهادة تقدير منه، وقبولَ امتيازٍ من جانبه ليس أمرًا سهلاً كلُعب الأطفال، إنه لا ينظر إلى الأمجاد الماضية، ولا يسمع إلى القصائد المادحة، ولفتُ نظرِه واسترعاء سمعه وإقامة الحجّة عليه وإجباره على إبداء التقدير والاحترام اللائق وحصول مكانة ـ تليق بكم وبأمتكم ـ على منصته، يحتاج إلى مزيد من الجِدِّ والجهد والمشقة والتّعب، ويجب أن ترفعوا سقف المطالب في أعينكم.

والعِلمُ الحديث وإن تقدَّم كثيرًا في مجال التقنيّات والماديّات، وفتحَ أبوابًا جديدة في هذه المجالات، وأضافَ قضايا كثيرة ذات أهميّة بالغة في مسرح الحياة، ولا يُمكن إنكار شيء من ذلك، غير أنه أحدثَ ـ في نفس الوقت ـ مشاكلَ جديدة في مجالات العلم والفكر، والثورات الفكرية والعلمية التي حصلت في هذا العصر مع تقدُّم العلم وتطوُّر التقنيّات لا يكفي معها مجرَّدُ سَعة المطالعة وسحر التعبير وعلوّ الهمّة وحِدَّة النظرات

والأفكار، **بل لا بدَّ معها من الخلُق العالي في التعامُل معها، والعاطفة الجيّاشة تجاه الدِّين، والعيون الدامعة في الأسحار!**

ولعلكم تظنُّون أني وضعتُ كلماتي هذه في غير موضعها، وأنني جانبتُ الواقعَ والصَّواب، وابتعدت عن الحقيقة والحقّ، والسبب في هذا الظنِّ هو أنكم ترَونَ أن الزمن قد وَلَّى ظهرَه لتلك الأمور التي كنتم تظنُّونها عزيزة وقَيِّمة، والقضايا التي أبدى الشَّرع لها اهتمامًا كبيرًا قد أعلن الزمن ثورته ضدَّها، فلا غرابةَ في أن تظنُّوا بأن عاطفة القلب وحرارة الروح ودمعة العين ليستْ ذات قيمة كبيرة وأهمية بالغة بهذا الصَّدد.

يجب أن تعلموا أن هذا الظنَّ خاطِئٌ، كما يجب عليكم تصحيحه؛ لأن من **الحقائق الواقعية التي لا مراءَ فيها أن تقدير الناس للشخصيّة القويمة والأخلاق الفاضلة والأعمال الطيّبة لم يقلَّ مع مرور الزمن، بل ازداد معه**، ومن هنا نجد أن وراء كلِّ ثورة ناجحة رجالاً أثَّروا في قلوب شريحة كبيرة من الرّفاق والأتباع، وفي عواطفهم وتفكيرهم وتصوُّراتهم، وأشعلوا فيها نارًا ضارية جديدة، وإنَّ نجاحَ هذا التأثير بحاجة إلى الخلُق القويم والعاطفة الصّادقة والدمعة الصافية.

قوة اليقين:

إخوتي الأعزاء! إذا أمعنتُم النظر في أي حركة أو ثورة أو

انقلاب فإنكم تجدون بدون شكٍّ أن وراءها جذورًا مؤصّلة وأفكارًا قوية تجري فيها مجرى الدَّم، كما تَرَونَ فيها رجالاً وشخصيّاتٍ قد تسلّط على قلوبهم اليقينُ بضرورة تلك الحركة والثورة والانقلاب، **وهذا اليقين قد ملك على قلوبهم وعقولهم وأفكارهم وأعصابهم، فمَلكوا من خلاله قوةً مغناطيسيّة وجذبًا ساحرًا يستطيع أن يُؤثِّر بهما في قلوب الآلاف المؤلفة من البشر وعقولهم، الذين يجعلون تلكَ الثورةَ غايةَ حياتهم، ويُضحُّون في سبيلها بالغالي والنَّفيس، فتحصل الثورة التي أرادوها، ويحدث التغيير الذي عملوا لأجله، ولا يُمكن أن يقع مثل هذا التأثير في القلوب والعقول بمجرد خطابات رَنّانة أو كتب ذات ألفاظ طنّانة أو أقلام سيّالة أو أحلام كاذبة أو تحقيقات نادرة، أو عرض فكرة قديمة في صورة جديدة أو تقديم شراب مُعفّن في كأس صافية!** لأن هذه الأمور لا تستطيع أن تحرِّك ساكنًا في دُنيا الواقع المُرهَف، فكيف بدنيا الانقلابات الجذرية والثورات العارمة.

إن ما نحتاجه اليوم هو ذلك القلب الذي ينبض بالحبِّ تجاه الخلق، ويشعر بالألم الصادق بمشكلاتهم، ويملكُ الرُّوحَ الدافئة بالحرارة تجاه الغَير، والحماسَ الملتهب لخدمة الآخرين، والحسَّ الداخليَّ المُرهَف، فهذه الصِّفات مجتمعةً تستطيع أن تُشعل البراكين الملتهبة في البحار الباردة، وتشدّ الأعصاب الهامدة، فتنفجر تلك البراكين يومًا، وتدحض مشاكل المجتمع، وتقضي على أزماته،

وتشعل الحرارة في قلوب الآلاف المؤلفة من البشر، وتُذيب النقاط السَّوداء منها؛ فتصبح صافية بيضاء، كيوم ولدتْها أُمهاتها!

إنني أستطيع القول بناء على دراساتي للتاريخ ومطالعاتي للسير والتراجم: إنه لم يحصل أي تغيير في حياة البشر بمجرد الخطابات الطنّانة والكلمات الرنّانة.

إن القضيّة الجوهريّة التي أُريد أن ألفت أنظاركم إلَيها هي تلك الفكرة المركزية التي أشار إليها محمد إقبال في قصيدته، حيث قال: **إن المسلم الذي يَستحِقُّ أن يُوصَف بالمجدِّد في هذا العصر هو ذلك العبقريُّ الذي يستطيع أن يُثبت جدارةَ الإسلام وصلاحيّةَ شريعته واستمرارَ قانونه أمام التاريخ ورجاله، فيستطيع أن يربط الإسلامَ بالحياة، ويستطيع أن يُبرهن على أن القانون الإسلامي أعلى مقامًا وأعظم أثرًا وأكثر جِدّة من جميع القوانين الوضعية الإنسانية.**

ويُثبتُ أن قانون الشريعة الغراء أكثر تقدُّمًا من الزمن نفسِه، فلا يمكن للزمن أن يجاريَه بأيِّ حال من الأحوال، بله أن يتقدَّمَه، فمهما تقدَّم العصر وتطوّر، فإن الإسلام قادر على توجيهه وإرشاده، وقادر على إجابة أسئلته وحلِّ مشاكله وإنهاء أزماته، وهو يحمل في طيّاته قوّةً أبديّةً سرمديّةً على تقديم مجتمع إنساني مثاليٍّ راقٍ.

إن محمد إقبال قدَّم هذه الفكرة المركزية إلى الأمة الإسلامية

في ذلك الوقت، وكان له رجاء كبير ورغبة أكيدة في برهنة هذه الحقيقة على أرض الواقع، وقد طلب العَونَ من العلامة السيِّد سليمان الندوي[١]، الذي كان يُعَدُّ الابنَ البارَّ للعلوم الإسلامية،

---

(١) هو العلامة السيد سليمان بن أبي الحسن الحسيني الندوي، أحد مشاهير علماء الهند، وُلد عام ١٣٠٢هـ الموافق ١٨٨٤م بقرية دِسْنة من أعمال ولاية بِهار، وقرأ مبادئ العلوم على أخيه الشيخ أبي الحبيب النقشبندي، ثم التحق بدار العلوم التابعة لندوة العلماء، وتخرّج منها عام ١٣٢٤هـ، وقد درس فيها على يد كل من المفتي عبد اللطيف السنبهلي، والشيخ السيد علي الزينبي، والعلامة فاروق بن علي العباسي وغيرهم، ولازم العلامة شبلي النعماني، واستفاد منه كثيرًا، وقد بايع على يد المصلح الكبير العلامة أشرف علي التهانوي، واستفاد من أدبه وخلقه، وأجازه الشيخ في مدة قصيرة.
عُيِّن مدرسًا بدار العلوم، وبقي بها إلى عام ١٣٣٠هـ، وكتب خلالها مقالات علمية رصينة في مجلة الندوة لفتتْ أنظار العلماء والمثقفين والأدباء إليه، فاستقدمه أبو الكلام آزاد لمساعدته في تحرير مجلته الهلال الشهيرة، وعُيّن أستاذًا للغة الفارسية بجامعة بومباي.
ولما دنا أجل أستاذه النعماني طلبه إليه، وفوّض إليه مهمة تكميل موسوعة سيرة النبي صلى الله عليه التي بدأها، ورئاسة دار المصنِّفين التي كان يرأسها، ورئاسة مجلة المعارف التي كان يُصدرها من الدار المذكورة، وقد اختير عضوًا مراسلًا لمجمع فؤاد الأول بمصر (مجمع =

. . . .

= اللغة العربية فيما بعد)، وقد منحتْه جامعة عليكرة الإسلامية شهادة الدكتوراه الفخرية في الآداب.

شارك في حركة الخلافة التي قامتْ ضدَّ إلغاء الحلفاء الخلافة العثمانية، فأحرز مكانة بارزة لدى العلماء والسياسيين، واختير عضوًا في وفد الخلافة الذي سافر إلى بريطانيا لإبلاغ زعمائها عن موقف مسلمي الهند تجاه الخلافة العثمانية وارتباطهم بها، والتقى هناك مع القادة والساسة ورجال الفكر، ورأسَ الوفد الهندي في مؤتمر العالم الإسلامي الذي عقده الملك عبد العزير آل سعود عام ١٣٤٤هـ.

استقدمه والي بهوفال النواب حميد الله خان لرئاسة القضاء والجامعة الأحمدية والإشراف على التعليم والأمور الإسلامية ببلاده، فأجابه وكان عضوًا في اللجنة المكلفة بوضع الدستور الإسلامي لباكستان الوليدة، ولكنها فشلتْ لأسباب غامضة!

ألّف الشيخ مؤلفات علمية رصينة نالتْ رواجًا وقَبولًا في الأوساط العلمية، من أهمهما: تكملة سيرة النبي لأستاذه شبلي النعماني (ويعد هذا الكتاب دائرة معارف السيرة النبوية)، والسيرة النبوية، وأرض القرآن (في جغرافية القرآن الكريم)، وسيرة أم المؤمنين عائشة ﵂، وسيرة الإمام مالك، وعمر الخيام، ونقوش سليماني (البحوث اللغوية والأدبية)، وحياة شبلي، والعلاقة بين العرب والهند في أغوار التاريخ، والملاحة عند العرب، بالإضافة إلى مقالات علمية وثقافية وأدبية كثيرة منشورة في أعداد المجلات القديمة، وبعضها نُشر في =

وكان أكثر الناس جدارة للقيام بمثل هذا العمل التجديديّ الكبير، حيث كان يُمثّل شيخَه العلامة شبلي النعماني في عصره.

أيها الإخوة! هذه الفكرة مطروحة في ساحة العمل حتى الآن، وهي تتطلّب منكم العمل الجادَّ لعرضها على أرض الواقع بصورتها الصحيحة الكاملة، فيجب عليكم أن تتقدَّموا إلى حلبة هذا الميدان الفسيح والجهاد العظيم.

معركة الفكر الكبرى:

يُضاف إلى ما سبق أن المعركة الفاصلة التي تجري اليومَ في العالم الإسلامي هي الصِّراع بين الإسلام والفكر الغربي، وهذا هو الاختبار الصعب الذي فشل فيه الكثيرون من أبناء جِلدتنا، فسقطوا في هاوية الإلحاد، وقد أقضَّ تصوُّرُ مثلِ هذا الفشل مضاجعَ علمائنا السّابقين، ولكن الحقيقة المؤسفة التي نُعلِنُها اليوم بقلوب حزينة أن كثيرًا من الدول الإسلامية تُلقي بفلذة أكبادها إلى هذه الهاوية.

= مجموعات، تُوفي سنة ١٣٧٣هـ الموافق ١٩٥٣م بكراتشي بعد حياة حافلة بالأعمال العلمية والأدبية، وصلى عليه جمٌّ غفير من العلماء والأعيان وعامة الناس، ودُفن هناك، رحمه الله رحمة واسعة، ورضي عنه، وجعل الفردوس مأواه. يُنظر: الندوي، أبو الحسن، تتمة الإعلام بمن في الهند من الأعلام، مصدر سابق، ج٨، ص١٢٣٥ ـ ١٢٣٨، والزركلي، الأعلام، مصدر سابق، ج٣، ص١٣٧.

إن الطبقة المسلمة المثقَّفة التي تُحكِم قبضتها على زمام الحكم في بلادنا تضطرب في أمواج هذا الصراع العنيف، بين الإسلام الجامع للعقل والقلب والمادة والروح والدُّنيا والآخرة وبين الغرب الماديِّ المُلحِد، ناهيك عن عامّة المسلمين.

إن هذه الطبقة المسلمة التي تقود المجتمع الإسلامي ترى في الفكر الغربيّ خُلاصةَ التجارب الإنسانية المثاليّة، وأنه المَنزِلُ الأخير في سفر التجارب البشريّة! وترى فيه الحلَّ النهائيَّ للأزمات الإنسانية والمشاكل البشرية، وتنظر إليه كبديل للنظام الإسلامي الذي صار قديمًا في رأيهم، وتظنُّ ـ بدون دليل ـ أن النظام الإسلامي قد فقد صلاحيته، فلا يصحُّ أن ندفعه إلى واقع الحياة الإنسانية مرّة أخرى.

هذه هي المشكلة الكبرى التي تشتعل كالبركان في العالم الإسلامي كلِّه، شرقًا وغربًا، ولم يسْلَم من تأثيرها ـ مع الأسف الشَّديد ـ أي طبقة من طبقات مجتمعنا الإسلامي، كما لم يَسلَمْ من تأثيره أيُّ رجل مثقَّف.

العمل التجديدي المنشود:

إن أعظم عمل تجديديٍّ يستطيع أن يقوم به المسلم بهذا الصَّدد، وأعظمَ عمل إصلاحيٍّ يُمكن أن تُقدِّمَه دارُ العلوم عن طريق خِرّيجيها في هذا العصر هو **إثبات جدارة الإسلام في**

معترَكِ الحياة المختلفة، وجدارته في ميادين العلم المتعدِّدة، وهذا ما تفرضه علينا مآثرُ علمائها السابقين وجهودهم وتضحياتهم، وهو ما يُبرهِنُ على ضرورة وجود المدارس العلمية الدينية كدار العلوم وغيرها، وهذا الأمر يتطلَّب من خريجي ندوة العلماء وغيرها من المدارس الإسلامية أن يَبذلوا قصارى جهودهم في نشر الثقة بالإسلام في العالم الإسلامي والغربي، وأن يُزيلوا وطأة الفكر الغربي عن عقول المسلمين، وأن يُطفِئُوا نيرانَ حربه التي اشتعلتْ في قلوبهم التي لم ينجُ من لهيبها أيُّ مسلم في أيِّ بلد إسلامي أو غير إسلامي.

التصدِّي للتّحدِّي:

وهذا هو العمل الكبير الذي يجب القيام به في الوقت الحاضر، وهو ما يجب أن تتصدَّوا له، فلا بدَّ من أن تُعِدُّوا أنفسَكم لذلك الجهاد العملي، حسب مقتضياته ومطالبه، ولا بدَّ أن تُثبتوا ذكاءكم وفطنتكم في هذا الميدان الخطير، وأن تُقدِّمُوا النَّموذجَ الأعلى للفِراسة والدِّقّة واللَّباقة في هذه المعركة عن طريق دراسة الأديان والفلسفات والمذاهب الفكرية، واستيعابِها وهَضمِها، ثم تقديمها إلى الناس بالأدب الرّاقي والأسلوب العلمي والمنهج القائم على الأدلّة القطعيّة والحجج الدامغة، حتى ينقاد لكم العالَمُ طواعيةً، ويعترف بكم الزمنُ طوعًا أو

كرهًا، ويُقِرَّ بعملكم التاريخُ رغم أنفه؛ **لأنه لا يُمكنه التَّغاضي عنكم حينئذٍ.**

إنني أُعيد وأكرِّر بأن العصر الجديد ينتظر منكم أدوارًا جديدة كبيرة، وهي أصعب وأعسر من الخدمات التي طلبَها الزَّمن من علمائنا السّابقين، فيجب أن يكون كلٌّ واحد منكم ذلك القائد الذي وصفَه محمد إقبال في شعره: **نظرةٌ عالية سامية، وكلمةٌ رقيقة حانية، وقلبٌ رَؤوفٌ مُتألِّمٌ، هذا هو زادُ الطَّريق لأميرِ الركبِ وقائدِ القافلة.**

إننا لا نملك حتى حلاوة اللسان، والدكتور إقبال يرى أن حلاوة اللسان وحدها لا تكفي، بل لا بدَّ أن تجتمع معها حرارة القلب، وسموُّ النَّظر، وألَمُ القلب!

إن أولئك العظماء الذين تتشرَّفون بالانتساب إليهم، وتحملون مِيراثَهم باعتزاز وامتنان، لا أقول: إنهم قَطفوا نجومَ السَّماء، ولكنْ لا شكَّ أنهم استطاعوا أن يأخذوا مكانهم على مِنصّةِ التاريخ، وأن يحصلوا على القدح المعلى فيه، ولم يكتفوا بذلك، بل ورَّثوه لمن خلفَهم بكامله وتمامه، فيجب عليكم أن تبذلوا قصارى جهودكم للحفاظ على هذا الميراث المجيد، وأن ترفعوا معه سقفَ رُتَبِ الخُطب والإنشاء والتعبير والتأليف والتَّصنيف، وأن تزيدوا من سقف البحث والدراسة والتحقيق، وأن تَسترشدوا

بأساتذتكم المتخصِّصينَ المهَرة في هذا المجال، لا سيَّما أصحابُ الإصلاح والتَّجديد منهم، الذين تربطكم بهم علاقة قلبية وروحية.

وأَوَدُّ أن أُضيف هنا أمرًا مهمًّا جدًّا يرتبط بالاستعداد العلمي: إنه لا بدَّ من القراءة والمطالعة للقيام بالعمل المطلوب، ولكنها ليست عمليّة سهلة، بحيث يستطيع أيُّ إنسان أن يُزاوِلَها كما يُريد.

إن القراءة سيفٌ ذو حدَّين، فهي تضرُّكم إن لم تُحسنوا استعمالَها؛ لأنها كالجسر الحادّ الذي يجب على عابريه الاتِّصاف بكثير من الحذر والانتباه والحيطة واليقظة، فيجب أن تَستشيرُوا الأساتذةَ والمُربِّيينَ الذين كرَّسوا حياتَهم لإرشادكم والأخذ بأيديكم إلى الطَّريق المستقيم، فلا تَستهينوا بهذا الأمر؛ لأنَّ الوقتَ أمامَكم قليل، ولكن العمل المطلوب منكم كثير كثير، ووسائل الدراسة تزداد يومًا بعد يوم، **فلا تظنُّوا أنّ كلَّ ما يخرج من دُور الطِّباعة يستحقُّ القراءة**، وأن كلَّ ما يصدر من المكتبات التجارية ينبغي أن تُعطوه اهتمامَكم.

لا، الأمر ليس كذلك، **إن عمليّة القراءة تحتاج إلى اختيارٍ مُوفَّق للكتاب، ثم فَهمٍ صحيح له، ثم استيعابٍ جيّدٍ له، ثم توظيفٍ مُناسبٍ لعلومه ومضمونه في خدمة الإسلام، وهذا لن يكون إلا إذا استرشدتُم بالخبراء والعلماء والأساتذة والمربِّين.**

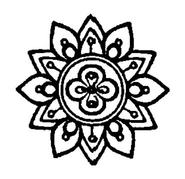
إن هذه المدارس قلعةُ الأخلاق الإسلامية والمقاصد الرَّبانيّة،

فلا يُمكن أن يدخل في حرمها إلا ما يتوافق مع مقاصدها العظيمة وأهدافِها السّامية، وما ينسجمُ مع غايات مُؤسِّسيها، فكما أنكم لا تسمحون بإدخال شيء كريه يُعكِّر صفوَ الحياة العطرة هنا، فيجب عليكم ألا تسمحوا لأنفسكم بإدخال كتب ورسائل ومجلات تُثير روائح أكثر كراهية وأعظم ضررًا بكم وبمستقبلكم وبأمّتكم، وتكون مُفسدةً لبيئة هذه المؤسَّسة العلميّة الصافية.

إن طاولاتكم ليست طاولاتِ مكتباتٍ عامّةٍ، إنها طاولاتٌ وُضعتْ في أرض مؤسَّسةٍ علميّة دينيّة مُباركة، إنها طاولاتُ جهادٍ علميٍّ وفكريٍّ، وطاولاتُ مَصنعِ دِينيٍّ حضاريٍّ، حيث تُصنَع تلك العقول التي تُوجِّه الأمّةَ وتُرشدها إلى الحقِّ والصَّواب، فلا يحقُّ لأحد - كائنًا من كان - أن يضَع في رفوفها تلك الكتب والمجلات والجرائد التي تُعكِّرُ صَفوَ هذا الجوِّ المُنعشِ المعطَّر، والتي تَنشرُ الفَوضى والفساد والرائحة الكريهة في القلوب والعقول، وتُبعدها عن مقاصدها الكبرى وغاياتها العظمى وأهدافها المنشودة، ولا تتوافَقُ مع رسائلها في الحياة ودعواتها في المجتمع.

إنني أقول واثقًا بكم: لا حاجةَ إلى قيود القانون ومراقبة الأساتذة؛ لأن مراقبةَ ضمائرِكم وأصواتَ قلوبِكم تكفي في هذا الصَّدد، فحَكِّمُوا ضمائركم، واسمعُوا لنداء قلوبِكم، والسّلام.





اللغة التي يَفهمُها العصر لغة الاستحقاقات والمصالح

في ٢٧ محرم ١٣٩٣هـ الموافق ٢ مارس ١٩٧٣م ألقى الشيخ الندوي هذه المحاضرة في دار الحديث بالجامعة الرحمانية التابعة لزاوية العلامة محمد علي المونغيري.



مَعالي أمير الشريعة الشّيخ مِنّةِ الله الرَّحماني[١]، والأساتذة الكرام، وأعزائي الطَّلبة! كنتُ أودُّ أن أحضر إلى هذه البلدة الطيِّبة والزّاوية المُباركة منذُ مدّةٍ طويلة، وقد تحقّق رجائي في هذا اليوم، والحمد لله.

لا أدري أيحمل حضوري هنا أيَّ خَيرٍ أو بُشرى بالنسبة لكم؟ كما لا أعلم هل هذه الأماني الكبيرة والآمال الكثيرة المعلَّقة عليَّ والمذكورة في عريضة الترحيب المقدَّمة تتحقَّق أم

---

(١) هو العالم السياسي السيد منة الله الرحماني بن محمد علي المونغري، أمير الشريعة الإسلامية الرابع لولاية بهار وأريسَّة، وُلد عام ١٣٣٢هـ، وشغل مناصب كبيرة وخطيرة، وأدى دورًا بارزًا في الدفاع عن قضايا مسلمي الهند، حيث كان يترأس هيئة الأحوال الشخصية لمسلمي الهند، ويُدير الجامعة الرحمانية، كما كان عضوًا في مجلس الشورى بكل من دار العلوم بديوبند ودار العلوم التابعة لندوة العلماء.
عُيّن أميرًا للشريعة عام ١٩٥٧م، وبذل جهودًا كبيرة لتأسيس المحاكم الشرعية ودُور القضاء الخاصة بالمسلمين في الهند، وتُوفي سنة ١٤١١هـ، رحمه الله تعالى، ورضي عنه، وجعل الفردوس مثواه.
يُنظر: البعث الإسلامي، المجلد: ٣٦، والعدد: ٣، ص٩٨ ـ ١٠٠، والمرعشلي، د. يوسف، نثر الجواهر والدرر في علماء القرن الرابع عشر (بيروت، دار المعرفة، ط١، ١٤٢٧هـ) ص٢١٦٨.

لا؟ وهل أستطيع أن أُقدِّم لكم خدمة دينيّة علميّة مذكورة أو لا؟ ولكنّ الذي أعلمه جيّدًا وأُحسُّ به هو أن هذا الحضور باعث سعادة كبيرة في نفسي.

إنني حضرتُ في هذا المكان بصِفةِ خادمٍ للعلم والدِّين، وفَردٍ من أفراد هذه العائلة السَّعيدة، وأخٍ لكم في الدِّين تربطُنا جميعًا علاقة دينيّة روحيّة علميّة، وأعتقد أن والدي ﷺ كان يسعد جدًّا حين يحضر في هذه الأرض، كما يسعد به ذلك الرجل الكبير(١) الذي كان يقطن هذه الأرض الطيِّبة.

وكما قيل في عريضة الترحيب: إن علاقتي بهذه السِّلسلة المباركة وتلك الشخصية التي تنتمي إلى هذه الأرض قديمة وعميقة، وإنني لأعتزُّ بذلك، وأحمَدُ الله تعالى على ذلك، وأسأل الله تعالى أن يُديم تلك العلاقة الروحيّة بيننا.

إنني حينَ وضعتُ رِجلي على هذه الأرض لم أشعر بأني في مكان جديد، وفي أرض جديدة، وبين أُناسٍ غرباء، وأخاطبُكم الآنَ فلا أُحسُّ بأني أخاطب طلبةَ إحدى المدارس الأجنبية، بل أشعرُ حقًّا بأنّني بين أهلي وعشيرتي، وأخاطِبُ أفرادَ أسرتي وشبابَ عائلتي، وأظنُّ أن معالي الشيخ مِنّةِ الله الرَّحماني يجد نفس الإحساس والشعور تجاهي، كما أعتقِدُ أن الشَّيخ حين دَعاني

---

(١) يشير إلى العلامة محمد علي المونغري.

للحضور هنا لم يظنَّ أنه يَدعو شخصًا غريبًا عليه وعلى بيئته، بل شعر - بالتأكيد - أنه يدعو واحدًا من أفراد أسرته ليُخاطِبَ هذه الطُّيورَ الخُضرَ في هذه الحديقة الغنّاء، فأنا خادمٌ قديم في هذه الحديقة وأنتم أزهارُها الجديدة، فعلاقتي بكم علاقة الأسرة والعائلة؛ لذا لا أراني مُلزَمًا بأداء واجبِ الشُّكر أو عادةِ التَّقدير.

ولكني أقول كلمةً واحدة عن كلمة الترحيب، وهي أن مثل هذه الكلمات تُقدَّم - عادةً - إلى شخص غريب، لا تربطه صلةٌ قويّةٌ بالمكان والبيئة؛ لأنه يأتي بصفة الضَّيف، وأنا لستُ كذلك، فهذه الأرض أرضي، وهذه المدرسة مدرستي، وقد حضرتُ هنا بصفتي واحدًا من أفراد هذه العائلة الكبيرة، ولهذا أعُدُّ كلمة الترحيب المقدمة إليَّ نوعًا من التكلُّف!

ولما كان هذا التكلُّف مبنيًّا على الحبِّ والمودّة، وهو أمرٌ يستحقُّ التقدير والشُّكر طبعًا، حيث اخترتُم الطريقة الرائجة للتعبير عن الحبّ والودّ؛ لذا لا أُكثِرُ من الشَّكوى!

أعزائي! إن الكلام الذي يستحقُّ الذكرَ في مثل هذا المقام كثير جدًّا، ولكنّ الوقت ضيِّقٌ؛ لذا أقول باختصار: إننا جميعًا ركّابُ سفينة واحدة، فجميع المراكز العلميّة الدّينيّة، سواء كانتْ بداخل الهند أو خارجَها، عبارة عن سفينة واحدة، وطلابُها جميعًا ركّابُ هذه السَّفينة المباركة، وهي تسير في بحر مُتلاطِمِ الأمواج، دورانُه

قويٌّ وأعاصيره شديدة، وقد هاج فيه الطُّوفان، ويَخاف في مِثلِها ركّابُ السُّفُن الكبرى التي أُعِدَّتْ بالوسائل الحديثة والآلات الجديدة لمقاومة الأعاصير والفيضانات؛ لأنهم يُحِسُّونَ بالخطر والخطورة على حياتهم وثرواتهم، مع أن سُفُنَهم تسير مع الأمواج حيث تسير، فما بالُنا نحن الذين ركبنا هذه السَّفينةَ التي تسير عكس سير هذا البحر الهائج وأمواجه الهائلة!! يجب علينا أن نفكِّر سويًّا بهدوء وروّية عن مكاننا في عُرض البحر ومقامنا في خِضَمِّ الموج، لكي نتمكَّن من الوصول إلى برِّ الأمان بصحة وسلامة، وإلا كان هلاكُنا مُحتَّمًا وضياع سفينتِنا أمرًا لازمًا!

الفريقان المتطرِّفان:

إن الركّاب الذين ركبوا سفينة المدارس الإسلامية في بحر الدُّنيا الهائج أحدُ فَريقَينِ: فريقٍ يَئِسَ من فائدة هذه المدارس الدّينية ومستقبل التعليم الإسلامي، وهو غير مُستعِدٍّ لقبول أهميّة وجودها وفائدة بقائها في المستقبل القريب أو البعيد، وأن هلاكها محتوم، وضياعها متحقِّق، ولا يرى لها أي فائدة مَرجُوّة، كما لا يستطيع أن يَفهم فائدة بقاء هذه المدارس في هذا العصر المتقدِّم، وحاجة المجتمع إليها.

وهل تَملكُ هذه المدارس غايةً سامية لنفسها؟ وهل لديها أيُّ دَور يمكن أن تؤدِّيَه في زمن التقنيّات الحديثة والوسائل

المتطوِّرة والجامعات العَريقة؟ وهل لديها أي رسالة يُمكن أن تُبلِّغَها في هذا العصر المتغيِّر؟ وهل تملك في نفسها بذورَ الحياة أم أنها ميّتةٌ على كلِّ حالٍ؟ هذا هو الفريق الأول.

وهناك فريقٌ آخَرُ يقابل هذا الفريق تمامًا، وهو غارق في بحر الخيال والغَفلة والكسل، فهو لا يَرضى الوقوفَ أمام حقائقِ التاريخ، ولا يحبُّ أن يتأمَّل فيما وراء أحداث الزمن، فهو يظنُّ أن الدُّنيا ـ الآن ـ كما كانتْ قبل أربعِمائةِ سنةٍ أو أكثر أو أقلّ، وأنه يعيش في عهد المدرسة النّظاميّة في بغداد، وليس لدى هذا الفريق أيُّ خبر عن التغيُّر الجذريِّ الحاصل في المجتمعات الإنسانيّة، ومجريات الحياة الواقعة، وانقلابِ الدنيا رأسًا على عقب، ولا شكَّ أن لديه الأخبار ـ بحكم عيشه في هذه الدنيا المتغيِّرة ـ بما يحصل في دُنيا الواقع، غير أنه لا يُريد ربطَها مع حياته ومحيطه، فهو كالنعامة التي دَسَّتْ رأسَها في الرِّمال في وجه الرياح العاتية ثم ظنَّتْ أن الدنيا بخير، وأنها على ما يُرام!

وكِلا هذين الفريقين بعيدان كلَّ البُعد عن الحقِّ والحقيقة، وكلٌّ واحد منهما واقف على طرفٍ نقيضِ الآخر، فهما موقفان مُتطرِّفان، ولم يستطع أيٌّ منهما أن يُبرهن على أنه أدرك الحقيقة والواقع، كما لم يتمكَّن أيٌّ منهما أن يُثبت بأنه يُمثِّل وسطيّةَ الإسلام ورزانةَ العقل السَّليم.

إن الوقت سريع التغيُّر:

لا يَخفى عليكم ما يجري في الدنيا المحيطة بكم، وأظنّ أن الإنسان ليس بحاجة إلى صعوبة كبيرة لِيُدرِكَ أن الوقت الذي نمرُّ به اليوم صعبٌ للغاية، وأنه يتغيَّر كلَّ يوم، بل كل لحظة، ويجب على طلبة مدارسنا الدِّينية أن يُفكِّروا ـ مَلِيًّا ـ في مصيرهم ومستقبلهم، والخدمات التي يُمكن أن يُقدِّموها في هذا الزمن الهائج بقلوب هادئة صابرة وعقول بصيرة متأنِّية ونفوس كبيرة بعيدة عن تطرُّف الفريقَينِ السّابقينِ.

إنّ الدِّينَ ليس مُتحَفًا فنيًّا ولا مكانًا أثَريًّا يحتوي على العجائب والغرائب، وأُريد أن أتحدَّث معكم بالتفصيل في هذا الأمر المهمِّ، وقد صدرتْ عنه مؤلَّفاتٌ قيِّمة حاليًّا، وعُولجَ هذا الموضوع بطريقة علميّة رصينةٍ ودراسات تحقيقيّة عالية من قِبل أهل العلم وأصحاب الخبرة، ولعلَّ بعضَكم قرأ بعضَ هذه الكتب، ومَن لم يقرأْها فإنه سيقرؤُها في المستقبل بإذن الله تعالى، وكلُّها تصل إلى الخلاصة الآتية:

إنَّ أيَّ نظام لا يُمكن أن يَصمد أمام أحداث العصر وأمواج الحياة بترديد الأساطير القديمة والأمجاد السابقة، ولا يُمكن إبقاؤُه بقوة العضلات الماديّة، مهما كان ذلك النظام صالحًا وقويًّا وشاملاً، حتى ولو كان ينتمي إلى قوم وصلوا إلى ذروة

المجد في الحضارة والثقافة والمنجزات، وكان يحمل في طيّاته آثارًا قيِّمة نادرة وتُحَفًا تراثية ثمينة.

إن الدُّنيا تهتم بالآثار القديمة والتُّحَفِ الفنيّة بدون شكٍّ، ولعلكم رأيتم الكثير من المتاحف الكبيرة الواسعة في المدن الكبرى، وهي موجودة في عاصمة ولاية فتنة هذه أيضًا، وهذه المتاحف تحتوي على عجائب الأحياء وغرائب الأموات!

وقد جرتْ عادةُ الناس أنهم لا يحتفظون بالآثار القديمة فقط، بل يُقدِّرونها حقًّا، ومن مظاهر هذا الاهتمام والتقدير أنهم يُخصِّصون لها أراضيَ واسعةً ومبانيَ فاخرة، وتُخصِّص لها الحكومات جزءًا كبيرًا من الميزانية العامة سنويًّا، وهذا كلُّه صحيح.

ولكني أُريد أن أتساءل هنا: ما وجهُ اعتبار هذه التُّحَفِ الفنيّةِ والآثار القديمة؟ وما نظرة الناس تجاهَها؟

وأظنُّكم تُدركون جيّدًا أن الناس ينظرون إليها على أنها أشياءُ تاريخيّةٌ، غير مُضِرّة ولا نافعة، وأنها لا تزيد ولا تنقص! وأنها تبعثُ السُّرورَ والبهجة أو الألم والحسرة في قلوب الناس، وتُذكِّرُهم بالأيام الخوالي مع أفراحها وأتراحها، ولكنها لا تستطيع التأثير في أحداث الحياة الجارية بأيِّ وجه من الأوجه.

إن اهتمام الناس بها لا ينطلق من حيث كونُها أشياء ضرورية

في الحياة، يتوقَّف بدونها سَيرُ الحياةِ أو أنها تُقدِّم خدماتٍ جليلةً فيها.

كلّا! بل إن اهتمامَهم بها يأتي من منطلق أنها قد تبعثُ السُّرورَ والحبور في قلوب أولئك الذين يعملون كالأجهزة ليلَ نهارَ!

فهي تُفرِح وتُحزن! وقد تبعثُ الاعتزازَ والافتخارَ في قلوب بعض الناس، الذين ينظرون إليها باعتبارها أماراتٍ دالّةً على ماضيهم المجيد الذي عاشه آباؤهم! ولكن.. لو كانت هذه الآثار تحمل الروح أو أعيدَ أصحابُها إلى الحياة من جديد ورأوها على أوضاعها الراهنة هذه لما سَرَّهم ذلك أبدًا.

إن الوضع الحالي لا يَقبَلُه قومٌ يحملون رسالة للإنسانيّة:

إن الأمة التي منحَها الله تعالى نُورًا وهداية، وتَحمل رسالةً حيّةً للعالَم الإنساني والكونيّ، وترى لنَفسِها مَقامًا عَلِيًّا في مسرحِ الوجود ومِنصّةِ التّاريخ، وأن لها استحقاقاتٍ كبيرةً وإنجازاتٍ عظيمةً في الحضارة والثقافة، وتَرفض أن تُنسَب إليها عيوبٌ وأخطاءٌ لم ترتكِبْها، وتُقيِّم الأشياءَ بناءً على أُسُسٍ واضحةٍ ومَعاييرَ ثابتةٍ، فتحكم على بعضها بالصواب وعلى بعضها الآخر بالخطأ، هذه الأمة لم ولن تَرضى بمكانتها في المتاحف، حيث يُخصَّص لها مكانٌ في زاوية منها، ويزورها الناس، وينظرون

إليها على أنها جزءٌ من التاريخ الغابر، لا يَضرُّ ولا يَنفع، كما ينظرُ السُّيّاح إلى جُثَثِ الفَراعنة القدماءِ في الأهرامات المصريّة.

إن المدارس الإسلاميّة ليستْ آثارًا قديمة:

إن الذين يُدافعون عن المدارس الإسلامية باعتبارها آثارًا تَحمل ذكرى الماضي القديم، ويَذودون عنها قائلين: إن الحكومة تُخصِّص جزءًا من الميزانية العامّة وتَبني متاحفَ كبيرةً للاحتفاظ بآثار الماضي، وإن الإنجليز أكثرُ الشُّعوب اهتمامًا بالمتاحف والأماكن الأثريّة بدليل أن المتاحفَ الموجودةَ في مدينة لندن وحدَها لا يُوجد لها نظير في أي مدينة من العالم، فهلا تَلطَّفتُم بهذه المدارس الإسلامية، وتركتموها على حالها الموجودة دونَ الإزالة من الوجود باعتبارها جزءًا من ماضي هذه البلاد وتاريخها القديم!

فلو أرادَ هؤلاء إبقاءَ المدارس والجامعات الإسلامية من هذا المنظور فإني شخصيًّا لا أرضى بمثل هذا الموقع؛ لأني أعتقد يقينًا أن النظام التعليميَّ والتربويَّ الإسلاميَّ الذي دافع عنه العلامة محمد قاسم النانوتوي(١) والعلامة محمد علي المونغيري(٢) لم يُبنَ على مثلِ هذا الأساس المُخزي! بل إنَّهما

---

(١) سبقتْ ترجمته.

(٢) سبقتْ ترجمته.

أسَّسا ندوةَ العلماءِ ودارَ العلوم ديوبند بهدفٍ سامٍ عالٍ وغاية نبيلة عظيمة، **وهو الحفاظ على الدِّين وعقيدتِه وأُسُسِه ونُظمه وأحكامه وتطبيقه في جميع مجالات الحياة.**

إن وجود مؤسَّساتنا التَّعليمية لم يكن على رحمة أحدٍ من الخلق، وإنها لم تطلُبِ العَطف والشَّفقة من أحد قائلة: أيُّها الناس! إنكم قد أبقيتُم على آثار تراثية كثيرة، بل إنكم قد تركتُمُ المقابرَ على حالها، حتى في المدن المُزدحمة التي لا يجد فيها الإنسان مكانًا للعيش، وهي لا تدرُّ عليكم أرباحًا ولا ثرواتٍ، ومعَ ذلكَ شُغِلَتْ أراضٍ شاسعةٌ وأماكنُ واسعة في جميع المدن والقرى، فهلا أبقيتُمُونا على حالنا كالمقابر!

كلّا! إنها لم تقلْ ذلك لأحدٍ من الخلق.

وكما ذكرتُ سابقًا بأنَّ فريقًا من الناس يَرَونَ أن هذه المدارس الإسلامية فقدتْ أهميّتَها في الوقت الحاضر، وأنها لا يُمكن أن تَبقى إلا كبقاء الآثار القديمة في الأماكن الأثرية، وقد قلتُ سابقًا: إنني لن أرضى لنفسي مثلَ هذا الموقع؛ لأن الشخصَ الذي يَرضى بمثله لن يستطيع أن يُقدِّم أي خِدمة مذكورة للمجتمع والإنسان والكون.

فإذا كان الناسُ لم يُزيلوا المقابرَ القديمة لأسباب مُعيّنةٍ إلى يومنا هذا فإنهم لن يتركوها على هذه الحالة في المستقبل،

انظروا إلى حالِ مقبرة الإمام الشيخ باقي بالله في دهلي، إن الذين رأوها في صورتها القديمة الواسعة موجودون حتى الآنَ، وقد رأيتُها شخصيًّا في القديم، حيث كانتْ ميدانًا شاسعًا فسيحًا، وكانت فيها آلافٌ مؤلفة من القبور، ولكن اذهبوا إلى دهلي الآن، وابحثُوا عن شيء يُسمَّى مقبرةَ باقي بالله! أينَ هي الآنَ؟

نعم، إن الناس قضَوا عليها؛ لأن حاجتهم الآنَ قد ازدادتْ عن السابق، وتلك حاجة حقيقيّة واقعيّة، والمقابرُ ليسَ لها حقيقة واقعيّة، وإنما بقيتْ على حالها إلى أمد لاعتبارات مُعيَّنة، وتلك الاعتبارات لا يُمكن أن تَصمدَ أمام مطالب الواقع المستجِدّة، فقضَتِ الحقائقُ الواقعيّةُ على الاعتبارات الذِّهنية! وصارت المَقبرةُ التاريخيّةُ ضحيّتَها!

ولهذا أقول: إن الموقعَ الذي تبوّأتهُ المدارسُ الإسلاميّةُ في الوقت الحاضر ليس صحيحًا، وإن التاريخَ يُثبت ـ بما لا يدعُ مجالاً للشّكِّ ـ أن مثل هذه المواقع لا يُمكن أن تشغلَهُ أمّةٌ أو مؤسَّسة لفترة طويلة في ظلِّ مطالب الحياة الواقعية المستمرّة التي لا تجرُّ وراء المصالحِ الماديّة فقط، بل تذوبُ وتَغوص فيها، والتي لا تَتركُ شبرًا من حقِّها لبقاء شخصٍ آخَرَ، مهما كانتْ مكانتُه السّابقةُ ومَنزلتُه السّالفة، إن مثلَ هذه المواقعِ المُذبذبةِ لا تَدوم طويلاً في مثل هذا العصر الشَّحيح.

لا يُمكن بقاءُ مؤسَّسة على ضمان التاريخ:

إنه لا يُمكن أن يَستمرَّ وجود مؤسَّسة ما بحجّة أنها كانت موجودة منذ مائةِ عامٍ أو مائتَي عام أو أقلّ أو أكثر، وأنها قدَّمت خدماتٍ جليلةً في فترة من الماضي الغابر.

وإذا نظرنا إلى سِجِلاتِ التّاريخ فإننا نجدُ هذه الحقيقةَ السّاطعة ماثلةً أمامَ أعيُنِنا، حيثُ لم يبقَ أيُّ مؤسَّسة تَعليميّة أو ثورة اجتماعيّة أو حركة إنسانيّة أو فلسفة فكريّة أو نظام قانونيّ على ضمانِ التاريخ ورحمتِه، وهذه الحقيقةُ صادقةٌ عليكم وعلى مؤسَّساتكم أيضًا.

فلو أردتُمُ البَقاء على هذا الأساس الخاطئ، وطلبتُم مكانًا من التاريخ لمؤسَّساتِكم من هذا المُنطلَق، فإنَّ الناسَ لن يَلتفِتُوا إلى هذا الهراءِ، ولو سكتَ أحدُهم اليوم لأسباب مُعيَّنةٍ فإنه لن يَسكتَ في المستقبل، ولسوف يرفعُ صوته عاليًا ويقول: يجبُ أن تُوضع هذه المدارس الإسلامية في سجلات التاريخ، ويجبُ أن تُزال من أرض الواقع.

قانون البقاء للأصلح:

إن سُنّةَ الله الكونية التي نُدركها من خلال دراستنا للقرآن الكريم هي: سُنّةُ البقاءِ للأنفَعِ، وهو القانون الذي أقرّتْه الدُّنيا مُؤخَّرًا بعبارة ـ survival for the fittest ـ، وهو يختلف عن

السُّنّة القرآنيّة، حيثُ إن المفهومَ من القرآن الكريم هو أن البقاءَ للأنفَعِ، وليس للأصلَحِ، ولعلَّكم قرأتُم كثيرًا تلك الآية التي تُصرّح بهذه الحقيقة قائلة: ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي ٱلْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [الرعد: ١٧].

إنّ الشَّيءَ الذي لا نفعَ فيه، والشَّخص الذي لا هدف له، والإنسان الذي لا يستطيع أن يُقدِّم خِدمةً جليلة يعتمد عليها بقاءُ النَّوع الإنسانيّ وتقدّمُه وتطوُّره ورقيُّه وراحتُه هو الذي عبَّر عنه القرآنُ الكريم بكلمة ﴿ٱلزَّبَدُ﴾، وهي كلمةٌ جامعةٌ عَميقةُ الدّلالة، حيث إنّ الزَّبد في اللغة هو الرّغوة التي لا تملكُ ثِقَلاً في الأمواج، ولا تحوزُ قيمةً في البحار، ولا تحتوي على صلاحيّةٍ للبقاءِ والثَّباتِ والاستقرار، بل هي أمارةٌ تُنبِئُ عن هَيجان البحر، ومَظهَرٌ خارجيٌّ لِتَلاطُمِ الموجِ، ولا يُوجَدُ فيها أيُّ صَلابةٍ وصرامةٍ وقوّة وصمود، فهي عبارة عن حلقةٍ مُجوَّفة مَليئة بالهواء، ويُمكن أن تَقولوا عنها أيضًا: إنها الأوساخُ التي لفظَها البحرُ مِن أعماقِه؛ لأنها لا تملِكُ وَزنًا للبقاء فيها؛ لذا تَطفو فوق السَّطح قَليلاً، وتعلَق بشيءٍ ما فترةً، ثم تَزولُ من الوجود؛ لأنها لا تَحتوي على جوهرِ الحياة، ولا تَشتملُ على عنصر البَقاء، ولا تملكُ نَفعًا للإنسانية.

إنها سُنّةُ الله تعالى التَّربويّة في الكون، وهي لا تَسمَحُ للزَّبد

والرَّغوةِ أن تَعيشَ فترةً طَويلة؛ لأنَّ هذا العالَمَ لا يَتَّسِعُ لمثل هذه الأمور الخاليةِ من القِيَم والمثُل، وإذا تُرِكتْ على حالها فإنها ستَشغَلُ مكانًا يَنبغي أن يَشغلَه شيءٌ ذو قيمة للخَلق؛ لأن الله تعالى قرّر البقاء لمَا ينفع النّاس فقط، فقال: ﴿وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي ٱلْأَرْضِ﴾.

لغة الاستحقاقات والمصالح هي التي يَفهمها الزمن:

فإذا قرَّرت المدارسُ الدينية البقاءَ على أرض الوجود، وأرادتْ أن تأخُذَ مكانَها في هذه الدنيا الماديّة، وأن تُثبت جدارتَها للبقاء، فعليها أن تبذل جهودَها لاكتسابِ العناصر القيِّمة النّافعة التي تحتاج إليها الحياةُ الإنسانيّة، والتي لا يُمكن أن تتحقَّقَ دون وجود هذه المؤسَّسات؛ لأن اللغة التي كان الزمن يَفهَمُها ولا يزال هي: لغة المصالح والاستحقاقات، بغضِّ النظر عن اللغة اللّسانية التي عبَّرتَ بها، سواء كانت اللغة العربية أو الإنجليزية أو لغة الإشارة أو حتى لغة الصَّمت، فإن الزمن سوف يَفهمها؛ لأنها تتكوَّن من حروف المصالح التي يتحدَّث بها الزمن، تلك هي لغة الجدارة وإثبات الأحقيّة في البقاء، وكما قال محمد إقبال: **إن الحياةَ ليسَت مِنحةً إنسانيّة، بل هي قُدرةٌ ذاتيّة وجدارة مُستحَقّة!**

فكونوا حاملي هذه المصالح ليضطرَّ الزمن ـ بعد ذلك ـ إلى الاعتراف بخدماتكم والإقرار بإنجازاتكم.

إن الألمانَ صمدوا على أرض الواقع مع هزيمتهم القاسية في حربَينِ عالميَّتَينِ؛ وليس ذلك إلا لأنهم قرَّروا البقاء وأثبتوا ذلك أمام الزمن، فلم يتمكَّنِ الحلفاء ـ ولن يتمكَّنوا ـ ولا غيرهم أن يحكموا بالإعدام على وجودهم ما داموا متمسِّكين بهذه الاستحقاقات.

إن هناك أقوامًا كثيرة انقرضَتْ من الوجود جرّاء أحداث عظيمة، وهناك أقوامٌ أُخرى بَقِيَت في الوجود مع الهزائم المتكرِّرة، وما تاريخنا مع التَّتر عنكم ببعيد، حيث إننا تجرَّعنا مرارة الهزيمة الشَّديدة منهم، ولعلَّ مثل هذه الهزيمة لم تتجرَّعْها أمّةٌ على وجه الأرض، ولكن الأمة الإسلامية صمدَتْ على وجه الأرض، ولم يُمكنِ القضاءُ عليها؛ لأنها كانت تملك بداخلها عنصر ﴿وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾ [الرعد: ١٧].

إنها كانت تملكُ رسالةً للإنسانيّة، وتحملُ بداخلها دعوة إلهيّة أبديّة؛ لذا اضطرَّ التَّتر للانقياد لهم أخيرًا، فظهرتْ تلك المعجزة التي لا يزال التاريخ يذكرها، حيث إن المسلمين انهزموا أمام أسلحة التَّتر وسُيوفِهم، ولكنَّهم اضطرُّوا إلى قَبولِ رسالة المنهزمين!

أعزائي! إن هذا هو الطَّريق الوحيدُ المفتوح أمامَ المدارس الإسلاميّة، وهو أن تُثبت جدارتَها في الوجود واستحقاقاتِ بقائها أمامَ العالم، وأنها تحمل النَّفع له، وأن زَوالها يعني زوال الإنسانيّة

من الكون نهائيًّا أو إصابتها بالنقص الحادّ على أقلّ تقدير، ولا يُمكن أن يكمّل هذا النقص أي أمّةٍ من أُمَمِ الأرض مع كثرتها.

أما عريضةُ الرَّحمة والشَّفقة إلى الآخرين للتفضُّل بالبقاء فلا أحدَ ينظر إليها، ولا أحدَ يُصغي إلى صوتها، وهذا العصر يُسمّى عصرَ الديمقراطيّة، ليست الديمقراطيّة العادية، بل الديمقراطية الشّاملة التي اعتنقَتِ العلمانيّة والاشتراكيّة بعقل واعٍ وقلب يقظان، فلا يُمكِنُكم الدُّخول على بلاطها للتسوُّل قائلين: إنّ الحكومةَ الفلانيّة تفضَّلتْ علينا بالبقاء، وإن الدَّور الفلانيَّ سمحَ لنا بالاستمرار، وإننا قدمنا كذا وكذا من الإنجازات في فترة من الماضي البعيد، فأرجو أن تسمحوا لنا بالوجود! إن الزمن والتاريخ والديمقراطية الحاضرة لا تستمع إلى مثل هذا الصوت الخائر!

وُقوفكم في الثغور الهامّة في دُنيا الكون:

أعزائي! يجب عليكم أن تُثبتوا للعالم بأنكم واقفون في ثغورٍ من الحياة خطيرة، وأنه لا يُمكن لأحدٍ أن يَصمد في هذه الثُّغور غيركم، وأنكم مُرابطون في ثغور الأخلاق والتربية والتقدُّم العلمي والتحقيق البحثيّ، فلو تركتُم هذه الثُّغورَ أو دُفِعتُم إلى تركها فإن الفراغ الهائل الذي يَحدثُ في الدُّنيا لن تستطيع أن تملأه جامعاتُ العالَمِ العَصريّةُ وكلّياتُها ومراكزها مجتمعة، إن هذا هو قانون البقاء الوحيد الذي بيّنه القرآنُ الكريم بوضوح،

حيث قال: ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

إن بقاءَ المدارس الدّينيّةِ لا يُمكن أن يستمرَّ في هذا العصر الماديِّ المحضِ على أساس حماس بعض المسلمين، وغَيرتهم على الدِّين أو احترامهم للقانون الإلهيّ أو تضحياتِ بعض العلماء أو وقوف بعض الصّالحين في هذه الثغور.

إنني أُصرّح هنا بهذه الحقيقة المؤلمة المؤسفة؛ لأني مُضطرٌّ إلى ذلك، حيث إنها حقيقةٌ واقعيّة، فيجب أن نَقولها أمامَ طلبة العلم على الأقلّ، لا سيَّما أمامكم أنتم، الذين جِئتُم إلى هذه المؤسَّسة الدينية التي تَنتمي إلى ذلك الرجل العظيم الذي أعلن بجرأة أمام علماء عصره[١]: إن مجاري الزمن انحرفَتْ عن السَّير القديم، وأنه يُسرع إلى الماديّة المحضة بخُطًا واسعة، فيجب التَّسليم بهذه الحقيقة أولاً، كما يجب أن نُعِدَّ طلابنا على أساسها ثانيًا؛ ليَتمكَّنوا من أداء الدَّور المطلوب منهم لصالح الإسلام والمسلمين؛ كيلا يُتَّهم الإسلامُ بالجمود، ولا يُتَّهم المسلمون بالتخلُّف.

فِراسة الشيخ محمد علي المونغري:

إنكم تعرفون العلامة المونغري كعارف كبير وشيخ زاوية صوفيّة، نعم، قد كان كذلك بدون شكّ، حيث كان على درجة عالية

---

(١) يشير الشيخ الندوي رحمه الله هنا إلى العلامة محمد علي المونغري وجهوده في إصلاح التعليم الإسلامي ليتلاءم مع متطلبات عصره.

من الكمال الرُّوحي والتزكية الباطنة، كما اعترفَ بذلك معاصروه، حتى قال عنه الشيخ فضل الرحمن(١) كلماتٍ عاليةً جدًّا.

وأوَدُّ أن أُضيف هنا بأن الله تعالى منحه بصيرة صادقة وفراسة قوية ونورًا في القَلبِ صافيًا لا يُمنَحُ مثلُها إلا أولئك الرجال القلائل الذين وفّقهم الله تعالى لأعمالٍ إصلاحيّة كبيرة وأنشطة علميّة عظيمة.

إنه كان نموذجًا حيًّا للعبقريّ العصاميِّ المسلم الذي تحدَّثَ عنه محمد إقبال في إحدى قصائده، حيث قال: المئاتُ تحدَّثوا في الحفل، ولكن أينَ ذلك العصاميُّ الذي يستطيع أن يُسمِعَكَ قصّةَ الحديقة بالنَّظر إلى شوكتِها!

حركة ندوة العلماء كانت نقطة انطلاقِ العصبة الدينية في شبه القارة الهندية:

إن حركةَ ندوةِ العلماء لم تكن حركةً عاديّةً كبقيّةِ الحركات الكثيرة التي قامَتْ في هذه البلاد، بل أرى أنَّ هذه الحركةَ كانَتْ تُمثِّلُ نُقطةَ انطلاقِ النَّهضة الدّينية هنا، وإنني لأطالِبُكم ـ أنتم ـ باعتباركم طلابَ مدرسةِ الشَّيخ المونغري؛ لأني لا أعرف ندوةَ

---

(١) لا ندري من المراد بالشيخ فضل الرحمن هنا بالضبط، ويبدو أنه شيخه العلامة فضل الرحمن بن أهل الله بن محمد فياض الصِّدّيقي الغنج مراد آبادي الذي سبقتْ ترجمته.

العلماء كثيرًا، ولا الجامعةَ الرَّحمانيّة جيّدًا، ولكني أعرف أفكارَ الشَّيخ المونغري الذي أسَّس ندوةَ العلماء والجامعةَ الرَّحمانيّة، وأُخاطِبُكم بصفتِكُم طلابَ مدرسته، كما أُخاطِبُ طلابَ نَدوةِ العُلماء باعتبارهم - أيضًا - مِن طلابِ مدرستِه، وقد خاطبتُهم - هناك - قبلَ يَومينِ أو ثلاثة، فمِن مُوافقةِ القدرِ الرّائعةِ أن أُخاطِبَكم - هنا - بعدَها بأيّام، وأُريد أن أقولَ لكم جميعًا: إن عَليكُم أن تَقومُوا بِمُهِمَّتَينِ كَبيرتَينِ.

وسأتحدَّثُ معَكم بالتَّفصيل عن هاتَين المُهمَّتَينِ، وقد استَشَرتُ في ذلكَ أميرَ الشَّريعة الشَّيخَ مِنّةَ الله الرَّحمانيّ قبلُ، فوافقَني عليهِ، وهو أنه لا بدَّ من أن تكونوا جديرينَ أمامَ التاريخ والزَّمن في إثباتِ صلاحيّةِ المدارس الإسلاميّة، ويُمكِنُكم أن تُثبِتُوها بطريقتَينِ، حيثُ تَستطيعون أن تُقنِعُوا بهما العالَم بأهميّة وُجودِكم، إحداهما: تتعلَّقُ بداخِلِكُم والأُخرى تتعلَّقُ بخارِجِكُم.

المهمّة الدّاخليّة:

وهي أنه يجبُ عليكم أن تبذلوا أقصى جهودكم للوصول إلى درجة الكمال الإنسانيِّ في العلم والمعرفة، وأقولُ لكم هذا الكلامَ بناءً على خِبراتي الواسعةِ وأسفاري الطَّويلة حولَ العالَم، كما ذكرتُم ذلك في كلمة التَّرحيب، وكما أشار إليه أميرُ الشَّريعةِ في حديثِه، ولا أرى فيه شيئًا يَدعو إلى الغُرور أو الاعتزاز، بل

كانَ ذلك من حكمة الله تعالى الخفيّة، حيث إنه قدَّرَ لي السَّفر إلى بلدان كثيرة مِرارًا وتكرارًا، ولم أسافِرْ إليها بقصد السّياحةِ والنُّزهة، كما يَفعل ذلك أكثر الناس في هذا الزَّمن، بل سافرتُ إليها للحضور في المحافل والنَّدوات والمؤتمراتِ التي تُقام للحديث عن قضايا التَّعليم والتَّربية، ويَربطُني ببعض تلك المؤسَّسات العلميّة العالميّة علاقةٌ شخصيَّةٌ وَطيدة.

لماذا أقولُ لكم كلَّ هذا؟ أقولُ ذلك حتى تُدرِكوا أهميّةَ الكلام الذي أقولُه لكم، وتُدرِكوا بأنَّ هذا الكلامَ الذي يُعرَض عليكم ليس كلامَ رجلٍ مرَّ بتلكَ البِلاد ومؤسَّساتها العلميّة مُرورَ الكِرام، بل شاركَ مُحدِّثُكم في كثير من هذه المجالس العلميّة، وفكّر كثيرًا مع أصحابها بأمر التَّعليم والتَّربية، وكما قال الشاعر: إنَّني خَبِرتُ حَوانيتَ الخَمرِ في الشَّرقِ والغَربِ، فلا يُمكِنُ خِداعي!

وأقولُ بكلِّ مَسؤوليّة: إنه لا بدَّ من الكمال الإنساني في العِلم والمعرفة، أيًّا كان ذلك العلم ونوعه بشرط أن يكون نافعًا، فلا تظنُّوا أن تمكُّنَ أمثالِكم في العلوم الإسلامية والعربية يُعَدُّ كرقصةِ الطّاووسِ في الغابةِ البَعيدة عن الأنظار، حيث لا يَراه أحدٌ!

إن الذي يُفكِّر بهذه الطَّريقة لَيُعَدُّ جاهلاً بحقائق الأمور، وغيرَ مُدرِكٍ لِمُجرياتِ الحياةِ المُعاصِرة، إنَّني أقولُ لكم بكلِّ تأكيد: إنَّكم لو تَمكَّنتُم من أيِّ علمٍ، أيِّ علمٍ كان، فإنه سوف

يُقدَّرُ هنا، في هذه الدِّيار، وفي أمريكا، وفي أوربا، وفي كلِّ دولِ العالَم، وأنتم بذلك مُقدَّرونَ في جامعة أكسفورد، وفي جامعة كمبرج، وفي جامعةِ السوربون، وفي كلِّ مكان من العالم بشرط أن تَصِلُوا إلى درجة الكمال.

فماذا نقصدُ بالكمال؟

إن المعلوماتِ السَّطحيّةَ عن أمر ما لا يُقال لها: الكمال العلمي، والمعرفة العادية عن شيء ما لا يقال لها: الكمال المعرفي، والقراءة العاديّة لكتاب عربي ـ مثلاً ـ وفهمه جيدًا لا يُقال لها الكمال الفَهمي، بل الكمال الذي أقصدُه هنا: **أن يَغوص الإنسانُ في أعماقِ بحارِ العِلم، بحيثُ يَصِلُ إلى لآلئِها الخَفِيّةِ ومرجانِها المخفيّ، وأن يَصطادَها، ويُقيِّدَها، ويُطوِّعَها لنفسه، هذا هو الكمال الذي يُجبر الآخَرينَ على الاعترافِ بصاحبه.**

قد يقول لكم قائلٌ قاصدًا التَّخويف: أين أنتُم من دُنيا الواقع؟ وماذا تَفعلون في هذه المدارس؟ وفيمَ تقضونَ حياتكم؟ لو قرأتُم في الجامعات العصرية والكليات العلمية والمراكز الإنجليزية، ودرستُم العلوم والاقتصاد والأدب الإنجليزي والفيزياء وتقنيّة المعلومات لوصلتُم إلى الكمال في الحياة!

إنني أقولُ بكلِّ تأكيد: إنَّ كلَّ هذا الكلام هراءٌ في هراء! وأن الحقيقة الحيّةَ التي لا تَقبَلُ الجدل أن الإنسان لو تميَّز في أيِّ

علم من العلوم لاعترف به وبعلمه العصرُ، وأنكم لو تميَّزتم في علوم الشريعة والعربية لما اضطررتُم إلى الشّكاية من ظلم الزمن، وجَوره تجاهكم، وعدم اعترافِه بكم، وعدم معرفته بقدراتكم، وبَخسه حقَّكم، وعدم منحِه مكانتكم!

لا، لا تحتاجون إلى شيء من هذا لو تمكَّنتم من العلم، ووصلتُم إلى الكمال فيه، فكلُّ الانحطاط الذي وصلتْ إليه مؤسَّساتُنا الإسلامية كان بسبب النقص الموجود فينا وعدم وصولنا إلى درجة الكمال.

سبب زوال الطِّبِّ اليوناني:

أُريدُ أن أضرب مثالاً واقعيًّا يُلخِّص لكم ما قلتُه سابقًا، وذلك أنه لا يَخفى عليكم أنه مرّتْ علينا فترة من الزمن كان الطبُّ اليوناني قد طغَى فيها على جميع طرق الطبِّ الأخرى، وقد أُسِّستْ مشافي الطبِّ اليوناني في كلّ مكان، وكان الناس كلُّهم أو جلُّهم يُعالَجون به، وكانوا يهجمون على أبواب هذه المشافي، ويزدحمون أمام دُور أطبائه.

ولكن... أين هي تلك المشافي الآنَ؟ وأين هم أولئك الأطباء؟ وأين هؤلاء الناس الذين كانوا يتزاحمون أمام أبوابهم؟

نعم، اختفى كل شيء من الوجود، وانحسر دور الطبّ اليوناني من الحياة الطبيّة المعاصرة! وهذا أمرٌ واقعيٌّ تُدركونه

جميعًا، ونريد أن نفكِّر فيه أكثر، وأن نبحث فيما وراء هذا الانحسار الكلّي للطّبِّ الذي كان سائدًا طاغيًا في وقتٍ ما.

ماذا حصل له؟ لماذا اختفى من الواقع؟ ولماذا تركَه النّاسُ؟ وأين كان الخلَلُ؟

هل تظنون أن الطبَّ الإخلافيَّ (Allopathic Medicine) هو الذي قضى عليه؟ وأن الطبَّ المِثلي أو العلاج التجانسي (Homeopathy) هو الآخر نفاه من الوجود؟ وأن علم الصَّيدلة الحديث هو الذي حكم عليه بالإعدام؟

لا، لستُ مستعدًّا لقبول مثل هذه التَّبريرات التي لا تعتمد على أُسُس منطقيّة واقعية، بل السبب الحقيقي وراء زوال الطبِّ اليونانيّ هو ذهابُ أولئك الأطباء المهرة الحذاق الذين كانوا يَفهمونه على وجه الكمال، ولا يُوجد الآنَ أطِبّاءُ في مجال الطبِّ اليوناني يملكون الطّباع النفسيّة والاستعدادات الطبيّة والاجتهادات الكاملة في هذا الباب، ولو وُجد مثل هؤلاء الآن، كما كانوا في السابق، فأنا على يقين تامٍّ بأن الأطباء المعاصرين الذين يُعالجون الناس بالطريقة الإخلافيّة سوفَ يُهَرولونَ بأنفسهم إلى أبوابهم، بله المرضى! حيث لا يجدون بُدًّا من الذهاب إليهم؛ لأن العلاج الصحيح المتمكِّنَ من رقاب المرض يُجبر

المرضى ـ كائنينَ مَن كانوا ـ على الذهاب إليه، ولستُ مُخالفًا بهذا الكلام شيئًا من العقل والمنطق والواقع.

فلو شككتُم فيما قلتُ فجرِّبُوا أولاً إعدادَ أطباء مَهرة في هذا الفنّ، لا أطالبكم بإعداد أطباء في مستوى جالينوس وبقراط، بل أطالِبُكم بإعداد أطباء في مستوى الحكيم (الطبيب) عبد العلي[١]، والحكيم أجمل خان[٢]، والحكيم محمود. . . . .

---

(١) هو الشيخ الطبيب عبد العلي بن إبراهيم بن يعقوب اللكهنوي، أحد مشاهير الأطباء في الهند، وُلد بمدينة لكهنو، ونشأ بها، وحفظ القرآن الكريم فيها، ثم درس العلوم الإسلامية على يد العلامة عبد الحي بن عبد الحليم اللكهنوي، والشيخ محمد نعيم بن عبد الحكيم الأنصاري، ودرس العلوم الطبية على يد أبيه وجده اللذين اشتهرا بصناعة الطب اليوناني، حتى برع فيه، وذاع صيته في الهند، فعيّنه النواب كلب علي خان طبيبه الخاص، وبعد وفاة النواب رجع إلى بلده، ثم استقدمه واجد علي شاه إلى كلكتّه، ومكث بها إلى وفاة هذا الأخير، ثم طلبتْه ملكة بهوفال شاهجهان بيغم، وجعلتْه من أطبائها، وتوفي سنة ١٣٢٣هـ بلكهنو، ودُفن بها، يقول مؤرخ الهند العلامة الحسني: «الطب اليوناني قد مات بوفاته حتى قام مقامه الطبُّ الغربي»، رحمه الله، ورضي عنه، وجعل الجنة مثواه. يُنظر: الحسني، الإعلام بمن في الهند من الأعلام، مصدر سابق، ج٨، ص١٢٨٠.

(٢) هو الطبيب الشهير مسيح المُلك أجمل خان بن محمود بن صادق=

. . . .

= الدهلوي، أحد مشاهير الهند في الصناعة الطبية، وُلد بدهلي عام ١٢٨٤هـ، وحفظ القرآن الكريم في صغره، ثم أخذ العلوم الإسلامية عن الشيخ صديق أحمد الدهلوي، والشيخ المفسر عبد الحق الكمتهلوي، والشيخ عبد الرشيد الرامفوري وغيرهم، وقرأ العلوم الطبية على والده الطبيب محمود خان وصنوه الكبير الطبيب عبد المجيد خان.

اشتغل بالتدريس فترة، ثم استقدمه النواب حامد علي خان إلى رامفور، وعيّنه رئيس الأطباء، ومكث هناك فترة ثم عاد إلى دهلي، وأسّس مدرسة طبية لتعليم قابلات الولادة، وأسّس مستشفى خاصًّا بالنساء، كما أسّس مجلسًا خاصًّا لبحث القضايا الطبية، اشتهر اسمه، وطبّقتْ شهرته آفاق الهند الواسعة، ومنحتْه الحكومة الإنجليزية لقب (حاذق المُلك) اعترافًا بخدماته الطبية الجليلة، سافر إلى أوربا والعراق ورأى هناك المستشفيات والمداس الطبية.

ولما نشبت الحرب العالمية الأولى، وألغى الحلفاء ـ وعلى رأسهم بريطانيا ـ الخلافة العثمانية ثار المسلمون الهنود تجاه هذه القضية الحساسة، وردَّ الحكيم أجمل خان لقب (حاذق الملك) إلى الحكومة الإنجليزية رفضًا واستنكارًا لتصرُّفاتها المشينة تجاه الدولة العثمانية، فعوّضه الناس بلقب (مسيح المُلك) في حفلة جمعية العلماء بكانفور عام ١٣٢٩هـ، وقد أدى دورًا كبيرًا في الحركة الوطنية ضد الحكومة الإنجليزية وجمعِ كلمة أهل الهند لها، وكان من كبار أصدقاء الزعيم غاندي. =

خان(١) وغيرهم.

= زار عواصم الدول الأوربية مرة أخرى عام ١٣٤٤هـ، كما زار فلسطين وسوريا ومصر، واحتفتْ به الأوساط الإسلامية والعلمية هناك، واختير عضوًا في المجمع العلمي العربي بدمشق، وله مؤلفات قيمة في الصناعة الطبية وغيرها، منها: القول المرغوب في الماء المشروب، وإزالة المحن عن إكسير البدن، والتحف الحامدية في الصناعة النكلسية، ورسالة في تركيب الأدوية، واللغات الطبية.
كان صاحب ابتكارات جديدة واجتهادات قيمة في المجالات الطبية، وقد انفرد بعدة آراء عن بقية الأطباء في بعض القضايا الطبية، وكان مع اهتمامه الكبير بالطب وفنونه أديبًا شاعرًا عالمًا بالعربية، تُوفي بمدينة رامفور سنة ١٣٤٦هـ، ونُقل جثمانه إلى دهلي، ودُفن بها، رحمه الله، ورضي عنه، وجعل الفردوس مثواه. يُنظر: الندوي، تتمة الإعلام بمن في الهند من الأعلام، مصدر سابق، ج٨، ص١١٦٧ ـ ١١٦٩.

(١) يبدو أنه الحكيم الشيخ محمود عالم بن إلهي بخش الحسيني السهسواني، أحد أطباء الهند المشاهير، ولد بسهسوان، ونشأ بها، وسافر إلى رامبور وقرأ على العلامة عبد الحق بن فضل حق الخير آبادي وغيره من العلماء، وأخذ الطب اليوناني عن الحكيم الشهير عبد العلي بن إبراهيم اللكهنوي، ولازمه مدة، ثم عادَ إلى سهسوان، وقام بالتدريس بها مدة طويلة، وتُوفي سنة ١٣٣١هـ ببلدته، ودُفن هناك، رحمه الله، ورضي عنه. يُنظر: الندوي، تتمة الإعلام، مصدر سابق، ج٨، ص١٣٧٩.

ولو استطاع الناس إعدادَ أطباء، ليسوا في مستوى هؤلاء المذكورين، بل لو وُجد أطباء يملكون نصف الملكة الطبية التي كان يمتلكها أولئك لانتهى دور انحطاط الطب اليوناني، ولعاد ماء الحياة إليه من جديد، ولذهب ركود هذا الطب أدراج الرياح العاتية!

وكان طلاب العلم الشَّرعي ـ قديمًا ـ يتَّجهون بعد التخرُّج إلى تعلّم الطِّبّ اليوناني، وقد درس أكثر علماء الهند القدماء هذا الفن، وبرعوا فيه، لا أدري هل درس العلامة رشيد أحمد الغنغوهي، والعلامة محمد علي المونغري، والعلامة أشرف علي التهانوي[1] هذا الطبَّ، هل مارسوه أم لا؟ ولكني أعرف عن

---

(١) هو المربي الكبير حكيم الأمة أشرف علي بن عبد الحق التهانوي العمري، أحد نوابغ الدنيا في الدعوة والتزكية والتأليف، وُلد عام ١٢٨٠هـ ببلدة تهانه بهون من أعمال ولاية يُوفي بالهند، وأخذ العلوم الأولية في قريته عن الشيخ فتح محمد التهانوي والشيخ منفعت علي الديوبندي، ثم التحق بدار العلوم ديوبند الشهيرة عام ١٢٩٥هـ، وتخرج منها عام ١٢٩٩هـ، وقد تشرّف خلال هذه المدة للتلمذة على أيدي علماء ديوبند البارزين، من أمثال حجة الإسلام محمد قاسم النانوتوي، وشيخ الهند العلامة محمود حسن الديوبندي، والعلامة محمد يعقوب النانوتوي، والعلامة محمد عبد الله المهاجر المكي وغيرهم من العلماء الكبار، وبايع على يد المصلح الكبير الحاج إمداد الله المهاجر المكي، وقد برع الشيخ في التفسير وأصوله، والحديث=

. . . .

= وعلومه، والفقه وأصوله، والمنطق والحكمة، والأدب العربي والفارسي والأردي وغيرها من العلوم والفنون.
عمل في مجال التدريس في كل من مدرسة فيض عام وجامع العلوم بكانفور لمدة ١٥ عامًا، ثم استقال من التدريس عام ١٣١٥هـ بإذن شيخه المهاجر المكي، واستوطن قريته تهانه بهون، واشتغل بالتأليف والتصنيف والدعوة والإرشاد، وقد استفاد من كتبه ومواعظه ودعواته ودروسه وإرشاده خلق كثير لا يُحصي عددهم إلا الله تعالى، ويُعدّ الشيخ من علماء الهند القلائل الذين استطاعوا أن يكوّنوا الشخصيات العلمية والدعوية والسياسية الفذّة الذين قدّموا خدمات جليلة في مجالات مختلفة فيما بعد، يقول الشيخ أبو الحسن الندوي: «. . . وصار مرجعًا في التربية والإرشاد، وإصلاح النفوس وتهذيب الأخلاق . . . ويقصده الراغبون في ذلك من أقاصي البلاد وأدانيها، وانتهت إليه الرياسة في تربية المريدين وإرشاد الطالبين، والاطلاع على غوائل النفوس ومداخل الشيطان، ومعالجة الأدواء الباطنة والأسقام النفسية».
ويعدّ الشيخ من المكثرين في التأليف، ليس في تاريخ الهند فقط، بل في تاريخ العالم، حيث تجاوز عدد مؤلفاته ٨٠٠ مؤلف! ما بين كتب مبسوطة في مجلدات ورسائل وجيزة في عدة صفحات، ومن أشهر مؤلفاته: بيان القرآن (وهو تفسير جامع بين المسائل اللغوية واللطائف القرآنية والشروح التحقيقية)، وسبق الغايات في نسق الآيات، وجامع =

علم أن أكثر علماء عصرهم زاولُوا هذه المهنة، بل انخرط بعضهم فيها كليًّا، والبعض الآخر وإنْ لم ينخرطوا فيها إلا أنهم كانوا على معرفة ودراية بها.

وكان من عادة أولاد الأُسَر الشَّريفة والمتعلِّمة أن يدرسوا

= الآثار، وتابع الآثار، وإمداد الفتاوى (وهو مجموعة فتاويه التي كتبها بنفسه، حيث كان مرجع الفتوى في عصره)، ونشر الطيب في ذكر النبي الحبيب ﷺ، وحياة المسلمين، والإسلام والعقلانية (الانتباهات المفيدة في حل الاشتباهات الجديدة)، وأحكام الإسلام من منظور العقل وغيرها من المؤلفات الكثيرة، وقد أثَّرتْ كتبه ومؤلفاته في الحياة العلمية والدعوية والدينية في شبه القارة الهندية كلها.

تُوفي رحمه الله بعد حياة حافلة مليئة بالخدمات العلمية والدعوية سنة ١٣٦٢هـ ببلدة تهانه بهون، ودُفن هناك، رحمه الله تعالى رحمة واسعة، وجعل الفردوس مثواه. يُنظر: الندوي، تتمة الإعلام بمن في الهند من الأعلام، مصدر سابق، ج٨، ص١١٨٧ - ١١٨٩، والترجمة المختصرة التي كتبها الشيخ عبد الرشيد البستوي القاسمي في مطلع كتاب (الإسلام والعقلانية للتهانوي) بتعريب فضيلة الشيخ نور عالم خليل الأميني (ديوبند، أكاديمية شيخ الهند، ط١، ١٤٣٢هـ) ص٢١ - ٢٦، وخواجه عزيز الحسن مجذوب، أشرف السوانح (ملتان، إدارة تأليفات أشرفية، د.ط، ١٤٢٧هـ) أربع مجلدات باللغة الأردية، والندوي، محمد رحمة الله، أشرف علي التهانوي حكيم الأمة وشيخ مشايخ العصر في الهند (دمشق، دار القلم، د.ط، ١٤٢٧هـ).

هذا الفن بعد دراستهم المنطق والفلسفة، وكانوا يغوصون في بحاره، ويستوعبون طُرُقَه، حتى يحصل لهم من الملكة الطبية بحيث لو وضعوا أياديهم على شريان المريض لعرفوا حقيقة المرض وأعراضه بكل دقّة وتفصيل!

حالات المدارس الدينيّة:

وهكذا صارتْ حالُ مدارسنا الإسلامية ومؤسَّساتِنا الدّينية لا يتخرَّج منها الآنَ علماءُ بارعون مهرَةٌ، فانحسر دورُها، وقلَّتْ أهميّتُها في نظر الجهلة، فيجب عليكم أن تتمكَّنوا من العلوم الإسلامية والعربية، وأن تتميَّزوا في كلِّ فروعِها، وسترَون الدُّنيا مُقرّةً بعلمِكم، ومعترفةً بجدارتكم، وستنحلُّ حينئذٍ مُشكلةُ المعيشة وجميعُ المشاكل التي تظهر الآنَ في المدارس الإسلاميّة المعاصرة كنتيجةٍ حتميّة لِتَقصيرنا وعَجزِنا وهُروبنا من المسؤوليّة المُلقاة على عاتِقِنا، والمهارة اللازمة لها، ولعلَّ فضيلةَ الشَّيخ منَّة الله الرَّحماني أكثرُ مَن جرَّب مثلَ هذه المشاكل، حيثُ يُشارك في حَفَلات دار العلوم ديوبند ودار العلوم التابعة لندوة العلماء لكونه شخصيّةً مَرموقةً في كلتا الجامعتَينِ.

ويتخرَّج من مؤسَّساتنا الإسلامية في هذه الأيام آلافُ الخِرّيجينَ، ومعَ ذلك نجد نَقصًا حادًّا في العلماء البَصيرين بمقاصد الشَّرع الحنيف وواقع العصر الحاضر، ويتخرَّج من

مؤسَّساتنا الآنَ خِرّيجون يَحملون الشّهاداتِ العالية، ولكنَّهم لا يستطيعون قراءة الأحاديثِ النَّبويّة الشَّريفة بصورة صحيحة، وقد وصل الانحطاطُ إلى درجةٍ مُخزية جدًّا حتى أني وجدتُ أحدَهم تخرَّج من جامعة إسلامية لم يستطِعْ قراءةَ حديثِ «إنَّما الأعمالُ بالنِّيّاتِ!!» بطريقة صحيحة! وهو أوَّلُ حديثٍ في صحيح البخاري، وكانتْ ترجمتُه له أيضًا خاطئة!!!

مثلُ هذا النَّوع من الخرّيجينَ يتخرَّج من مؤسَّساتنا منذ أمدٍ بعيدٍ، ثم نَشكو من الزَّمن وعدمِ مبالاتِه بنا، وأنَّ أولياءَ أمورِنا ضيَّعوا مُستقبَلَنا حينَ أرسلونا إلى هذه المؤسَّسات!

إنّ الزَّمن مُستعِدٌ لتقديرِ أهلِ العِلم المُتميِّزينَ في أيِّ فنٍّ من الفنون، الذينَ صاروا مراجعَ للنّاس فيه، وهؤلاء العلماء لا يَجدون الفرصةَ في حياتهم؛ لكثرة المشاغلِ والأعمالِ والزّحام عليهم، ولو أن شخصًا تمكّن في علم ما فإن أمورَه تصبح مُيسَّرةً بإذن الله تعالى، فلو وجدتُم أحدًا يُواجِهُ الصُّعوبات رغم امتلاكه الملكاتِ العِلميّة والشَّخصيّة فإن ذلك يرجِعُ إلى مُشكلةٍ شخصيّةٍ فيه!

وقد قلتُ للشَّيخ مِنّةِ الله الرَّحماني قبلَ قليل: إني ألقيتُ مُحاضرةً في جامعةِ مَظاهر العلومِ بسهارنفور في بداية هذا الشهر، وقلتُ فيها: **لو سمعتُم عن شخصيّةٍ علميّةٍ مُؤهَّلةٍ لا يجدُ**

التَّقديرَ اللائقَ به فإنّ ذلكَ بسببِ قُصورٍ فيه أو كِبْرٍ أو غُرور أو تكاسُل أو سُوءِ مزاجٍ وغيرها من الأمور الشخصيّة، نسأل الله تعالى العافية.

نعم، لا بدَّ وأن يكون إهمال الناس والمجتمع له بسبب من تلك الأسباب وإلا لا يُمكن ألا يقدِّرَه النّاسُ، وألا يَحترمَه المجتمعُ، ولستُ مستعِدًّا - بأيِّ حالٍ من الأحوال - لِقَبولِ القَول بأن شخصًا علميًّا مُؤهَّلاً مُعتدلاً ومُتوازنًا ضاعَتْ مُؤهّلاتُه ومَلَكاتُه!

فالمسألة الأولى - إذن - هي مسألة الجِدّ.

وأريدُ أن أقولَ بهذا الصَّدد أمرًا آخَرَ، وأنا مُتأكِّدٌ بأنّكم لا تَتوقَّعونَ سَماعَ مِثلِ هذا الكلامِ منّي، ولكنّي أقولُه بناءً على الواقع المُؤسف الذي جرَّبْناهُ ونُجرِّبُه، وتعلمونَ أن نَدوةَ العلماءِ تأسَّسَت منذُ أوَّلِ يَومِها على فكرة إصلاحِ التَّعليم الدِّينيّ الذي كان في ذلك الوقت، وقد قام شخصٌ متعلِّمٌ وَفقَ النِّظامِ التَّعليمِيِّ القديمِ مثلِ الشَّيخِ محمّد علي المونغري الذي يُعَدُّ نَموذجًا حيًّا له، ونادى بالإصلاح التَّعليميّ، وأنا والشّيخُ مِنّةُ الله الرَّحمانيّ أيضًا نُطالِبُ به بناءً على مُقتضَياتِ العَصرِ الحاضر، غير أنّي مُضطرٌّ - اليومَ - إلى القول بأنّ **المُشكلةَ الأولى ليستْ مُشكلةَ النِّظامِ التَّعليميِّ، بل المشكلة الكبرى والمُعضلةُ العُظمى تَكمُنُ**

في عدمِ وجودِ الجِدِّ المطلوبِ والجهدِ المنشودِ فينا، وعدمِ التَّفاني والإقبال الكلِّي على الدّراسة والبحث والتّعلُّم، وإننا نرى بعينِ الواقعِ المُشاهَد أنّ النّظام القديم قد خرَّج أولئكَ الرِّجالَ الذين يَعجزُ النّظامُ الجديد عن تخريجِ أمثالِهم! ما السَّبب؟ وما المشكلة؟ وأين الخلل؟

ولا يَشكّ شخصٌ بصيرٌ بأن بعض جوانب نظام التعليم الجديد أحسنُ حالاً من النّظام القَديم، فالنّظام الذي كان يُدرَّس فيه كتابُ نَفحةِ اليَمن ومَقامات الحريري، ولم تكنْ فيه كتبٌ ذاتُ قيمةٍ أدبيّةٍ في النَّثر الأدبي تُكوِّن الملكة اللُّغوية القويّة والذَّوقَ الأدبيَّ السَّليم والتعبيرَ النَّثريَّ الفَصيح، ومع ذلك تخرّج عليه علماءُ قدَّموا خدماتٍ جَليلةً في مجالات الحياة، مثل العلامة مُرتَضى الزَّبيدي[1]، والعلامة غلام علي . . . .

---

(١) هو الإمام المحدث محمد بن محمد بن قادري الحسيني الزبيدي الملقَّب بمرتضى، أحد مشاهير العلماء والأدباء في العالَم، وُلد عام ١١٤٥هـ ببلدة بلكرام بالهند، ونشأ بها، ثم سافر إلى بلاد الحرمين عام ١١٦٤هـ، ثم سافر إلى اليمن، ونزل بزبيد، واشتهر بالانتساب إليها، حتى نسي الناس أنه من مدينة بلكرام الهندية، ثم رحل إلى مصر بعد أن ذاع صيته، فالتفَّ حولَه طلبةُ العلم والعلماء والمحدثون والفقهاء والملوكِ والأمراء، وأحبوه، وأخذوا عنه الإجازة، وقد أكثر المؤرخون ذِكر مناقبه ومآثره وصفاته من الذكر والطاعة والعلم والحلم والورع والتقوى وغيرها. =

. . . .

= أخذ العلم عن كثير من العلماء، وقد ذكر الزبيدي نفسه أن عددهم وصل إلى ٣٠٠ شيخ، وكان فيهم من علماء الهند: الإمام ولي الله الدهلوي، والعلامة المحدث محمد فاخر الإله آبادي، والعلامة المحدث أبو الحسن بن محمد صادق السندي، صاحب الحواشي الشهيرة على كتب الصحاح السّتّة، والشيخ خير الدين بن محمد زاهد السورتي وغيرهم.
ألّف مؤلفات سارتْ بها الركبان، من أهمها: تاج العروس في شرح القاموس، وإيضاح المدارك في الإفصاح عن العواتق، وعقد اللآلئ المتناثرة في حفظ الأحاديث المتواترة، وإتحاف السادة المتقين في شرح إحياء علوم الدين، وبلغة الأريب في مصطلح آثار الحبيب، وعقود الجواهر المنيفة في أدلة مذهب الإمام أبي حنيفة، وكشف اللثام عن آداب الإيمان والإسلام، وتحقيق الوسائل لمعرفة المكاتبات والرسائل، وجذور الاقتباس في نسب بني العباس وغيرها من الكتب الكثيرة الشهيرة، تُوفي بالطاعون في مصر سنة ١٢٠٥هـ، ودُفن بمقبرة السيدة رقية، رحمه الله رحمة واسعة، وأنزل عليه شآبيب الرضوان. يُنظر: الجبرتي، عبد الرحمن بن حسن، عجائب الآثار في التراجم والأخبار (بيروت، دار الجيل، د.ط، د.م) ج٢، ص١٠٣ ـ ١١٤، والقنوجي، أبجد العلوم، مصدر سابق، ص٥٧٩ ـ ٥٨٠، والميداني، عبد الرزاق بن حسين البيطار، حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر (بيروت، دار صادر، ط٢، ١٤١٣هـ) ص١٤٩٢ ـ ١٥١٦.

البيلكرامي[١]، والشيخ محسن بن يحيى . . . .

---

(١) هو المؤرخ اللغوي الشاعر غلام علي بن نوح الحسيني البلكرامي الملقَّب بحسّان الهند، أحد نوابغ الهند في الشعر والأدب، وُلد عام ١١١٠هـ ببلدة بلكرام، ونشأ في بيت دين وخُلق وعلم، وقرأ الكتب الأولية علي يد الشيخ السيد طفيل محمد الأترولوي، وأخذ اللغة والحديث والسير عن جده لأمه العلامة عبد الجليل بن مير أحمد البلكرامي، كما أخذ العروض والقافية عن خاله محمد بن عبد الجليل، ثم سافر إلى الحجاز وأخذ الحديث النبوي الشريف عن العلامة المحدث محمد حياة السندي، حيث قرأ عليه صحيح البخاري، وأخذ عنه إجازة الصحاح الستة وسائر مقروءاته، ثم عاد إلى الهند.

أقام في زاوية الشيخ مسافر الغجدواني بأونك آباد، وأحبه النواب نظام الدولة ناصر جنك بن آصف جاه حبًّا شديدًا، ولما تولّى ناصر جنك هذا الملك بعد وفاة والده ألحّ على الشيخ غلام علي لقبول منصب الإمارة، فأباها.

وكان من نوابغ الدهر في الأدب والشعر، وله مبتكَرات في الشعر العربي، لم يُسبق إليها، وكان مع براعته في الشعر العربي والفارسي لم يمدح أحدًا من الأغنياء إلا ناصر جنك، حيث مدحه مرة ببيتين في مناسبة خاصة.

ألّف كتبًا كثيرة نالت القبول والإعجاب، منها: ضوء الدراري شرح صحيح البخاري (من البداية إلى كتاب الزكاة)، وسبحة المرجان في آثار هندستان، وشفاء العليل في المؤاخذات على المتنبي في ديوانه، =

التّرهتي(١) والعلامة النواب صِدِّيق حسن خان القِنَّوجي(٢)، . . .

= ومآثر الكرام في تاريخ بلكرام، والشجرة الطيبة في أنساب السادة من أهل بلكرام، والسبعة السيارة (سبعة دواوين له، أتى فيها بالعجائب) وغيرها من الكتب، تُوفي سنة ١١٩٤هـ أو ١٢٠٠هـ ببلدة بلكرام، ودُفن بها، رَحِمَهُ اللَّهُ رحمة واسعة، وأسكنه فسيح جنانه. يُنظر: القنوجي، أبجد العلوم، مصدر سابق، ص٧١٢ ـ ٧١٤، والحسني، الإعلام بمن في الهند من الأعلام، مصدر سابق، ج٦، ص٧٧١ ـ ٧٧٣.

(١) هو المحدث محسن بن يحيى البكري التيمي التُّرهتي، أحد كبار علماء الهند، وُلد بمدينة تُرهت، ونشأ بها، وأخذ العلوم العربية عن الصدر ركن الدين القرشي الترهتي، والشيخ السيد عبد الغني المفتي، والشيخ علي جواد السلهتي، والفقيه محمد البكري الترهتي وغيرهم، ثم رحل إلى كانفور ولازم الشيخ سلامة الله الصِّدّيقي البدايوني مدة، ثم لازم الشيخ فضل حق بن فضل إمام الخير آبادي، ثم قرأ على المفتي واجد علي بن إبراهيم بن عمر البنارسي، ثم سافر إلى أرض الحرمين الشريفين، وأخذ الحديث النبوي الشريف عن المحدث الكبير عبد الغني بن أبي سعيد العمري الدهلوي بالمدينة المنورة، وقد ألّف فيه كتابه (اليانع الجنِيّ في أسانيد الشيخ عبد الغني) بمدينة الرسول ﷺ، وهو كتاب حافل بالأسانيد وتراجم العلماء في عصره، تُوفي بعد سنة ١٢٨٢هـ. يُنظر: الحسني، الإعلام بمَن في الهند من الأعلام، مصدر سابق، ج٧، ص١٠٧٩.

(٢) هو العلامة النواب السيد صديق حسن بن أولاد حسن بن أولاد علي =

. . . .

= الحسيني القِنَّوجي، أحد مشاهير علماء الهند، وُلد عام ١٢٤٨هـ ببلدة قنوج، وتُوفي أبوه وعمره سِتُّ سنوات، فعاش يتيمًا فقيرًا.
قرأ العلوم الأولية على أخيه أحمد حسن بن أولاد حسن، ودرس على علماء فرخ آباد وكانفور النحو والمنطق والفقه والحديث، ثم سافر إلى دهلي، واهتم به المفتي صدر الصدور صدر الدين خان، وقرأ عليه الفقه والأصول، وعلم الكلام والمنطق، والفلسفة، والبلاغة، والأدب العربي، وبعض التفاسير وغيرها، وأنزله في بيت النواب مصطفى خان، وكان بيته ملتقى العلماء والشعراء والفضلاء والوجهاء من كل صنف وطبقة، فاستفاد من صحبتهم كثيرًا في العلوم والآداب وحُسن المحاضرة، وانتهى من الدراسة المنظمة وعمره ٢١ سنة، وأجازه المفتي صدر الدين إجازة خاصة.
ثم سافر إلى بهوفال، فكلَّفَه الوزير جمال الدين الصِّدّيقي الدهلوي تعليمَ أسباطه، فقرأ في تلك الفرصة على القاضي زين العابدين بن محسن الأنصاري اليماني كتب الحديث وغيرها، وأخذ الإجازة عن صنوه العلامة حسين بن محسن السبعي الأنصاري اليماني، والشيخ المعمَّر عبد الحق بن فضل الله العثماني النيوتيني، وزوَّجَه الوزير بابنته التي يعلِّم أولادَها، ثم سافر إلى الحرمين الشريفين، وقرأ كتب السنة على محدثيها، ونال منهم الإجازة، كما نسخ الكتب النادرة في الحديث الشريف، ثم عاد إلى بهوبال وتولى نظارة المعارف ثم النظارة بديوان الإنشاء. =

. . . .

= وكان يحتاج إلى التردُّد على ملكة بهوفال شاهجهان بيغم بحكم منصبه، وكانتْ أيمًا، حيث تُوفي زوجُها النواب باقي خان، وأُعجبتْ بنسب الشيخ وعلمه واستقامته، فتزوَّجَت منه عام ١٢٨٧هـ، ثم تنازلتْ له عن الملك، فلقَّبته الحكومة الإنجليزية بالنواب أمير الملك السيد محمد صديق حسن خان بهادر، كما منحه السلطان عبد الحميد خان الوسام المجيدي من الدرجة الثانية.

وكان الشيخ مع أشغاله السياسية والإدارية مُكثرًا في التأليف والتصنيف، حيث ألَّف في أكثر العلوم والفنون المعروفة في وقته كتبًا نالت الرَّواجَ والقَبول، ويتجاوز عددها ٢٠٠ كتاب، ما بين كتب مطوَّلة ومختصرة، وأكثرها تلخيص أو تجريد أو ترجمة، من أهمها: فتح الرحمن في مقاصد القرآن، ونيل المرام في تفسير آيات الأحكام، وعون الباري بحلّ أدلة البخاري، والحطة في ذكر الصحاح الستّة، والبلغة إلى أصول اللغة، والسراج الوهاج في كشف مطالب صحيح مسلم بن الحجاج، والموائد والعوائد من عيون الأخبار والفوائد، وحسن الأُسوة بما ثبت من الله ورسوله في النّسوة، وقطف الثمر في بيان عقيدة أهل الأثر، والروضة الندية شرح الدرر البهية، وأبجد العلوم، وغيرها، كما طبَع بعض الكتب النادرة على نفقته الخاصة، مثل فتح الباري شرح صحيح البخاري، حيث طبَعه في مطبعة بولاق الأميرية بمصر، ووزَّعه بين أهل العلم.

اتهمتْه الحكومة الإنجليزية بالتحريض على الجهاد ضدَّها، والخروج=

والشيخ صدر الدين آزردة[١] وغيرهم من أساطين العلم والأدب.

ونحن اليومَ ندرِّسُ كتبًا قيّمة في الأدب العربي والنثر الفني، ومع ذلك لا نرى نماذج علمية وأدبية بذلك المستوى! ولو كانت المسألةُ مسألةَ النظام التعليمي فقط لخرَج اليومَ أمثالُ أولئك وأكثر منهم علمًا وأدبًا وملكة وسليقة، ولكن انظروا إلى صديقنا العزيز الشيخ مسعود عالم الندوي[٢] . . . .

= عليها، وأنه ألزم زوجتَه الملكة الحجابَ الشَّرعيَّ لينفرد بالحكم، فنزعَتْ منه الألقاب التشريفية التي منحتْه إياها سنة ١٣٠٢هـ، ثم منعتْه من إدارة الحكومة، وقد تحمَّل الشيخ كل ذلك بالصبر والاحتساب، وحاولتْ زوجته نفي هذه التُّهَم عن زوجها بكل جهودها، وتوفي سنة ١٣٠٧هـ، وشُيّع جثمانه في جمع حاشد غفير، وأمرت الحكومة الإنجليزية بتشييع جنازته حسب مراسيم الملوك والأمراء، ولكنه أوصى بدفنه على طريقة السنة، فنُفِّذتْ وصيّتُه، رَحِمَهُ اللهُ، ورضي عنه، وجعل الفردوس مأواه. يُنظر: القنوجي، أبجد العلوم، مصدر سابق، ص٧٢٥ ـ ٣٠، والحسني، الإعلام بمن في الهند من الأعلام، مصدر سابق، ج٨، ص١٢٤٦ ـ ١٢٥٠، والزركلي، الأعلام، مصدر سابق، ج٦، ص١٦٧ ـ ١٦٨، والميداني، حلية البشر، مصدر سابق، ص٧٣٨ ـ ٧٤٦، ورضية، د. حامد، نواب صديق حسن خان (بهوفال، أصغر منزل، د.ط، ١٩٨٣م).

(١) سبقتْ ترجمته.

(٢) هو الأستاذ مسعود عالم الندوي، أحد كبار الأدباء في الهند، وُلد =

الذي ملك ناصية الأدب العربي، ماذا درس فيه؟

= عام ١٣٢٨هـ الموافق ١٩١٠م ببلدة فتنة من محافظة بهار بالهند، وتعلَّم العلوم الأولية في المدارس الإسلامية، ثم التحق بدار العلوم التابعة لندوة العلماء عام ١٩٢٨م.
برع في الأدب العربي والأردي، وكان من المعجبين باللغة العربية والمدافعين عنها وحاملي لوائها في الهند، كما كان ذا اطلاع واسع على الأدب العربي شعرًا ونثرًا، والتاريخ الإسلامي والتراث الإسلامي، وقد توطَّدتْ صلتُه بكبار كُتاب العرب وأدبائِهم، مثل أمير البيان شكيب أرسلان، والعلامة محمد البشير الإبراهيمي، وقام برحلة علمية إلى العالم العربي عام ١٩٤٩، والتقى خلالها مع كبار الأدباء والعلماء في العالم العربي، وقد أودع ملاحظاته وآراءه حول هذه الرحلة في كتابه (شهور في ديار العرب)، وهو الذي قام بترجمة كثير من مؤلفات الأستاذ أبي الأعلى المودودي إلى اللغة العربية، أَلَّف كتبًا علمية قيمة، منها: تاريخ الدعوة الإسلامية في الهند، والاشتراكية والإسلام، ومحمد بن عبد الوهاب مصلح مظلوم ومفترًى عليه، وغيرها من الكتب والمؤلفات والمقالات والرسائل، تُوفي سنة ١٣٧٣هـ الموافق ١٩٥٤م بمدينة كراتشي، ودُفن بها، رَحِمَهُ اللَّهُ رحمة واسعة، ورضي عنه، وجعل الفردوس مأواه. يُنظر: الزركلي، الأعلام، مصدر سابق، ج٣، ص٢٢٠ ـ ٢٢١، والعقيل، المستشار عبد الله، من أعلام الدعوة والحركة الإسلامية المعاصرة (د.م، دار البشير، ط٧، ١٤٢٩هـ) ص١١٢١ ـ ١١٢٨، وكحالة، معجم المؤلفين، مصدر سابق، ج١٢، ص٢٣٢.

نعم، درس تلك الكتب القديمة، مثل المقامات للحريري وغيره، ولم تكن في أيامنا كتبٌ أدبية عالية المستوى، مثل المختارات وغيرها، وقد قرأتُ أنا شخصيًّا مقامات الحريري وغيره من الكتب الأدبية القديمة.

فالخلاصة من كل هذا أن الملكة العلمية والأدبية تعتمد في المقام الأول على الجهد الشخصي، والجِدّ الذاتي، ثم التضحية المُخلِصة من قبل الأساتذة والمُربِّين، ولا شكَّ أن النظام التعليمي الراقي مُعينٌ في ذلك؛ لذا ما زلتُ أُطالِبُ بإصلاح النظام التعليميِّ في مؤسَّساتنا الدينيّة بما يتناسب مع تطوُّرات العصر ومتطلَّباتِه، ولكن النظام وحدَه غيرُ كافٍ.

والمشكلة العويصة التي يشكو منها الأساتذة والعلماء والمُربُّون الآن بكثرة هي: أن طلابنا اليوم تركوا الجِدَّ والجهد والتضحية والتَّفانيَ في سبيل العلم، وليس فيهم ذلك الحماسُ للدِّين والغَيرةُ للأمة والتَّنافُس في العلم التي كان يتمتَّع بها علماؤنا السّابقون، فالتمكُّن في العلم والمعرفة لم يَعُدْ أمرًا ذا قيمة كبيرة ومَبعَثَ عِزّة عظيمة لدى طلابنا الآن، مع أنه كان في أسلافنا مَن قَدَّم التدريس في المدارس الدينية على السُّلطة والحكم، وكان أمرُ التعليم عندهم أرفعَ مكانًا من حكومة البلاد؛ لذا رفضوها دون مبالاة واهتمام.

وكان فيهم من جمع بين الأمرين: حيث كان يُؤدّي مهمّة الوزارة وتدريس الطلبة في آن واحد، وقد كان آصف الدولة[١] وسعادة علي خان[٢] وزراء بالنهار ومعلّمين بالليل، وأمثال هؤلاء كثيرون في تاريخنا الإسلامي.

---

(١) هو النواب آصف الدولة يحيى بن شجاع الدولة بن صفدر جنغ اللكهنوي، أحد ملوك مملكة أوَده الشيعية، وُلد عام ١٧٤٨م، وتولى المملكة بعد وفاة والده شجاع الدولة عام ١٧٧٥م، وكانتْ عاصمتها آنذاك مدينة فيض آباد، ونقل آصف الدولة العاصمة إلى لكهنو، وعمّرها بالأبنية الجميلة والشوارع الواسعة، بعضها موجود حتى الآن، مثل آصف مسجد (مسجد آصف الدولة) ورومي درْوازه (بوابة الرومي) وغيرهما، وهو رابع ملوك بني ميزا ناصر بمملكة أوَدة التي استقلَّتْ من السلطنة المغولية أيام ضعفها، واشتهرتْ بنشرها المذهب الشيعي في لكهنو، وقد اشتهر آصف الدولة بالتعمير وحبه للأدب، وتُوفي بمدينة لكهنو عام ١٢١٢هـ، ودُفن هناك. يُنظر: السيد، د. فؤاد صالح، أشهر الأحداث العالمية (١ ـ ١٨٩٩)، (بيروت، مكتبة حسن العصرية، ط١، ١٤٣٦هـ) ص٤٣٤ ـ ٤٣٥.

Cole, JRI, Roots of North Indian Shi'ism in Iran and Iraq Religion and State in Awada, 1722 - 1869 (Berkeley: University of California Press, c1988) p. 55 - 65.

(٢) هو النواب سعادة علي خان بن شجاع الدولة بن صفدر جنك اللكهنوي، أحد ملوك مملكة أوَدة الشيعية المشهورين بالعقل =

وكان العلامة الرياضي تفضل حسين[١] حين يلقي دروسَه

= والدهاء، وُلد عام ١١٦٧هـ بمدينة فيض آباد، وأخذ العلم عن العلامة تفضل حسين اللاهوري، وسديد الدين الشاهجهان فوري وغيرهما، ولّاه والده على أقطاع روهيلكهند فقام بها حتى عزله أخوه نواب آصف الدولة أيام ملكه، ونُصِّب نوابًا بعد وفاة أخيه عام ١٢١٢هـ، وصرف همته في التعمير والزراعة ونشر الأمن، واشتهر بحسن السيرة والعدالة ورزانة العقل ودهاء السياسة وتدبير شؤون الدولة وحزم السلطة بين الناس، وكان يريد أن يأخذ الهند على الاستيجار من الإنكليز بعد أن أحكموا سيطرتهم عليها، فحالت المنية دون ذلك، تُوفي عام ١٢٢٩هـ بمدينة لكهنو، ودُفن بها. يُنظر: الحسني، الإعلام بمن في الهند من الأعلام، مصدر سابق، ج٧، ص٩٨١ ـ ٩٨٢.

(١) هو العالم الرياضي تفضل حسين بن أسد الله بن كرم الله اللاهوري، أحد نوابغ الهند في العلوم الرياضية، وُلد بمدينة سيالكوت، وأخذ العلوم الأولية بها، ثم سافر إلى دهلي، وأخذ علوم الفلسفة والمنطق عن العلامة محمد وجيه الدهلوي، كما أخذ العلوم الرياضية عن المهندس الشهير محمد علي بن خير الله، ثم سافر إلى لكهنو، ودرس علم الكلام على الشيخ محمد حسن بن غلام مصطفى اللكهنوي، حتى برع في العلوم الفلسفية والرياضيات، وتقرب إلى النواب شجاع الدولة فجعله معلمًا لولده سعادت علي خان، ثم تقرب إلى نواب الملك العام، وعاش مدة في مصاحبته، وتعلم اللغة =

لا يستطيع أحد أن يتخيَّل أنه يُحسِنُ غيرَ التَّدريس، مع أنه كان وزيرًا كبيرًا في ولاية أودة!

ولكن الأمر انعكس تمامًا في مؤسَّساتنا الآن، حيث صِرنا نَستحي من تعريف أنفسنا بأننا مُدرِّسون أو طلبة للعلم الشرعي، فأريد أن أقول بناء على كل هذا: حاوِلُوا أن تُصلِحوا أنفسَكم، وأن تُكوِّنوا شخصياتكم، وغُوصُوا في بحار العلم، وكرّسوا حياتكم لأجله، وصِلُوا إلى أغوارٍ بعيدة في فرع من فروع العلم.

إن المشكلة التي تستحقُّ أن نُسمِّيَها الآن أزمة هي: مشكلة المدرّسين، حيث لا نجد مُدرّسين أكفاء في أيّ مكان، وقد وصلت حالتنا إلى درجة أننا فتحنا قاعاتٍ كبيرةً وفصولاً واسعة

= الإنجليزية واللاتينية، وأقبل على العلوم الرياضية إقبالًا كليًّا، واشتغل بها مدة من الزمان، حتى فاق الأقران وأهل الزمان.

استوزره صاحب أودة النواب آصف الدولة عام ١٢١١هـ، وكان مع قيامه بأمور الوزارة يقوم بتدريس العلوم الرياضية والفقه الحنفي وغيرها للطلبة، كما كان منقطع النظير في العلم والمعرفة وكثرة المطالعة والإفادة، ومن مؤلفاته: شرح على مخروطات إيلوينوس، وشرح على مخروطات ديوبنال، وشرح على مخروطات سمسن، ورسالتان في الجبر والمقابلة، تُوفي سنة ١٢١٥هـ بمدينة هازاري باغ، رحمه الله ورضي عنه. يُنظر: الحسني، الإعلام بمن في الهند من الأعلام، مصدر سابق، ج٧، ص٩٤٠ ـ ٩٤١.

ولكننا لا نجد اثنين أو ثلاثة من المدرسين الأكفاء الذين يتحمَّلون مسؤولية التدريس بحقِّها، وتبحث دار العلوم ديوبند عن شيخ لتدريس الحديث فيها من مدة، ولا نجد الرجل المؤهل الذي يصلح أن يكون شيخًا للحديث الشريف بها، ويعرف الكلُّ أن هذه المسألة لم تحلَّ بعدُ بطريقة مُطمئِنة، والشيخ منةُ الله الرحماني عضو في اللجنة المسؤولة عن تعيين شيخ الحديث بها، وهو غير مُطمئِنّ، وأنا غير مُطمئِنّ، والكلُّ غير مُطمئنّينَ، فالشخصُ المتَّصف بالمميزات التي تتطلَّبها قاعةُ دار العلوم ديوبند لم نجدْه حتى الآنَ.

فأسترعي اهتمامَكم ـ أنتم ـ إلى هذا الأمر المهمِّ، واخلُوا بأنفسكم لتكوين أنفسكم وإصلاح ذواتكم، ولا يظنَّنَّ أحدٌ أنكم بقيتم في هذه المدرسة البعيدة عن المدن الكبرى؛ لأنكم لم تجدوا المكان شاغرًا في ديوبند أو ندوة العلماء، بل أريد أن أقول لكم بكل صراحة: إن ديوبند وندوة العلماء لا تملكان أيَّ خصائص ذاتية، ويُمكنكم أن تُكوّنوا أنفسَكم في هذه الجامعة أو غيرها، واحصلوا على الكمال العلمي المطلوب من هنا وهناك، وحينئذٍ تجدون ديوبند وندوة العلماء تَطلبانِ حضوركم لتتربّعوا على أرائكِ دروسهما.

ويُمكنني أن أكتبَ لكم بأنكم لو وصلتُم إلى المؤهِّلات

المطلوبة فإن مكانكم محفوظ في دار العلوم ديوبند ومكانكم محفوظ في ندوة العلماء، وكلٌّ منهما وغيرُهما تتنافس لِتظفرَ بكم!

المؤهلات الدينيّة المطلوبة:

هذه هي الكلمة الأولى، والكلمة الثانية التي أُريد أن أقولها لكم اليوم هي: يجب أن تُكوِّنوا أنفسَكم في الجوانب الرُّوحية أيضًا، وأن تتحلَّوا بصفات العالم الربّاني والداعية الإسلامي التي كان يتمتَّع بها أسلافكم الكرام في الماضي القريب، والتي كانتْ في الشيخ محمد علي المونغري ورفاقه ومعاصريه، **كما يجب أن** تطهر حياتكم من الأخلاق المشينة والسِّيَر القبيحة التي لا تَليق بالعالِم الرَّبانيّ والداعية الإسلامي، وأن تتحلَّوا بصفة التوكُّل على الله تعالى، والاستغناء به عن غيره، والزُّهد في الدُّنيا وما فيها، والميل إلى الدّار الآخرة، والعبادة والذِّكر والطّاعة، ويُمكن أن أُلخّصها في جملة واحدة: **يجب أن يكون مُستواكم الرُّوحيُّ العمليُّ فوق مستوى عامة المسلمين.**

فيجب عليكم أن تُكوّنوا أنفسكم في العلوم النَّظريّة وأن تُوطِّنُوا أنفسَكم في العلوم العملية عن طريق توطيد علاقاتكم بالله سبحانه وتعالى، تلك العلاقة التي كانتْ من صفات العلماء اللازمة في كل عصر ومصر، فكان الناس يميلون إلى الله تعالى برؤيتهم،

وكانتْ صحبتُهم تُذكّر بالآخِرة، وتُجدِّد الحماسَ والرَّغبة إليها، ويثور في الناس حماسُ الحبِّ وغَيرةُ الودّ إلى الله تعالى.

مهمّتان خارجيّتان:

كما أريد أن ألفتَ نظركم إلى مُهمّتَينِ خارجيَّتَين، ولا يظنَّ أحدٌ أني أقول ذلك لوجود أمير الشَّريعة الشيخ منةِ الله الرحماني هنا، بل ثقوا تمامًا بأن ما أقوله لكم إنما أقوله بناء على مقتضيات الأمانة العلمية والدينية؛ لأن النبي ﷺ قال: «المُستشارُ مُؤتَمَنٌ»(١).

وبما أنكم أحسنتُم وفادتي، وأظهرتُم ثقتَكُم فيّ، فيجب عليّ أن أقول بكل صراحة وأمانة ما أراه نافعًا لكم في مستقبل الحياة، ومن هنا أقول: إن هناك مُهمَّتَينِ خارجيّتَينِ بالإضافة إلى المهمَّتَينِ الداخليَّتَينِ السّابقتَين، فمِن مهامِّكُم الخارجيّة الأولى، أن تبذلوا كل جهد لتطبيق الشريعة الإسلامية كاملة في ولاية بهار وأريسة، وأن تُوسِّعوا دائرة شبكاتها بكامل الولاية، بحيث لا تبقى أيّةُ قَريةٍ نائية أو بادية بعيدة خارجة عن حدود الشَّريعة الإسلاميّة الغرّاء.

ومن عظيم مِنّةِ الله تعالى عليكم التي تَستدعي الغَيرة والغِبطةَ أنه سبحانه وتعالى قد أكرم هذه الولاية بتطبيق الشريعة الإسلامية

---

(١) أخرجه الإمام الترمذي في الجامع، أبواب الزهد، باب ما جاء في معيشة أصحاب النبي ﷺ، رقم الحديث: ٢٣٦٩، وقال الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح غريب».

(عن طريق منظمة الإمارة الشرعية)[1]، ولكن الناس لا يُدركون

---

(١) هي منظمة أهلية غير حكومية تشرف على القضاء الأهلي الإسلامي، وتطبيق أحكام الشريعة الغراء في حياة المسلمين، وتنظيم شؤونهم الخاصة، وقد تأسَّستْ في ١٩ شوال ١٣٣٩هـ الموافق ١٩٢١م على يد العالم الكبير أبي المحاسن محمد سجّاد ﷺ وبتأييد كبار العلماء في ذلك الوقت، كأمثال العلامة أبي الكلام آزاد، والعلامة محمد علي المونغري، وشيخ الهند محمود حسن الديوبندي وغيرهم، وتشمل دائرة أعمالها ثلاث ولايات هندية، وهي: بهار وأريسا وجهاركند، كما توسعتْ خارجها أيضًا في بعض المجالات، ويُختار لها رئيس - يُلقّب بأمير الشريعة - ومجلس إدارة ومكاتب فرعية تقوم بإدارة شؤونها، ولها محكمة شرعية مركزية تتبعها ٤٤ محكمة فرعية موزّعة بين الولايات، ولها دُور إفتاء خاصة بها وأقسام أخرى تُشرف على أنشطة الدعوة والإرشاد، وتنظيم أمور المسلمين، والتعليم، والتدريب القضائي، والمدارس والكتاتيب، ومعاهد التدريب المهني، والمستشفيات الخيرية، وحماية المسلمين، وبيت المال، والنشر والتوزيع، ووفاق المدارس الإسلامية (وهي هيئة عليا للإشراف على الجامعات والمدارس والمعاهد الإسلامية الأهلية)، وشؤون المساجد والمكتبات، وهذه المنظمة تشبه الولايات التابعة للدولة الفيدرالية إلى حد ما، غير أنها لا تحمل صفة رسمية، وإنْ كانت الحكومة تُراعي توجُّهاتها، ويمكن أن تكون هذه المنظمة نموذجًا حيًّا وقدوة صالحة للمسلمين في الدول ذات الأقلية المسلمة في تنظيم شؤونهم، وتطبيق أحكام الإسلام في حياتهم. يُنظر: القاسمي، محمد امتياز عالم، =

قيمتَها، مع الأسف الشديد، بل يَبذلون أقصى جهدهم لتضييق الخناق عليها، وإخراجها عن معلب الحياة.

قلتُ لمَن كان معي في القطار وأنا قادم إليكم: لا أدري ماذا يكون جواب كبار العلماء أمام الله تعالى يوم القيامة لو سُئلوا: كيف قضَوا حياتَهم بدون تطبيق الشَّريعة؟ إن الوعيد الذي ورد في الحديث النبوي الشَّريف بهذا الصَّدد مُخيف جدًّا، ولهذا أُريد أن أقول بصراحة: **إن واجبَكم الأول بعد التخرُّج هو توسيع دائرة النظام الإسلامي، ويجب أن تَربطوا كلَّ مُسلم في هذه الولاية بقانون الشَّرع، بحيث يقضون جميع جوانب الحياة تحتَ ظلِّ النّظام الإسلامي.**

وأرى أن تتولَّى الولايةُ أمرَ تنظيمِ الزكاة، وأن تُؤخَذَ من المسلمين زكاةُ الأموال الظّاهرة كالحيوانات والأراضي وغيرها، وتُوزَّع حسب النظام الإسلامي بين المُستحقِّين، أما زكاة الأموال الباطنة كالذهب والفضة، فيُمكن أن يُترك أمرُها للنّاس، بل إن زكاة الأموال الباطنة أيضًا كانتْ تُؤخذ من قبَل الحكومة قبْل عهد سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه.

والخلاصةُ أنَّ واجبَكم الأول بعد التخرُّج ـ في نظري ـ هو

= تدريب القضاء والإفتاء في الهند دراسة علمية (الهند، مجمع الفقه الإسلامي الهندي، ط١، ١٤٣٤هـ) ص٦٣ ـ ٨١.

العمل في هذا المجال، ولا أُفضِّل عليه غيرَه، ولو استطعتُم أن تُؤدُّوا هذه المهمّة على وجهها الصحيح فإنكم بذلك لا تُؤدُّون حقوقَ الجامعة الرَّحمانية التي درستُم فيها فقط، بل تمتازون بخصيصة متميزة من بين خريجي المدارس الإسلامية جميعها.

والواجب الثاني الذي يجب عليكم أن تعملوا لأجله هو: **تأسيس الكتاتيب الإسلامية في كل مكان، وأرى أن تأسيس الجامعات العريقة التي تدرّس فيها الكتب الصحاح وغيرها ليستْ مهمّة بقدر أهميّة هذه الكتاتيب التي تُعلَّم فيها حروفُ التَّهجي لأطفال المسلمين**، وأستميحُكم عذرًا لهذا الكلام؛ لأنه قد لا يروق لبعضكم، ولكنه الحقُّ.

إن هذه الكتاتيب التي تُدرَّس فيها المبادئُ الأساسية للدّين، والأحكامُ المُهمة للحلال والحرام، والتفريق الواضح بين التوحيد والشرك والإيمان والكفر والحقّ والباطل أهمّ بكثير من الجامعات العريقة والمراكز العلمية.

إننا جالسون بين جدران المدارس الإسلامية الأربعة بهدوء وأمان، مع أن الهند من طرفها إلى طرفها تتغيَّر بسرعة البرق، ويتمُّ فيها تأميم كلِّ شيء!

يأتي الآن دورُ جامعة عليكرة الإسلامية مثلاً، ومن يدري لعله غدًا يأتي دورنا نحن، فيجب أن نتنبَّه إلى سيل الفيضانات

قبل أن تصل فوق رؤوسنا، وأن نُوسِّع شبكات الكتاتيب الإسلامية على طول الهند وعرضها، وأن نجعل المساجد مركزَ حياة المسلمين والمجتمعات الإسلامية.

إن آخر ما يصل إليه تأثير الحركات الهدّامة والفتن الفتّاكة هو المساجد والجوامع؛ لذا يجب أن نجعل هذه الأماكن الأمينة مراكزَ الحياة الإسلامية؛ لأنها آخِرُ ما تبلغ إليها أمواج الثورة المتغيّرة، ولعل ذلك اليوم لا يأتي في حياة المسلمين أبدًا، وتصل القيامة قبل أن تصل مياه التَّغيُّر إلى المساجد بإذن الله تعالى، ولهذا كلِّه يجب أن نجعل من المساجد مراكزَ الحياة الإسلامية، وأن نُؤسِّس فيها الكتاتيب الإسلامية بكثرة.

ولا ينبغي أن يخدعكم التفكير الخاطئ بأن كلَّ هذه العلوم التي تعلَّمناها هنا هل يمكن أن نُضيِّعها بتدريس حروفُ الهِجاء لأقوام بدائيِّين يَقطنون في القُرى والبوادي!!

لا، لا يخدعنَّكم مثل هذا التفكير الرَّجعي الآثِم؛ لأن **الهدف الأسمى من أعمالنا وأنشطتنا كلِّها هو رضا الله سبحانه وتعالى، والحفاظ على أحكام الشريعة الإسلامية، وتطبيق الدِّين الإسلاميّ، والكتاتيب أهمُّ قاعدة في هذا البنيان الكبير.**

فالخلاصة أنَّ أمامَكم مجالَين اثنَين للجهاد، أحدُهما داخليٌّ والآخر خارجيٌّ، فالداخليُّ: أن تُكوّنوا أنفسَكم على وجه

الكمال العلمي الإنساني، وأن تُطوّروا ذواتِكم في العلوم الباطنة، والخارجيُّ: أن تَعملوا لتطبيق النظام الإسلامي بعد التخرُّج، وتُؤسِّسوا الكتاتيب الإسلامية.

فلو استطعتُم القيام بهاتين المهمَّتَين ـ كما ينبغي ـ فإنكم ستكونون النموذجَ الأمثلَ لقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [الرعد: ١٧].

وحينئذٍ لا تستطيع يدُ الكون الناشبة محوَ وجودِكم، ولا يُمكن لأيّة ثورة آثمةٍ أن تَسلُبَ حقَّكم من الحياة؛ لأنكم قد أثبتُّم جدارتَكم على البقاء والاستمرار في هذه الأرض بأعمالكم العظيمة ونشاطاتكم الجبارة، وكلُّ مَن يعمل لأجل الإسلام، ويُثبِتُ جدارتَه في هذا المجال، فإن الله تعالى قد وعده بالحفظ الآمن والعيش الهانئ، وقد قال رسول الله ﷺ في تلك الحالة الصعبة يوم بدر: «اللَّهُمَّ إنْ تُهلِكْ هذِه العِصابةَ لَن تُعبَدَ»[1].

وعليكم أن تُثبِتُوا صدقَ هذه المقولة النبويّة الشَّريفة بأن هَلاكَكُم يَعني ضياعَ الدِّين في هذه الأرض، وزوالَكم يَستدعي زوالَ الإسلام من هذه البلاد.

---

(١) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه بلفظ «اللَّهُمَّ إن تُهلِكْ هذِهِ العِصابةَ مِنْ أهلِ الإسلامِ لَا تُعبَدْ في الأرضِ»، كتاب الجهاد والسير، باب الإمداد بالملائكة في غزوة بدر وإباحة الغنائم، رقم الحديث: ١٧٦٣.

ولو استطعتُم أن تُثبتوا ذلك بالنسبة لأرض الهند ـ على الأقل ـ فإن الله تعالى سيحفظ دينَكم في هذه الأرض بحفظه المنيع، ولن يستطيعَ أيُّ عدوٍّ ـ مهما كانتْ قوّتُه وسَطوتُه ـ أن يقلع شعرةً من أجسادكم!

إخوتي الأعزاء! أرجو ألا تنسَوا كلمتيّ هاتَينِ، ولعل كلماتي هذه لا تحمل ذلك الحماس الذي يُؤثِّر في القلوب، ولعلَّها لا تحتوي على معارف دقيقة وألفاظ ناريّة مُجلجِلة، غير أنها هي الكلمات التي تحتاجونها، وإنْ استطعتُم أن تَقبلوها بقلوبكم، وتَمكَّنتُم من تحقيقها في حياتكم فإنكم سترون بعد عشر سنين من الآن ـ مثلاً ـ مدى القوّة التي كوّنتُمُوها لصالح الإسلام والمسلمين في هذه الدّيار، ليست لأجلكم فقط، بل لجميع مدارس الهند الإسلامية ولجميع الدعوات والحركات الإيمانية.

فإنْ لم تقوموا بهذه المهامِّ العظيمة، لا سمحَ الله تعالى، فقد يأتي يوم ينطفِئُ فيه نور الإسلام في هذه الدِّيار، وحينئذٍ تلتفُّون يمينًا ويسارًا، فلا تَرون أيَّ أثر للإيمان وأيَّ قبس من النور! نسأل الله تعالى العفو والعافية.

ولكن لو استطعتُم أن تُثبتوا جَدارتَكم بأنّكم قادرون على تحمُّل أمانةِ النُّور الإلهيّ والشرع الرَّبانيّ، وأن تُبرهنوا على أنكم

أحقُّ بالبقاء في هذه الأرض، فإن ثورة التاريخ وتمرُّدَ الحياة لا تستطيع أن تمحوَ وجودكم منها بإذن الله تعالى.

لا يمكن بقاء أمة تطلب وجودَها من الآخَرين

إن لم تقوموا بهذه المهامِّ، فإن اللُّجوء إلى التاريخ المجيد والدَّور الحضاري القديم، وطلب الرحمة والشَّفقة من الآخَرين، لا يُمكن أن يحفظ لكم وجودكم ودعوتكم وحركتَكم، فإنْ أردتُم أن تسمعوا كلمة ناصحة مني فهذه هي الكلمات الأخيرة بهذا الصَّدد، ولو طلبتُم مني أيَّ مَشورة واستشارة في هذا المكان فإن هذه هي آخر مشورتي تجاهَكم، ولو قَبِلتُم مني طلبًا فإنه آخِرُ طَلبٍ لي في مقامكم، ولا أطلبُ منكم غيرَه.

وأخيرًا أقول: إنكم أصحابُ سعادة كبيرة ونعمة جزيلة، حيث تنتمون إلى مؤسَّسة عريقة من مُؤسَّسات الهند العظيمة، وتَستظلونَ بظلٍّ شخصيّة عظيمة من شخصياتها الكبيرة، هذه الشخصيّة التي تُشرف على المؤسَّسات العلمية والإيمانية والإسلامية في هذه الدّيار، وأرجو الله تعالى أن يُوفِّقَكم للاستفادة من صحبته، وتربيته، وإرشاده، وأن تصلوا إلى الدرجات العلا من المجد، وأن تُفيدوا أمّتَكم بعِلمكم وعملكم وخلُقِكم وتَربيتِكم، وآخِرُ دعوانا أن الحمد لله ربِّ العالمين.





قائمة المصادر والمراجع

(حسب الترتيب الهجائي لاسم شهرة المؤلف)

المراجع العربية

١ ـ آزاد، أبو الكلام، مسألة الخلافة وجزيرة العرب، تعريب: مصباح الله عبد الباقي (القاهرة، دار الكتاب المصري، د. ط، ١٤٣٥هـ).

٢ ـ الآلوسي، أبو البركات خير الدين نعمان بن محمود، جلاء العينين في محاكمة الأحمدين (د.م، مطبعة المدني، د.ط، ١٤٠١هـ).

٣ ـ الأنصاري، محمد عبد الله فاروق، الشيخ محمد أنور شاه الكشميري وآراؤه الاعتقادية؛ عرضًا ونقدًا (رسالة ماجتسير مجازة من قسم العقيدة بكلية الدعوة وأصول الدين، بجامعة أم القرى عام ٢٠٠٠م).

٤ ـ البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم الجعفي، صحيح البخاري، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر بترقيم الشيخ محمد فؤاد عبد الباقي (د.م، دار طوق النجاة، ط١، ١٤٢٢هـ).

٥ ـ البعث الإسلامي، المجلد: ٣٦، العدد: ٣.

٦ ـ آل بوطامي، أحمد بن حجر البنعلي، القاديانية ودعايتها الضالة والرد عليها (بيروت، المكتب الإسلامي، ط١، ١٤٣١هـ).

٧ ـ الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة، جامع الترمذي، تحقيق: أحمد محمد شاكر ومحمد فؤاد عبد الباقي وإبراهيم عطوة (مصر، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، ط٢، ١٣٩٥هـ).

٨ ـ التهانوي، أشرف علي، الإسلام والعقلانية، تعريب: نور عالم خليل الأميني (ديوبند، أكاديمية شيخ الهند، ط١، ١٤٣٢هـ).

٩ ـ ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم الحراني، اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم، تحقيق: ناصر الدين العقل (بيروت، دار عالم الكتب، ط٧، ١٤١٩هـ).

١٠ ـ الجبرتي، عبد الرحمن بن حسن، عجائب الآثار في التراجم والأخبار (بيروت، دار الجيل، د.ط، د.م).

١١ ـ الجرمي، إبراهيم محمد، معجم علوم القرآن (دمشق، دار القلم، ط١، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م).

١٢ ـ الحسني، عبد الحي بن فخر الدين بن عبد العلي، الإعلام بمن في الهند من الأعلام (بيروت، دار ابن حزم، ط١، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م).

١٣ ـ الحسني، الثقافة الإسلامية في الهند، مراجعة: أبي الحسن الندوي (دمشق، مجمع اللغة العربية، ط٢، ١٤٠٣هـ).

١٤ ـ الحسني، الهند في العهد الإسلامي (لكهنو، دار عرفات، د.ط، ١٤٢٢هـ).

١٥ ـ الحسني، محمد الثاني بن عبد العلي بن عبد الحي، الإمام أحمد بن عرفان الشهيد في محراب التاريخ (راي بريلي، مجمع الإمام أحمد بن عرفان الشهيد لإحياء المعارف الإسلامية، د.ط، د.ت).

١٦ ـ الحسني، محمد الثاني، الشيخ محمد يوسف الكاندهلوي حياته ومنهجه في الدعوة، تعريب: جعفر مسعود الحسني الندوي (بيروت، دار البشائر الإسلامية، ط١، ٢٠٠٤م).

١٧ ـ الحسيني، أبو الفضل محمد خليل بن علي، سلك الدرر في أعيان القرن الثامن عشر (بيروت، دار البشائر الإسلامية، ط٣، ١٤٠٨هـ).

١٨ ـ الحسيني، قدرة الله، العلامة السيد عبد الحي الحسني؛ عصره ـ حياته ـ مؤلفاته (جدة، دار الشروق، ط١، ١٤٠٣هـ).

١٩ ـ ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد الإشبيلي، المقدمة، تحقيق: إبراهيم شبّوح وعباس إحسان (تونس، القيروان للنشر، ط١، ٢٠٠٦م).

٢٠ ـ خليل الرحمن، عبد الوهاب، الدعوة السلفية في شبه القارة الهندية وأثرها في مقاومة الانحرافات الدينية (رسالة دكتوراه مجازة من كلية الشريعة والدراسات الإسلامية بجامعة أم القرى عام ١٤٠٦/١٤٠٧هـ).

٢١ ـ أبو داود، سليمان بن الأشعب بن إسحاق السجزي، سنن

أبي داود، تحقيق: شعيب الأرناؤوط ومحمد كامل قره بللي (د.م، دار الرسالة العالمية، ط١، ١٤٣٠هـ).

٢٢ ـ الزركلي، خير الدين بن محمود، الأعلام (د.م، دار العلم للملايين، ط١٥، ٢٠٠٢م).

٢٣ ـ السُّبكي، تاج الدين عبد الوهاب بن تقي الدين السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، تحقيق: محمود محمد الطناحي وعبد الفتاح محمد الحلو (د.م، هجر للطباعة والنشر والتوزيع، ط٢، ١٤١٣هـ).

٢٤ ـ السخاوي، شمس الدين أبو الخير محمد بن عبد الرحمن، المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة، تحقيق: محمد عثمان الخشت (بيروت، دار الكتاب العربي، ط١، ١٤٠٥هـ).

٢٥ ـ السيد، د. فؤاد صالح، أشهر الأحداث العالمية؛ ١ ـ ١٨٩٩، (بيروت، مكتبة حسن العصرية، ط١، ١٤٣٦هـ).

٢٦ ـ السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، اللآلئ المصنوعة في الأحاديث الموضوعة، تحقيق: أبي عبد الرحمن صلاح بن محمد بن عويضة (بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٧هـ).

٢٧ ـ الشاطبي، أبو إسحاق إبراهيم بن موسى اللخمي الأندلسي، الموافقات، تحقيق: عبد الله دراز (بيروت، دار الكتب العلميَّة، ط٢، ١٤٢٩هـ).

٢٨ ـ شفيق، عبد المنان محمد، حركة الإمامين أحمد بن عرفان والشاه محمد إسماعيل بن عبد الغني الدهلوي وآثارهما على المجتمع

الإسلامي في الهند (رسالة ماجستير مجازة من جامعة أم القرى بالمملكة العربية السعودية).

٢٩ ـ الصغاني، رضي الدين الحسن بن محمد بن الحسن العدوي، الموضوعات، تحقيق: نجم عبد الرحمن خلف (دمشق، دار المأمون، ط٢، ١٤٠٥هـ).

٣٠ ـ الطبراني، سليمان بن أحمد بن أيوب اللخمي الشامي، المعجم الأوسط، تحقيق: طارق بن عوض الله بن محمد وعبد المحسن بن إبراهيم الحسيني (القاهرة، دار الحرمين، د.ط، د.ت).

٣١ ـ الطنطاوي، علي بن مصطفى، أحمد بن عرفان الشهيد (دمشق، دار الفكر، ط٢، ١٣٩٩هـ).

٣٢ ـ الطنطاوي، رجال من التاريخ (جدة، دار البشير، ط١، ١٤١٨هـ).

٣٣ ـ ظهير، إحسان إلهي، القاديانية: دراسات وتحليل (باكستان، إدارة ترجمان السنة، د. ط، ١٤٠٤هـ).

٣٤ ـ العجلوني، إسماعيل بن محمد بن عبد الهادي الجراحي، كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس، تحقيق: عبد الحميد هنداوي (بيروت، المكتبة العصرية، ط١، ١٤٢٠هـ).

٣٥ ـ العقيل، عبد الله، من أعلام الدعوة والحركة الإسلامية المعاصرة (د.م، دار البشير، ط٧، ١٤٢٩هـ).

٣٦ ـ أبو غدة، عبد الفتاح، تراجم ستة من فقهاء العالم الإسلامي (بيروت، دار البشائر الإسلامية، ط١، ١٤١٧هـ).

٣٧ ـ الغوري، سيد عبد الماجد، أعلام المحدثين في القرن الرابع عشر الهجري (دمشق، دار ابن كثير، ط١، ١٤٢١هـ).

٣٨ ـ الفَتْني، محمد طاهر بن علي الصديقي الهندي، تذكرة الموضوعات (د.م، إدارة الطباعة المنيرية، ط١، ١٣٤٣هـ).

٣٩ ـ ابن الفوطي، أبو الفضل عبد الرزاق بن أحمد الشيباني، مجمع الآداب في معجم الألقاب، تحقيق: محمد كاظم (وزارة الثقافة والإرشاد الإيرانية، ط١، ١٤١٦هـ).

٤٠ ـ القاري، أبو الحسن نور الدين علي بن محمد، الأسرار المرفوعة في الأخبار الموضوعة، تحقيق: محمد الصباغ (بيروت، دار الأمانة، د.ط، د.ت).

٤١ ـ القاسمي، محمد امتياز عالم، تدريب القضاء والإفتاء في الهند دراسة علمية (الهند، مجمع الفقه الإسلامي، ط١، ١٤٣٤هـ).

٤٢ ـ القاسمي، محمد عارف جميل، لمحة عن الجامعة الإسلامية دار العلوم ديوبند ومناهجها ومقرراتها الدراسية (ديوبند، إدارة القبول والتسجيل بديوبند، ط١، ١٤٣٧هـ)

٤٣ ـ القِنَّوجي، النواب محمد صديق بن أولاد حسن الحسيني، أبجد العلوم (بيروت، دار ابن حزم، ط١، ١٤٢٣هـ).

٤٤ ـ القنوجي، الخطة في أخبار الكتب الستة (بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٠٥هـ).

٤٥ ـ قيصر، رضوان، أبو الكلام آزاد وتشكل الأمة الهندية (بيروت، الفكر العربي، ط١، ٢٠١٦م).

٤٦ ـ كحالة، عمر بن رضا بن محمد، معجم المؤلفين (بيروت، دار إحياء التراث العربي، د.ط، د.ت).

٤٧ ـ الكشميري، الشاه محمد أنور، إكفار الملحدين في ضروريات الدين (كراتشي، إدارة القرآن والعلوم الإسلامية، ط٣، ١٤٢٤هـ).

٤٨ ـ مجذوب، خواجه عزيز الحسن، أشرف السوانح باللغة الأردية (ملتان، إدارة تأليفات أشرفية، د.ط، ١٤٢٧هـ).

٤٩ ـ المحاسبي، الحارث بن أسد، رسالة المسترشدين، تحقيق: عبد الفتاح أبي غدة (حلب، مكتب المطبوعات الإسلامية، ط٢، ١٣٩١هـ).

٥٠ ـ المرعشلي، يوسف، نثر الجواهر والدرر في علماء القرن الرابع عشر (بيروت، دار المعرفة، ط١، ١٤٢٧هـ).

٥١ ـ مسلم، ابن الحجاج القشيري النيسابوري، صحيح مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي (بيروت، دار إحياء التراث العربي، د.ط، د.ت).

٥٢ ـ المناوي، زين الدين محمد بن تاج العارفين، فيض القدير (مصر: المكتبة التجارية الكبرى، ط١، ١٣٥٦).

٥٣ ـ ابن منظور، محمد بن مكرم بن علي الأنصاري، لسان العرب (بيروت، دار صادر، ط٣، ١٤١٤هـ).

٥٤ ـ المودودي، أبو الأعلى، المسألة القاديانية ضمن ثلاث رسائل عن القاديانية (الكويت، مكتبة دار البيان، د.ط، د.ت).

٥٥ ـ الميداني، عبد الرزاق بن حسين البيطار، حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر (بيروت، دار صادر، ط٢، ١٤١٣هـ).

٥٦ ـ الندوي، أبو الحسن علي الحسني، إذا هبتْ ريح الإيمان (الكويت، دار القلم، د.ط، ١٣٩٤هـ).

٥٧ ـ الندوي، الإمام الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي ومآثره العلمية، تعريب: السيد جعفر مسعود الحسني الندوي (دمشق، دار القلم، ط١، ١٤٣٣هـ).

٥٨ ـ الندوي، التزكية والإحسان أو التصوُّف والسلوك (تزكية واحسان يا تصوف وسلوك)، ترجمة: محمد الحسني، (لكهنو: مجلس تحقيقات ونشريات إسلام، د.ط، ١٤٣٢هـ).

٥٩ ـ الندوي، ربانيّة لا رهبانية (بيروت، دار الفتح، ط١، ١٣٨٦).

٦٠ ـ الندوي، رجال الفكر والدعوة في الإسلام (دمشق، دار ابن كثير، د. ط، ١٤٢٨هـ).

٦١ ـ الندوي، القادياني والقاديانية: دراسة وتحليل (جدة، الدار السعودية للنشر، ط٣، ١٣٨٧هـ).

٦٢ ـ الندوي، المسلمون في الهند (دمشق، دار ابن كثير، ط١، ١٤٢٠هـ).

٦٣ ـ الندوي، المسلمون وقضية فلسطين (دمشق، دار ابن كثير، ط١، ١٤٢٩هـ).

٦٤ ـ الندوي، محمد أكرم، شبلي النعماني علامة الهند الأديب والمؤرخ الناقد الأريب (دمشق، دار القلم، ط١، ١٤٢٢هـ).

٦٥ ـ الندوي، محمد رحمة الله، أشرف علي التهانوي حكيم الأمة وشيخ مشايخ العصر في الهند (دمشق، دار القلم، د.ط، ١٤٢٧هـ).

٦٦ ـ الندوي، محمد رحمة الله محمد ناظم، المحدث الكبير الداعية الجليل الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي؛ حياته وجهوده العلمية والتعريف بأهم مؤلفاته (بيروت، دار البشائر الإسلامية).

٦٧ ـ نعيم الحق، حسين محمد، المذاهب الفقهية في شبه القارة الهندية وأثرها في إثراء الفقه الإسلامي، بحث منشور في موقع الملتقى الفقهي.

٦٨ ـ النمر، عبد المنعم، مولانا أبو الكلام آزاد؛ حياته وجهاده الديني والوطني في سبيل تحرير الهند (رسالة دكتوراه مجازة من قسم التاريخ التابع لكلية اللغة العربية بجامعة الأزهر عام ١٩٧٢م، متوفرة في الشبكة العنكبوتية).

٦٩ ـ الهاشمي، شاه معين الدين وجنيد أحمد الهاشمي: التصوُّف في الفكر الإصلاحي التجديدي للشيخ أشرف علي التهانوي، بحث منشور في مجلة جامعة بانْجاب.

❁ ❁ ❁

المراجع الأجنبية

٧٠ ـ رضية، حامد، نواب صديق حسن خان باللغة الأردية (بهوفال، أصغر منزل، د.ط، ١٩٨٣م).

٧١ ـ مشتاق، أحمد: دور العلماء في حركة الاستقلال ضد الاستعمار باللغة البنغالية (داكا، مكتبة نادية القرآن، د.ط، ٢٠٠٦م).

٧٢ ـ الموسوعة الإيرانية، مقال خاص بالشاعر السعدي باللغة الإنجليزية.

٧٣ ـ الندوي، أبو الحسن علي، حضرت مولانا محمد إلياس أور آن گي ديني دعوت (الشيخ محمد إلياس ودعوته الدينية) (لاهور، طيب فبليشرز، د.ط، ٢٠٠٩م).

٧٤ ـ النعماني، محمد منظور وأبو الحسن علي الحسني الندوي ومحمد أويس الندوي: ما هو التصوُّف (تصوف كيا هيـــ) مجموعة مقالات عن التصوُّف باللغة الأردية (لاهور: إدارة الإسلاميات، د. ط، ١٤٠١هـ).

٧٥ ـ Cole, JRI, Roots of North Indian Shi'ism in Iran and Iraq Religion and State in Awada, 1722- 1869(Berkeley: University of California Press, c1988).

٧٦ ـ Datta, Amaresii and others, Encyclopaedia of Indian literature (New Delhi, Sahitya Academy, 1st edition, 1988).



فهرس الموضوعات

